

كَتَبَهُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكًا لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ۖ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ

[٢٩ / ص / ٣٨]

تفسير الفاسمي

الميسمي

مخازن التاويد

تأليف علامته الشكامة

محمد جمال الدين الفاسمي

١٢٨٣ - ١٣٣٢ هـ / ١٨٦٦ - ١٩١٤ م

الجزء الثالث عشر

وفيه تفسير : (من ٢٦ - سورة الشعراء إلى ٣٣ - سورة الأحزاب)

وقف على طبعه وتصحيحه ، ورقمه وخرج آياته وأحاديثه ، وعلق عليه

بمخازن عبد الرحمن

عيسى الباني الحلبي وشركاه

obeikandi.com

كلمة

كاتب الشرق الأكبر ، عطوفة أمير البيان

الأمير شكيب أرسلان

في مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف ، رضى الله عنه

« وإنى لأوصى جميع الناشئة
الإسلامية ، التي تريد أن تفهم الشرع
فهماً تراخ إليه ضمائرهما ، وتنمقد عليه
خناصرها ، ألا تقدم شيئاً على قراءة
تصانيف المرحوم الشيخ جمال القاسمى »

جنيف . رجب الفرد ١٣٥٣

كلمة

مصلح العصر الإمام

السيّد محمد رشيد رضا

في مجلد المنار السابع عشر ، صفحة ٥٥٨

« هو علامة الشام ، ونادرة الأيام ،
والمجدّد لعلوم الإسلام ، محي السنة
بالعلم والعمل والتعليم ، والتهذيب
والتأليف ، وأحد حلقات الاتصال
بين هدَى السلف ، والارتقاء المدنيّ
الذى يقتضيه الزمن »

كلمة

حضرة صاحب الفضيلة ، عالم الشام الأوحد

الشيخ محمد بركة البيطار

في مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف رضى الله عنه

« إن مما يقضى بالعجب من أمر أستاذنا المؤلف رحمه الله تعالى ، هو كونه خلف زهاء
مائة مصنّف أو أكثر ، ولم يبلغ الخمسين من عمره . وندر جداً أن ترى كتاباً ، في خزائنه
الواسعة ، مخطوطاً كان أو مطبوعاً ، خالياً من التعليقات الكثيرة ، والتصحيح على الأصول
الخطية الصحيحة .

ولقد كان ، رحمه الله ، آية في المحافظة على الوقت ، والمواظبة على العمل .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٦ - سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

هي مكية، لإقوله تعالى (١) «وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ» إلى آخرها. وقوله (٢) «أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُوْا وَعُلَمُوا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ» فقد روى أنهما نزلتا بالمدينة، وكان شعراؤه صلى الله عليه وسلم بالمدينة، حسان وكعب بن مالك وابن رواحة، رضى الله عنهم. وقال الداني: روى بسند صحيح أنها نزلت في شاعرين تهاجيا في الجاهلية، مع كل واحد منهم جماعة. فالسورة على هذا كلها مكية. انتهى.

وقال المهايى: سميت هذه السورة بها، لاختصاصها بتمييز الرسل عن الشعراء، لأن الشاعر، إن كان كاذبا فهو رئيس الغواة لا يتصور منه الهداية، وإن كان صادقا لا يتصور منه الافتراء على الله تعالى، وهذا من أعظم مقاصد القرآن، انتهى.

يشير إلى أن ذكر الشعراء فيها، لبيان أنهم في معزل عن الرسالة وتبرئة مقام الرسول صلوات الله عليه، عما افتروا عليه من أنه شاعر؛ فالسورة على هذا كلها مكية، ردًا لفرقتهم. ولما كان لفظ (الشعراء) عامًا، جاز حمله على ما حكوه، لشموله له، لأنه نزل فيه خاصة دون غيره. وسيأتى، إن شاء الله تعالى، إيضاح ذلك. وهي مائتان وسبع وعشرون آية. قال ابن كثير: وقع في تفسير مالك المروى عنه، تسميتها (الجامعة).

(١) [٢٦ / الشعراء / ٢٢٤ - ٢٢٧]. (٢) [٢٦ / الشعراء / ١٩٧].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (طسّم)

« طسّم » سبق في سورة البقرة الأقوال في هذه الفواتح ، وأن الأكثر على أنها اسم للسورة ، فحله الرفع على أنه خبر لمحذوف ، وهو أظهر من رفعه على الابتداء . أو النصب بتقدير : اقرأ ونحوه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ)

« تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ » الإشارة إلى السورة ، وما فيها من معنى البعد للتعظيم ، وحله الرفع على الابتداء ، خبره ما بعده أو يدل ماقبله . والمراد (الكتاب) القرآن . و(المبين) الظاهر إعجازه وآيته وبرهانه . من (أبان) بمعنى بان - أو المبين للحق من الباطل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (لَعَلَّكَ بَإِخْعِ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)

« لَعَلَّكَ بَإِخْعِ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ » أى قاتل «نفسك أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ» أى لعدم إيمانهم . و(لعل) للإشفاق . أى أشفق على نفسك أن تقتلها حسرة على عدم إيمانهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ)

« إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ » أى ماجةة لهم إلى الإيمان ، قاسرة عليه «فَظَلَّتْ

أَعَنَّمَهُمْ لَهَا خَضِعِينَ « أى منقادين، والجملة مستأنفة لتعليل ما يفهم من الكلام من النهى عن التحسر المذكور، ببيان أن إيمانهم ليس مما تعلقت به مشيئة الله تعالى حتماً، فلا وجه للطمع فيه، والتألم من فواته. قاله أبو السعود.

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٥] (وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ)

« وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ » أى مكذبين، استهزاء وإصراراً على ما كانوا عليه من الكفر. وتقدم نظير الآية فى أول سورة الأنبياء، وتحقيق معنى قوله تعالى (محدث) فتذكر.

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٦] (فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءٌ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

« فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءٌ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ » أى أحواله الباهرة وشؤونه القاهرة، وظهور أعلامه، وبقاء أيامه. وفيه وعيد لهم بحلول النذر بهم، ونزول الصغار وقتئذ بدارهم.

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٧] (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ)

« أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ » أى صنف مرضى

كثير المنافع.

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٨] (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ)

« إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ » لصرهم اختيارهم إلى جانب الكفر ، وعدم تدبرهم في هذه الآيات .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

« وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ » أى فهو القادر على الانتقام منهم بلا ممانع ، والرحيم بإمهاله وحلمه عنهم ، فلينتبهوا قبل أن يحل بهم ما حلّ بفرعون وقومه ، ولذا استأنف نبأ موسى عليه السلام معه ، بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ اتَّبِعْ أَتَىٰ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

[١١] (قَوْمَ فِرْعَوْنَ ، أَلَا يَتَّقُونَ)

[١٢] (قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ)

[١٣] (وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ)

« وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ اتَّبِعْ أَتَىٰ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ ، أَلَا يَتَّقُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي » أى فى أداء الرسالة ، فى بسطة من المقال « فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ » أى ليوازرنى ويشدّ به عضدى . والمفعول محذوف ، أى ملكا أو جبريل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (وَلَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ)

[١٥] (قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا ، إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ)

« وَلَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ » وهو قتل القبطى ، المبسوط فى غير هذه السورة « فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ * قَالَ كَلَّا » أى لا تخف إنك من الآمنين « فَأَذْهَبَا بِمَا يَنْتَظِرَانِ إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ » مزيد تسلية لهما ، بكال الحفظ والنصرة .

قال أبو السعود: مثل حاله تعالى بحال ذى شوكة قد حضر مجادلة قوم يستمع ما يجرى بينهم، لئلا أولياءه ، ويظهرهم على أعدائهم ، مبالغة فى الوعيد بالإعانة . انتهى .
ولو قيل هو كناية عن ذلك، كان أولى . لجواز بقاء المعنى الحقيق معها، وهو هنا كذلك . فهو تعالى مستمع لهما وحافظ وناصر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (فَأَتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

[١٧] (أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ)

« فَأَتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ »
ليتحرروا من عبوديتك وعذابك المهين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ)

[١٩] (وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ)

« قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ »
يعنى قتل القبطى . « وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ » أى بنعمتى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (قَالَ فَعَلْتَهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ)

« قَالَ فَعَلْتُمْهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ » أى الجاهلين بكون الوكزة مفضية إلى القتل .
أو الذاهبين عن صواب الحـلم والعمو والدفع بالأحسن .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ
الْمُرْسَلِينَ)

« فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْ » أى تقتلونى على القتل الخطأ، فنجانى الله منكم، وزادنى
إنعاماً « فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا » أى حكمة أو نبوة « وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ » أى لإبطال
دعواك الربوبية، واستئصال شبه ما عليه قومك من الوثنية. وطلب إرسال قومى إلى مواطنهم
الأصلية ، وقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ)

« وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ » إبطال لمنته عليه فى التربية ،
بيان أنها فى الحقيقة نعمة . لأنه كان اتخذ بنى إسرائيل ؛ عبداً مسخرين فى شؤونه ،
مذللين لأمره ، مقهورين لعسفه . وموسى عليه السلام ، وإن لم ينله من ذلك مانالهم ، إلا أنه
لما كان منهم ، فكأنه وصل إليه ، وحلّ به ، كما قيل (وظلم الجار إذلال الجير) أى لا يفي
إحسانك إلى رجل منهم بما أسأت إلى مجموعهم ، وما أنا إلا عضو منهم . وفى فحواها تقريره
بالكبرياء المتناهية ، والقسوة البالغة ، والسلطة الغالية التى من ورائها الفرج القريب ،
والخرج العجيب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ)

[٢٤] (قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ)

[٢٥] (قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ - أَلَا تَسْتَمِعُونَ)

« قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ - أَلَا تَسْتَمِعُونَ » أى لهذا النبأ العجيب ، وهو توحيد المعبود. وإنما عدّه جديراً بأن يتمعّبوا منه، لأنهم، على ما حقه المؤرخون، غلوا في عبادة الأصنام وتعميد الآلهة غلوّاً أربوا على كل من سواهم في الضلال . فكانوا يسجدون للشمس والقمر ، والنجوم ، والأشخاص البشرية ، والحيوانات ، حتى الهوام ، وأدنى حشرات الأرض .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ)

[٢٧] (قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ)

[٢٨] (قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ)

« قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ

لَمَجْنُونٌ » أى لكونه يدعو إلى خلاف ما عقل عن الآباء .

« قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ » أى شيئاً ما، أو إن

كنتم من أهل العقل علمتم أن الأمر كما قلته . وفيه إيذان بغاية وضوح الأمر، بحيث لا يشتبّه

على من له عقل في الجملة ، وتلويح بأنهم بمعزل من دائرة العقل، وإنهم المتصفون بما رموه عليه

السلام به من الجنون .

تنبیه :

ذهب بعض المفسرين إلى أن فرعون كان من المعطلة، لا يقر بخالق، ولا يعترف بمعبود.

لظاهر قوله^(١) (مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ آلِهِ غَيْرِي) وأن قومه كانوا لا يؤلهون سواه .
قال ابن كثير : ومن زعم من أهل المنطق أن هذا سؤال عن الماهية فقد غلط . فإنه لم يكن
مقراً بالصانع ، حتى يسأل عن الماهية ، بل كان جاحداً له بالسكاية فيما يظهر . انتهى .
وقد منا أنه حقق الاكتشاف الصحيح والتاريخ الوثيق ، أنه كان من الوثنيين الغالين .
وأن له ولقومه عدة معبودين علويين وسفليين .

وعليه فمعنى قوله (مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ آلِهِ غَيْرِي) أى مطاع عظيم ، وكانوا لا يتحاشون
من إطلاق الإله على الجبار المسيطر . فبقى سؤاله بما يحتمل أن يكون على نهج القاعدة المنطقية ،
من طلب الاكتناه ، وتعجبه من جوابه ، ثم رميه بالجنون ، ثانياً ، لدوله عن الكنه إلى
الأثر . ويحتمل أن يكون لتعرفه من جهة وحدته في ربوبيته التي ادعاها موسى ، وأن تعجبه
لما شاهد من الجد في الدعوة والثبات عليها ، والصدع بما يؤلم عظمته ، وبنمز جبروته ؛ وهذا
هو الذى أذهب إليه ، فإن التوم بمعزل عن أن يعجبوا لسكون الجواب كان بالرسم لا بالحد ،
إذ هو اصطلاح لفئة خاصة ، ومع هذا فالنظم يحتمله ولا ياباه . وقد عول عليه كثير من أهل
النظر ، ولا بأس بأن نأثر شيئاً من لطائفهم فيه .

قال الرازى : السؤال ب(ما) طلب لتعريف حقيقة الشيء . وتعريف حقيقة الشيء إما أن
يكون بنفس تلك الحقيقة ، أو بشيء من أجزائها ، أو بأمر خارج عنها ، أو بما يتركب من الداخل
والخارج . أما تعريفها بنفسها فمحال ؛ لأن الم عرف معلوم قبل الم عرف . فلو عرف الشيء بنفسه
لزم أن يكون معلوماً قبل أن يكون معلوماً ، وهو محال . وأما تعريفها بالأمر الداخلية فيها ،
فهاهنا فى حق واجب الوجود محال ، لأن التعريف بالأمر الداخلة ، لا يمكن إلا إذا كان الم عرف
مركباً ، وواجب الوجود يستحيل أن يكون مركباً ؛ لأن كل مركب ، فهو محتاج إلى كل
واحد من أجزائه . وكل واحد من أجزائه فهو غيره ؛ فكل مركب محتاج إلى غيره . وكل
ما احتاج إلى غيره فهو ممكن لذاته . وكل مركب فهو ممكن ، فاليس بممكن يستحيل أن

(١) [٢٨ / القصص / ٣٨] .

يكون مركباً . فواجب الوجود ليس بمركب ، وإذا لم يكن مركباً استحال تعريفه بأجزائه . ولما بطل هذان القسمان ، ثبت أنه لا يمكن تعريف ماهية واجب الوجود ، إلا بلوازمه وآثاره .

ثم إن اللوازم قد تكون خفية ، وقد تكون جلية . ولا يجوز تعريف الماهية باللوازم الخفية ، بل لابد من تعريفها باللوازم الجلية . وأظهر آثار ذات واجب الوجود، هو هذا العالم المحسوس ، وهو السموات والأرض وما بينهما .

فقد ثبت أنه لا جواب البتة لقول فرعون (وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ) إلا ما قاله موسى عليه السلام ، وهو أنه رب السموات والأرض وما بينهما . فأما قوله (إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ) فمعناه إن كنتم موقنين باستناد هذه المحسوسات إلى موجود واجب الوجود ، فاعرفوا أنه لا يمكن تعريفه إلا بما ذكرته . لأنكم لما سلمتم انتهاء هذه المحسوسات إلى الواجب لذاته ، وثبت أن الواجب لذاته فرد مطلق ، وثبت أن الفرد المطلق لا يمكن تعريفه إلا بآثاره . وثبت أن تلك الآثار لا بد وأن تكون أظهر آثاره وأبعدها عن الخفاء ، وما ذاك إلا السموات والأرض وما بينهما . فإن أيقنتم بذلك لزمكم أن تقطعوا بأنه لا جواب عن ذلك السؤال ، إلا هذا الجواب ولما ذكر موسى عليه السلام هذا الجواب الحق ، قال فرعون لمن حوله (أَلَا تَسْتَمِعُونَ) وإنما ذكر ذلك على سبيل التعجب من جواب موسى ، يعني أنا أطلب منه الماهية ، وخصوصية الحقيقة ، وهو يجيبني بالفاعلية والمؤثرية .

وتمام الإشكال أن تعريف الماهية بلوازمها ، لا يفيد الوقوف على نفس تلك الماهية ، وذلك لأننا إذا قلنا في الشيء أنه الذي يلزمه اللازم الفلاني ، فهذا المذكور ، إما أن يكون معرفاً مجرد كونه أمراً ما يلزمه ذلك اللازم . أو لخصوصية تلك الماهية التي عرضت لها هذه اللزومية والأول محال . لأن كونه أمراً يلزمه ذلك اللازم جعلناه كاشفاً . فلو كان المكشوف هو هذا القدر لزم كون الشيء معرفاً لنفسه ، وهو محال . والثاني محال ، لأن العلم بأنه أمر ما ، يلزمه اللازم الفلاني ، لا يفيد العلم بخصوصية تلك الماهية اللزومة ، لأنه لا يمنع في العقل اشتراك

الماهيات المختلفة في لوازم متساوية. فثبت أن التعريف بالوصف الخارجي ، لا يفيد معرفة نفس الحقيقة، فلم يكن كونه رباً للسموات والأرض وما بينهما جواباً عن قوله (وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ) فأجاب موسى عليه السلام بأن قال (رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ) وكأنه عدل عن التعريف بمخالفة السماء والأرض ، إلى التعريف بكونه تعالى خالقاً لنا ولآبائنا . وذلك لأنه لا يمتنع أن يعتقد أحد أن السموات والأرضين واجبة لذواتها، فهي غنية عن الخالق والمؤثر. ولكن لا يمكن أن يعتقد العاقل في نفسه وأبيه وأجداده ، كونهم واجبين لذواتهم . لما أن المشاهدة دلت على أنهم وجدوا بعد العدم ، ثم عدموا بعد الوجود ، وما كان كذلك استحالة أن يكون واجباً لذاته . وما لم يكن واجباً لذاته ، استحالة وجوده إلا لمؤثر . فكان التعريف بهذا الأثر أظهر ، فلهذا عدل موسى عليه السلام من الكلام الأول ، إليه . فقال فرعون (إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ) يعني المقصود من سؤال (ما) طلب الماهية ، وخصوصية الحقيقة . والتعريف بهذه الآثار الخارجية لا يفيد البتة تلك الخصوصية ، فهذا الذي يدعي الرسالة مجنون ، لا يفهم السؤال فضلاً عن أن يجيب عنه .

فقال موسى عليه السلام (رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ) فعدل إلى طريق ثالث أوضح من الثاني ، وذلك لأنه أراد بالشرق طلوع الشمس وظهور النهار ، وأراد بالمغرب غروب الشمس وزوال النهار، والأمـر ظاهر في أن هذا التدبير المستمر على الوجه العجيب ، لا يتم إلا بتدبير مدبر ، وأما قوله (إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ) فكأنه عليه السلام قال : إن كنت من العقلاء ، عرفت أنه لا جواب عن سؤالك إلا ما ذكرت ، لأنك طلبت مني تعريف حقيقته بنفس حقيقته، وقد ثبت أنه لا يمكن تعريف حقيقته بنفس حقيقته ولا بأجزاء حقيقته. فلم يبق إلا أن أعرف حقيقته بآثار حقيقته . وأنا قد عرفت حقيقته بآثار حقيقته ، فقد ثبت أن كل من كان عاقلاً ، يقطع بأنه لا جواب عن هذا السؤال إلا ما ذكرته. ثم قال الرازي : وقد بينا في سورة الأنعام في تفسير قوله تعالى^(١) : (وَهُوَ الْقَاهِرُ

(١) [٦ / الأنعام / ١٨] .

فَوْقَ عِبَادِهِ) أن حقيقة الإله سبحانه من حيث هي ، هي غير معقولة للبشر . انتهى .
وقال الإمام ابن حزم في (المِلَل والنَّحَل) في الكلام في المائة : ذهب طوائف من المعتزلة إلى أن الله تعالى لا مائة له . وذهب أهل السنة وضرار بن عمرو ، إلى أن الله تعالى مائة . قال ضرار : لا يعلمها غيره . قال ابن حزم : والذي نقول به ، وبالله تعالى التوفيق ، أن له مائة هي إنيته نفسها ، وإنه لا جواب لمن سأل : ما هو الباري ، إلا ما أجاب به موسى عليه السلام ؛ إذ سأله فرعون (ومارب العالمين) ؟ ونقول أنه لا جواب ههنا لا في علم الله تعالى ولا عندنا ، إلا ما أجاب به موسى عليه السلام . لأن الله تعالى حمد ذلك منه وصدق فيه . ولو لم يكن جواباً صحيحاً تاماً لا تنقص فيه ، لما حمده الله تعالى .

ثم قال : ههنا تقف ولا نعلم أكثر . ولا ههنا أيضاً شيء غير هذا ، إلا ما علمنا ربنا تعالى ، من سائر أسمائه ، كالعليم والقدير والمؤمن والمهيمن وسائر أسمائه .

قال تعالى (١): (وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ بِعِلْمًا) إذ كل ما أحاط به العلم فهو متناه محدود وهذا منقضى عن الله عز وجل ، وواجب في غيره ، لوقوع العدد المحاط به في أعراض كل مادونه تعالى ، ولا يحاط بما لا حدود له ولا عدد له . فصيح يقيناً أننا نعلم الله عز وجل حقاً ، ولا نحيط به علماً . انتهى ملخصاً .

ولما سمع فرعون تلك المقالات البنية على أساس الحكم البالغة ، وشاهد شدة حزم موسى عليه السلام وقوة عزمه على دعوته ، عدل عن خطاة الإنصاف إلى الاعتساف ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ)

[٣٠] (قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ)

[٣١] (قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)

(١) [٢٠ / طه / ١١٠] .

- [٣٢] (فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ)
 [٣٣] (وَنَزَعَ يَدَهُوَ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ)
 [٣٤] (قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُوَ - إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ)
 [٣٥] (يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ)
 [٣٦] (قَالُوا أَرْجَاهُ وَأَخَاهُ وَأُبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ)
 [٣٧] (يَا تَوَكُّبِكُلِّ سِحْرٍ عَلِيمٍ)
 [٣٨] (فَجُمِعَ السَّحْرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ)
 [٣٩] (وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ)

« قَالَ لِمَنْ أَنْخَذَتْ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْمَلَنكَ مِنَ الْمُسْجُونِينَ * قَالَ أَوْلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ * قَالَ فَأْتِ بِهِ - إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُوَ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ * قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُوَ - إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجَاهُ وَأَخَاهُ » قريء بهمز وبدونه ، وهما لغتان . يقال أَرَجَاتُهُ وَأَرْجِيته إذا أَخْرته . والمعنى أَخْرها ومناظرتهما لوقت اجتماع السحرة « وَأُبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ » أى شَرَطًا بِحشرون السحرة ، أى يجمعونهم عندك « يَا تَوَكُّبِكُلِّ سِحْرٍ عَلِيمٍ * فَجُمِعَ السَّحْرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ » أى لرؤية ما يعارض معجزة موسى . وكان خَامَرَ فؤادهم عجب منها واندهاش . والاستفهام مجاز عن الحث والاستعجال .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحْرَةَ إِنْ كَانُوا مِنْهُمْ الْغَالِبِينَ)

[٤١] (فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَةَ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَنْ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ)

[٤٢] (قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ)

[٤٣] (قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ)

[٤٤] (فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ)

[٤٥] (فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ)

[٤٦] (فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ)

« لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحْرَةَ إِنْ كَانُوا مِنْهُمْ الْغَالِبِينَ * فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَةَ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ

أَنْ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * قَالَ

لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ * فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ

الْغَالِبُونَ * فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ » أى تبتلع ما موهوا به إفسا

وزورا « فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ » أى على وجوههم منقادين له بالإيمان ، لعلمهم بأن

مثله لا يتأتى بالسحر . وفيه دليل على أن منتهى السحر تمويه وتزيق يخيل شيئاً للاحقيقة له ،

وأن التبخرى فى كل فن نافع وإن لم يكن من العلوم الشرعية ، فإن هؤلاء السحرة ، لتبخرهم فى

علم السحر ، علموا حقيقة ما أتى به موسى عليه السلام ، وأنه معجزة . فانتفعوا بزيادة علمهم

لأنه أداهم إلى الاعتراف بالحق والإيمان ، لفرقهم بين المعجزة والسحر . قاله القاضى

والشهاب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

[٤٨] (رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ)

[٤٩] (قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ وَقَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ، إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي

عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْمَلُونَ ، لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ

مِّنْ خَلْفٍ وَلَأَصْلَبَنَكُمْ أَجْمَعِينَ)

[٥٠] (قَالُوا لَا ضَيْرَ ، إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ)

[٥١] (إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَاتِنَا إِنَّ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ)

« قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ * قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ وَقَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ

لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ » أي فعلكم شيئاً دون شيء ، ولذلك غلبكم .

أو فواعدكم ذلك وتواطأتم عليه . أراد به التلبيس على قومه ؛ كي لا يعتقدوا أنهم آمنوا على بصيرة وظهور حق .

« فَلَسَوْفَ تَعْمَلُونَ ، لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ » أي جانبين متخالفين .

« وَلَأَصْلَبَنَكُمْ أَجْمَعِينَ * قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ » أي لا ضرر علينا في ذلك ،

بل لنا فيه أعظم النفع ، لأننا بفعلك هذا وصبرنا عليه ، شهادة على حقيقته ، إلى ثوابه ورحمته

راجعون ، فننقلب خير منقلب ، شهداء سعداء « إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَاتِنَا » أي

لأن « كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ » أي من أظهر الإيمان كفاحاً ، مجاهرة بالحق بلا تقيية . ثم أشار

تعالى إلى خروج موسى بقومه من مصر بإيجائه إليه . وكان إذن فرعون له بذلك بعد ما أراه

الآيات البينات ثم ندم عليه ، فأتاه الإذن الإلهي به ، كما قال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَن أَسْرِ بِعِبَادِيٰ إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ)

«وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَن أَسْرِ بِعِبَادِيٰ إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ» أى سِر بهم ليلاً، فإنه إذا وصل خبر سيركم إلى فرعون، لابد أن يتبعكم بجنوده لإرجاعكم، إلا أنكم تقدمونه ولا يدرككم.

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ)

«فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ» أى حين أخبر بسراهم «فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ» أى جامعين

لعسكره، قائلين ما يقلل به الأعداء في أعين الجنود :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ)

[٥٥] (وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ)

[٥٦] (وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ)

[٥٧] (فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)

[٥٨] (وَكَنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ)

«إِنَّ هَٰؤُلَاءِ» أى بنى إسرائيل الخارجين «لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ» أى يفعلون أفعالاً تغيظنا وتضيق صدورنا من مخالفة أمرنا والخروج بغير إذن منا «وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ» أى من مكرهم وسعيهم بالفساد في الأرض «فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكَنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ» يعنى : المنازل الحسنة والمجالس البهية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ)

« كَذَلِكَ » إشارة إلى مصدر ، أى مثل ذلك الإخراج أخرجناهم ، فهو في محل نصب صفة لمصدر مقدر ، أو هو خبر لمخوف ، أى الأمر كذلك .

قال الشهاب : وإذا قدر (الأمر كذلك) فالمراد تقريره وتحقيقه ، والجملة معترضة حينئذ كالتي بعدها . « وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ » . قال الشهاب : هو استعارة ؛ أى ملكناها لهم تملك الإرث بعد زمان . وكان العاقبة ، لما كانت لهم ، صاروا كأنهم ملكوها من حين خروج أربابها منها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (فَاتَّبِعُوهُمْ مُشْرِقِينَ)

« فَاتَّبِعُوهُمْ مُشْرِقِينَ » أى لحقوهم وقت شروق الشمس .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦١] (فَلَمَّا تَرَاءَ الْجُمُعَانَ قَالَ أَصْحَبُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ)

[٦٢] (قَالَ كَلَّا ، إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ)

[٦٣] (فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ، فَانفَلَقَ

فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ)

« فَلَمَّا تَرَاءَ الْجُمُعَانَ » أى تقاربا بحيث رأى كل واحد منهما الآخر « قَالَ أَصْحَبُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ » أى للحقون « قَالَ كَلَّا » أى لن يدركوكم فإن الله وعدكم بالخلاص منهم « إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ » أى لطريق النجاة منهم . « فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ

أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَأَنْفَلَقْ «أى فضر به فانفلق» فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ «
أى كل جزء متفرق منه كالجبل الكبير .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (وَأَزَلَفْنَا ثَمَّ الْأَخْرِينَ)

[٦٥] (وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ وَأَجْمَعِينَ)

[٦٦] (ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْأَخْرِينَ)

[٦٧] (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ)

[٦٨] (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

« وَأَزَلَفْنَا » أى قربنا « ثَمَّ » أى حيث انفلق البحر « الْأَخْرِينَ » يعنى قوم فرعون ،
أى قدمناهم إلى البحر حتى دخلوا على أثر بنى إسرائيل « وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ وَأَجْمَعِينَ »
أى بحفظ البحر على تلك الهيئة إلى أن عبروا . « ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْأَخْرِينَ » أى بإطباقه
عليهم « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً » أى لعبرة « وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ » أى مع مشاهدة
هذه الآية العظمى التى توجب تصديقه بعدها فى كل ماجاء به . منهم من بقى على كفره كبقية
القبط . ومنهم من عصاه واقترح عليه ما اقترح كبعض بنى إسرائيل . وفيه تسايمة للنبي
صلوات الله عليه . ووعد له ووعيد لمن عصاه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ)

[٧٠] (إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ)

[٧١] (قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُ لَهَا عَكْفِينَ)

[٧٢] (قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ)

[٧٣] (أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ)

[٧٤] (قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ)

« وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ » أى على مشركى العرب « نَبَأُ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ » أى ما الذى تدعونه وتلجئون إليه . وكان عليه السلام يعلم أنهم عبدة أصنام ، ولكنه سألم ليريهم ، أن ما يعبدونه ليس من استحقاق العبادة فى شىء « قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُّ لَهَا عَافِيَةً » أى مقيمى على عبادتها لانتخطاها إلى غيرها . « قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ » أى مثل عبادتنا يعبدون ، فقلناهم .

قال أبو السعود: اعترفوا بأنها بمعزل مما ذكر من السمع والمنفعة والمضرة بالمرءة . واضطروا إلى إظهار أن لاسندهم سوى التقليد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ)

[٧٦] (أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ)

[٧٧] (فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ)

[٧٨] (الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ)

[٧٩] (وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ)

[٨٠] (وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ)

[٨١] (وَالَّذِي يُمَيِّتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ)

« قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَاَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ * فَمَا نَهَىٰ عَنْهُمُ الْعَدُوَّةَ لِي *
 أَي أَفأبصرتم ، أو أنأملتم فعلتم ما كنتم تعبدونه أنتم وسلفكم . فإنهم بغضائي « الإِربَّ
 الْعَالَمِينَ » أي لكن رب العالمين ليس كذلك ، فإنه ولي في الدنيا والآخرة ، لا أعبد غيره .
 ثم برهن على موجب قصر عبادته عليه تعالى بقوله « الَّذِي خَلَقَنِي فَهَوَّ يَهْدِينِ » أي
 إلى كل ما يهمني من أمور الدين والدنيا ، فإنه تعالى وحده يهdy كلاً لما خلق له .
 والموصول صفة (رب) وجمله مبتدأ وما بعده خبراً - غيرُ حقيق بجزالة التنزيل . قاله
 أبو السعود .

« وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ » أي يرزقني بما سخر ويسر من الأسباب السماوية
 والأرضية ، فساق المزن ، وأنزل الماء وأحيى به الأرض وأخرج به من كل الثمرات رزقاً للعباد ،
 وأنزل الماء عذباً زلالاً يسقيه مما خلق أنعاماً وأناسي كثيراً .

« وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ » أي إذا وقعت في مرض فإنه لا يقدر على شفائي أحد غيره
 بما قدره من الأسباب الموصلة إليه . وإنما نسب المرض إلى نفسه والشفاء إلى الله تعالى ، مع
 أنهما منه ، لمرعاة حسن الأدب معه تعالى . بتخصيصه بنسبة الشفاء الذي هو نعمة ظاهرة إليه
 تعالى كما قال الخضر ^(١) (فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا) وقال ^(٢) (فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا)
 وكتقول الجن في آية ^(٣) (أَشْرُّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا) ولأن كثيراً
 من أسباب المرض يحدث بتفريط من الإنسان في مطاعمه ومشاربه وغير ذلك . ومن ثم قالت
 الحكماء : لو قيل لأكثر الموتى : ما سبب آجالكم ؟ لقالوا : التخم .

« وَالَّذِي يُمَيِّنُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ » فإنه هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده ، لا يقدر على ذلك أحد
 سواه . فإن قيل إن الموت قد يكون بتفريط الإنسان ، وقد أضافه تعالى إلى نفسه ، فما الفرق
 بين نسبة الموت ونسبة المرض في مقتضى الأدب ؟ أجيب كما في (الانتصاف) : بأن الموت

[١٨ / الكهف / ٧٩] . [٢] [١٨ / الكهف / ٨٢] . [٣] [٧٢ / الجن / ١٠] .

قد علم به بأنه قضاء محتموم من الله تعالى على سائر البشر ، وحكم عام لا يخص ، ولا كذلك المرض فكم من معافي منه قد بغته الموت ؛ فالتأسي بعموم الموت لعله يُسقط أثر كونه بلاء ، فيسوغ في الأدب نسبتبه إلى الله تعالى . وأما المرض ، فلما كان مما يخص به بعض البشر دون بعض ، كان بلاء محققاً . فاعتضى العلوّ في الأدب مع الله تعالى ، أن ينسبه الإنسان إلى نفسه ، باعتبار ذلك السبب الذي لا يخلو منه . ويؤيد ذلك أن كل ما ذكره مع المرض ، أخبر عن وقوعه بتأً وجزماً ، لأنه أمر لا بد منه . وأما المرض ، فلما كان قد يتفق وقد لا ، أورده مقروناً بشرط إذا فقال (وَإِذَا مَرِضْتُ) وكان ممكناً أن يقول والذي يمرضني فيشفيني ، كما في غيره . فما عدل عن المطابقة المجانسة المأثورة ، إلا لذلك . انتهى .

قال أبو السعود : وأما الإماتة ، فحيث كانت من معظم خصائصه تعالى كالإحياء ، بدءاً وإعادة ، وقد نيّطت أمور الآخرة جميعاً بها وبما بعدها من البعث نظمهما في سمط واحد في قوله تعالى (وَالَّذِي يُمَيِّنُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ) على أن الموت ، لكونه ذريعة إلى نيّله عليه الصلاة والسلام للحياة الأبدية ، بمزل من أن يكون غير مطموع عنده عليه الصلاة والسلام .

القول في تأويل قوله تعالى:

[٨٢] (وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ)

« وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ » أي الجزاء . وخطيئته ما كان يراها

هو صلوات الله عليه ويعدها بالنسبة لمقامه الكريم .

قال أبو السعود : ذكره عليه الصلاة والسلام هضماً لنفسه وتعلماً للأمة أن يجتنبوا المعاصي ويكونوا على حذر وطلب مغفرة لما يفرط منهم وتلافياً لما عسى يندر منه عليه السلام من الصغار ، وتنبهاً لأبيه وقومه على أن يتأملوا في أمرهم فيقفوا على أنهم من سوء الحال في درجة لا يقادر قدرها ، فإن حاله عليه السلام ، مع كونه في طاعة الله تعالى وعبادته ، في الغاية القاصية ، حيث كانت بتلك المثابة . فما ظنك بحال أولئك المغمورين في الكفر ، وفنون المعاصي والخطايا؟

وتعليق مغفرة الخطيئة بيوم الدين، مع أنها إنما تغفر في الدنيا، لأن أثرها يومئذ يتبين، ولأن في ذلك تهويلاً له وإشارة إلى وقوع الجزاء فيه، إن لم تغفر. وبعد أن ذكر عنايته تعالى به من مبدأ خلقه إلى بعثه، حمّله ذلك على مناجاته، فقال :

القول في تأويل قوله تعالى:

[٨٣] (رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ)

[٨٤] (وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ)

« رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا » أى حكمة ، أو حكماً بين الناس بالحق ، أو نبوة ، لأن النبيّ ذو حكم وحكمة . « وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ » أى وفقنى لأنتظم فى سلكهم ، لأن كون من الذين جعلتهم سبباً لصلاح العالم وكال الخلق . « وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ » أى ذكراً جميلاً بعدى ، أذكر به ويقتدى بى فى الخير كما قال تعالى (١) : (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ *سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ . كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) .

قال القتيبي : وضع اللسان موضع القول على الاستعارة ، لأن القول يكون به ، وقد تسكنى العرب به عن الكلمة . وعليها حمل قول الأعشى (٢) :

إِنِّي أَتَتَّنِي لِسَانٌ لَا أَسْرُ بِهَا مِنْ عُلُوٍّ ، لَاعَجَبٌ مِنْهَا وَلَا سَخَرُ

وجوز أن يكون المعنى : واجعل لى صادقاً من ذريتي ، يحدّد أصل دينى ويدعو الناس إلى ما كنت أدعوهم إليه من التوحيد . وهو النبيّ ﷺ . ولذا قال صلى الله عليه وسلم (٣) (أنا دعوة

(١) [٣٧ / الصفات / ١٠٨ - ١١٠] .

(٢) هو أعشى باهلة . والبيت مطلع قصيدته ، يرثى بها أخاه لأمه ، المنتشر .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ١٢٧ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي)

عن العرباض بن سارية ، بهذا النص : قال رسول الله ﷺ : إني عبد الله الخاتم النبيين ، وإن آدم عليه السلام لمنجدل فى طينته ، وسأنبئكم بأول ذلك . دعوة أبى إبراهيم ، وبشارة عيسى بى ورؤيا أمى التى رأت ، وكذلك أمهات النبيين يرين .

أبي إبراهيم) ، فالسلام بتقدير مضاف. أى صاحب لسان صدق. أو مجاز بإطلاق الجزء على الكل ، لأن الدعوة باللسان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ)

[٨٦] (وَأُغْفِرْ لِأَبِي ، إِنَّهُ وَكَانَ مِنَ الضَّالِّينَ)

« وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ * وَأُغْفِرْ لِأَبِي » أى بهدائه وتوفيقه للإيمان . كما يلوح به تعليقه بقوله « إِنَّهُ وَكَانَ مِنَ الضَّالِّينَ » أى طريق الحق .

قال الحافظ ابن كثير . قوله (وَأُغْفِرْ لِأَبِي) الخ .. كقوله (١): (رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ) وهذا مما رجع عنه إبراهيم عليه السلام كما قال تعالى (٢) (وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِتْيَاءَهُ) إلى قوله (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ) وقد قطع تعالى الإلحاق فى استغفاره لأبيه ، فقال تعالى (٣) (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ) إلى قوله (وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ)

[٨٨] (يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ)

[٨٩] (إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

« وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ » أى لا تلحق بى ذللاً وهواناً يومئذ « يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » أى لا يبق المرء من عذاب الله ماله ، ولو افتدى بملء الأرض ذهباً . ولا بنوه ، وإن كانوا غاية فى القوة . فإن الأمر ثمة ليس كما يمهدون

(١) [١٤ / إبراهيم / ٤١] . (٢) [٩ / التوبة / ١١٤] . (٣) [المتحنة / ٥] .

في الدنيا ، بل لا ينفع إلا الموافاة بقلب سليم من مرض الكفر والنفاق والحصال المذومة والملكات المشؤومة .

قال الزمخشري :

وما أحسن ما رتب إبراهيم عليه السلام كلامه مع المشركين حين سألهم أولاً عما يعبدون سؤال مقرر لا مستفهم . ثم أنحى على آلهتهم فأبطل أمرها بأنها لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع . وعلى تقليد آباءهم الأقدمين ، فكسره وأخرجه من أن يكون شبهة ، فضلاً أن يكون حجة . ثم صور المسألة في نفسه (١) دونهم حتى تخلص منها إلى ذكر الله عز و علا ، فعظم شأنه وعدد نعمته من لدن خلقه وإنشائه ، إلى حين وفاته ، مع ما يرجى في الآخرة من رحمته . ثم أتبع ذلك أن دعاه بدعوات المخلصين ، وابتهل إليه ابتهاج الأوابين . ثم وصله بذكر يوم القيامة ، وثواب الله وعقابه ، وما يدفع إليه المشركون يومئذ من الندم والحسرة على ما كانوا فيه من الضلال ، وتغنى الكرة إلى الدنيا ليؤمنوا ويطيعوا .

ثم بين سبحانه أن الجنة تكون قريبة من موقف السعداء ، ينظرون إليها ويغتمطون

(١) أى بقوله (فإنهم عدو لي) على معنى أنى فكرت فى أمرى فرأيت عبادتى لها عبادة للعدو وهو الشيطان . فاجتنبتها وآرت عبادة من الخير كله فى يده . وأراهم بذلك أنها نصيحة ينصح بها نفسه لينظروا فيقولوا: ما نصحننا إبراهيم إلا بما نصح به نفسه . فيكون ذلك أذعى لهم إلى القبول لقوله . وأبعث على الاستماع منه . ولو قال (فإنهم عدو لكم) لم يكن بتلك المثابة ، فتخلص عند تصويره المسألة فى نفسه إلى ذكر الله تعالى ، وبهذه الآيات الكريمة وأمثالها رد على أبى العلاء محمد بن غانم المعروف بالغانمى فى زعمه أن القرآن خال من التخلص ، وهو زعم فاسد . لأن حقيقة التخلص إنما هى الخروج من كلام إلى كلام آخر غيره ، بلطفية تلائم بين الكلام الذى أخرج منه والكلام الذى خرج إليه . وفى القرآن مواضع كثيرة من ذلك ، كما بسطه ابن الأثير فى (المثل السائر) فراجع . اه مؤلفه .

بأنهم المحشورون إليها . والنار تكون بارزة مشكوفة للأشقياء بمرأى منهم ، يتحسرون على أنهم المسوقون إليها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (وَأَزَلَّتْ أَلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ)

[٩١] (وَبُرِّزَتْ أَجْجِيمٌ لِلْغَاوِينَ)

[٩٢] (وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ)

[٩٣] (مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ)

[٩٤] (فَكُفِّبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ)

« وَأَزَلَّتْ أَلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرِّزَتْ أَجْجِيمٌ لِلْغَاوِينَ » أى الضالين عن طريق الحق الذى هو الإيمان والتقوى . وإيثار صيغة الماضى للدلالة على تحقق الوقوع وتقرره . « وَقِيلَ لَهُمْ » توبيخاً على شركهم « أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ » أى يدفعون العذاب عنكم ، أو يدفعونه عن أنفسهم ، لأنهم وآلهتهم وقود النار . وهو قوله تعالى « فَكُفِّبُوا فِيهَا هُمْ » أى الآلهة « وَالْغَاوُونَ » أى وعبدتهم الذين برزت لهم الجحيم .

قال الزمخشري : والكسبكية تكرير الكب - وهو الإلقاء على الوجه - جعل التكرير فى اللفظ دليلاً على التكرير فى المعنى ، كأنه إذا أتى فى جهنم ينكب مرة بعد مرة حتى يستقر فى قعرها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (وَجُنُودٌ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ)

[٩٦] (قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ)

[٩٧] (تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)

[٩٨] (إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

« وَجُنُودُ إبليسَ » أى متبعوه من العصاة « أَجْمَعُونَ * قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ * تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ » أى فى العبادة، مع أنكم أعجز مخلوقاته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٩] (وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ)

« وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ » أى رؤسائهم، كما فى آية^(١) (رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا)

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] (فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ)

[١٠١] (وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ)

« فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ » أى من الذين كُتِبَ عليهم شفاعاء وأصدقاء . لأنهم كانوا يعتقدون فى أصنامهم أنهم شفاعؤهم عند الله . وكان لهم الأصدقاء من شياطين الإنس . فما أغنوا عنهم شيئاً . كما قال تعالى^(٢) (الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ) قال الزخشرى : و(الحميم) من الاحتمام وهو الاهتمام، وهو الذى يهيمه ما يهيمك . أو من (الحامة) بمعنى الخاصة . وهو الصديق الخاص . وفيه معنى الحدة والسخونة . كأنه يحتدّ

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٦٧] . (٢) [٤٣ / الزخرف / ٦٧] .

ويحمي ، لحماية خليفه ورعايته ، والقيام بمهامه . وهذا هو الذى قيل (إنه أعز من بيض الأنوق) وإنه اسم بلا مسمى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] (فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

[١٠٣] (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ)

[١٠٤] (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

« فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً » أى رجعة إلى رجعة إلى الدنيا « فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * » إِنَّ فِي ذَلِكَ « أى فيما ذكر من نبأ إبراهيم « لَآيَةً » أى لحجة وعظة أراد أن يستبصر بها ويعتبر . وتقدم مقاله الزمخشري فى بديع سياقها « وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ » أى أكثر قوم إبراهيم « مُؤْمِنِينَ * » وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ » أى بإنزال الكتب وإرسال الرسل ، لدعوة خلقه إلى ما فيه صلاحهم وفلاحهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] (كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ)

[١٠٦] (إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ)

[١٠٧] (إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ)

[١٠٨] (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا)

[١٠٩] (وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

[١١٠] (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا)

[١١١] (قَالُوا أَنْوْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذُلُونَ)

« كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ » لأن تكذيب واحد كتكذيب الكل ، لاتفاقهم في أصول الشرائع . وهو نفي الشريك وإثبات الباري وتوحيده . أو لأن المراد بالجمع الواحد « إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا قَالُوا أَنْوْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذُلُونَ » يعنون من كان وضع النسب قليل النصيب من الدنيا . فإن الشرف لديهم بالمال والنسب . والحسب والنسب ، لا بالأخلاق الفاضلة . والملكات الكاملة . التي تحمل على تعرف الحق والتوجه إليه . ثم اعتناقه والمحافظة عليه . وأكثر ما تكون الأخلاق في مثل المستضعفين . إذا قام عليهم ناصح أمين . إذ لا مال يطفئهم . ولا جاه يلبسهم . وذلك من العناية الربانية فيهم .

قال الزمخشري : وهكذا كانت قریش تقول في أصحاب رسول ﷺ . وما زالت أتباع الأنبياء كذلك ، حتى صارت من سماتهم وأماراتهم . ألا ترى إلى هرقل حين سأل أباسفيان عن أتباع رسول الله ﷺ فلما قال (ضعفاء الناس) قال (ما زالت أتباع الأنبياء كذلك) وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٢] (قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » جواب عما أشير إليه من قولهم إنهم لم يؤمنوا عن نظر وبصيرة . أي وما على إلا الظاهر والله يتولى السرائر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٣] (إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ)

[١١٤] (وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ)

[١١٥] (إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ)

[١١٦] (قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ يَنْوُحْ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ)

[١١٧] (قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ)

[١١٨] (فَأَفْتَحْ يَدَيَّ وَيَنْهَمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

« إِن حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي » أى محاسبهم على أعمالهم ، إلا على ربى المطلع على ضمائرهم
 « لَوْ تَشْعُرُونَ * وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ * إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ
 يَنْوُحْ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ » أى المشتمومين أو المرميين بالحجارة « قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي
 كَذَّبُونِ * فَأَفْتَحْ يَدَيَّ وَيَنْهَمْ فَتْحًا » أى احكم بيننا بما يستحقه كل واحد منا .

قال الزمخشري : الفتحاة : الحكومة . والفتح : الحاكم . لأنه يفتح المستغلق . كماسمى
 فيصلاً لأنه يفصل بين الخصومات . وفى (التهذيب) : الفتح أن تحكم بين قوم يختصمون
 إليك . قال الأشعر الجعفي^(١) .

أَلَا مَنْ مُبْلَغٌ عَمْرًا رَسُولًا فَإِنِّي عَنِ فُتَا حَتِّكُمْ غَنِيٌّ

« وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٩] (فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ)

[١٢٠] (ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ)

[١٢١] (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ)

(١) استشهد به فى اللسان بالصفحة رقم ٥٣٨ من المجلد الثانى (طبعة بيروت)

[١٢٢] (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

[١٢٣] (كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ)

[١٢٤] (إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ)

[١٢٥] (إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ)

[١٢٦] (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا)

[١٢٧] (وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

[١٢٨] (أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ)

« فَانجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ وَفِي لُفْلُكِ الْمَشْحُونِ * ثُمَّ أَعْرَفْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ * إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ »

أى فيما فعلنا بهم لعبرة وعظة لمن بعدهم « وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * كَذَّبَتْ عَادٌ » وهم قوم هود عليه السلام « الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ » أى مكان مرتفع ، بكسر الراء وفتحها « آيَةً » أى علامة « تَعْبَثُونَ » أى يبنائها لا للحاجة إليها . بل لمجرد اللعب واللهو وإظهار القوة . ولهذا أنكر عليهم ذلك . لأنه تضييع للزمان ، وإتاعاب للأبدان فى غير فائدة . واشتغال بما هم فى غنى عنه . وبما فى الشغف به انصراف عن الجد فى العمل ، وصرف للأموال فى غير ما خلقت له ، من النظر للنفس والأهل والدين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٩] (وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ)

« وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ » أى منازل وقصورا « لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ » أى راجين الخلود

في الدنيا إشارة إلى أن عملهم ذلك ، لقصر نظرهم على الدنيا والإعجاب بالآثار ، والتباهى بالمشيدات والغفلة عن أعمال المجدين البصيرين بالعواقب ، الصالحين المصلحين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٠] (وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ)

«وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ» أى تأخذون بالعرف والشدة ، كبرا وعتوا . يقال (بطش به) أى أخذه بالعنف والسطوة ، وتناوله بشدة عند الصولة ، يصفهم عليه السلام بالقسوة وعدم الرحمة والشفقة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣١] (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا)

[١٣٢] (وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ)

[١٣٣] (أَمَدَّكُمْ بِالنَّعْمِ وَبَيْنِ)

[١٣٤] (وَجَنَّتِ وَعِيُونَ)

«فَاتَّقُوا اللَّهَ» أى فيما أمركم به من التوبة والإيمان «وَأَطِيعُوا» وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُمْ بِالنَّعْمِ وَبَيْنِ * وَجَنَّتِ وَعِيُونَ» أى فاشكروا نعماءه ، وارعوا بتقواه آلاءه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٥] (إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

«إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ» أى إن لم تقوموا بواجب شكرها «عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ» أى في الدنيا والآخرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٦] (قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ)

« قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ » أى : فإننا لن نزعوى عما نحن عليه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٧] (إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ)

« إِنَّ هَذَا » أى ما هذا الذى نحن عليه « إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ » أى عادتهم . كانوا يدينون به ويعتقدونه . فنحن بهم مقتدون . أو ما هذا الذى جئنا به لإعادة الأولين . كانوا يلقفون مثله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٨] (وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ)

[١٣٩] (فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ

مُؤْمِنِينَ)

[١٤٠] (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

[١٤١] (كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ)

[١٤٢] (إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ)

[١٤٣] (إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ)

[١٤٤] (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا)

[١٤٥] (وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْمَلَائِكَةِ)

[١٤٦] (أَتَتْرُكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ)

« وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ » أى على ما نحن عليه من الأعمال « فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكَنَّهُمْ »

أى بريح صرصر « إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ * إِنْ لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْمَلَائِكَةِ * أَتَتْرُكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ » أى من الموت والذوال والمذاب .

قال الزمخشري: يجوز أن يكون إنكاراً لأن يتركوا مخلصين في نعيمهم لا يزالون عنه. وأن يكون تذكيراً بالنعمة في تخليمة الله إياهم وما يتنعمون فيه من الجنات وغير ذلك ، مع الأمن والدعة. وقوله تعالى (فِي مَا هَاهُنَا) أى فى الذى استقر فى هذا المكان من النعيم . ثم فسره بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٧] (فِي جَنَّاتٍ وَعِيُونَ)

[١٤٨] (وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ)

[١٤٩] (وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا كَرِيمًا)

[١٥٠] (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا)

[١٥١] (وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ)

[١٥٢] (الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ)

[١٥٣] (قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ)

« فِي جَنَّتٍ وَعَيْوُنٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلَعَهَا هَظِيمٌ » أي لطيف لين « وَتَنْحِتُونَ مِنْ أَلْجِبَالِ بُيُوتًا فَرَاهِينَ » أي بطرين . وقرئ (فرهين) وهو أبلغ . وقيل : فاره من (فره) بالضم ، بمعنى حذق . وفره صفة من (فره) كفرح ، بمعنى أشر واطر . « فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَلَا تَطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ * قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ » أي الذين سحرُوا حتى غلب على عقولهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٤] (مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)

[١٥٥] (قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ)

[١٥٦] (وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

[١٥٧] (فَمَقَرُّوْهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ)

[١٥٨] (فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ، إِنْ فِي ذَلِكَ لآيَةٌ ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ)

[١٥٩] (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

[١٦٠] (كَذَبَتْ قَوْمٌ لوطِ الْمُرْسَلِينَ)

[١٦١] (إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ)

[١٦٢] (إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ)

[١٦٣] (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا)

[١٦٤] (وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ)

[١٦٥] (أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ)

[١٦٦] (وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ، بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ)

« مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بَيِّنَاتٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ * أَي نَصِيبٌ مِنَ الْمَاءِ * وَلَكُمْ شِرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ * أَي فَاقْتَنَعُوا بِشَرِبِكُمْ وَلَا تَرَاهُمْ جَاهِلًا عَلَى شَرِبِهَا * وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ * أَي لِعَظْمِ مَا تَسِيئُونَ . قَالَ الرَّخْشَرِيُّ : عَظْمُ الْيَوْمِ لِحُلُولِ الْعَذَابِ فِيهِ ، وَوَصَفَ الْيَوْمَ بِهِ أَبْلَغَ مِنْ وَصْفِ الْعَذَابِ . لِأَنَّ الْوَقْتَ إِذَا عَظِمَ بِسَبَبِهِ ، كَانَ مَوْقِعَهُ مِنَ الْعَظْمِ أَشَدَّ * فَعَقَرُوهَا فَاصْبِحُوا نَدِيمِينَ * فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ * أَي الْمَوْعُودُ ، وَهُوَ أَنَّ أَرْضَهُمْ زَلَزَلَتْ زَلْزَلَةً شَدِيدَةً ، وَجَاءَتْهُمْ صَيْحَةٌ عَظِيمَةٌ * إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * كَذَبَتْ قَوْمٌ لوطِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لوطُ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ * أَي مَجَاوِزُونَ حَدَّ الْحِكْمَةِ فِي تَرْكِ عَمَلِ الْحَرْثِ ، الْحَافِظِ لِلنَّسْلِ ، الَّذِي بِهِ حَفِظَ النُّوعَ الْبَشَرِيَّ ، وَإِثَارَ مَا لَمْ يَخْلُقْ لِذَلِكَ ، شَرَّهَا فِي الشَّمُوهَةِ الْحَيَوَانِيَّةِ ، وَمَكَاحِفَةِ لِتَغْيِيرِ الْأَوْضَاعِ الرَّبَانِيَّةِ .

ونقل السيوطي في (الإكليل) عن محمد بن كعب القرظي، أن معنى الآية: تذرون مثله

من المباح . فاستدل بذلك على إباحة وطء الزوجة في دبرها . انتهى .

وخالفه غيره . فاستدل بها على حظره . وبيانه كما في (الكشاف) و(حواشيه) أن (من) إمَّا تَبَيَّنَ لِمَا خَلَقَ ، أَوْ لِلتَّبَعِيضِ . وَيُرَادُ بِهِ الْعَضْوُ الْمُبَاحُ مِنْهُنَّ ، تَعْرِيفًا بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ بِنِسَائِهِمْ . وَمِنَ الْوَجْهِ الثَّانِي يَسْتَدَلُّ عَلَى حَظَرِ إِتْيَانِ الْمَرْأَةِ فِي غَيْرِ الْمَآئِي . وَتَقْرِيرُهُ فِي (الْإِتِّصَافِ) أَنَّ (مِنْ) لَوْ كَانَتْ بَيِّنَاتًا لَكَانَ الْمَعْنَى حِينَئِذٍ عَلَى ذَمِّهِمْ بِتَرْكِ الْأَزْوَاجِ . وَلَا شَكَّ أَنَّ تَرْكَ الْأَزْوَاجِ

مضموم إلى إتيان الذكران. وحينئذ يكون المنكر عليهم الجمع بين ترك الأزواج وإتيان الذكران، لأن ترك الأزواج وحده منكر. ولو كان الأمر كذلك، لكان النصب في الثاني متوجهاً على الجمع. وكان إما الأفضح أو المتمعن. وقد اجتمعت العامة - عامة القراء - على القراءة به مرفوعاً ولا يتفقون على ترك الأفضح إلى ما لا مدخل له في الفصاحة، أو في الجواز أصلاً. فلما وضح ذلك تبين أن هذا المعنى غير مراد. فتعين حمل (من) على البعضية. فيكون المنكر عليهم أمرين. كل واحد منهما مستقل بالإنكار: أحدهما إتيان الذكران. والثاني مجانبة إتيان النساء في المأثى، رغبة في إتيانهن في غيره. وحينئذ يتوجه الرفع لفوات الجمع اللازم على الوجه الأول، واستقلال كل واحد من هاتين العظيمتين بالنكير. انتهى.

ومثله من دقيق الاستنباط الذي يوسع المدارك ويفتح للتفهم أبواباً، وإن أمكن أن يقال إن سياق الآية في الملام لهم، أعم مما ذكره ومن غيره. والله أعلم.

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٧] (قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ)

« قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ يَلُوطُ » أى عن تقبيح أمرنا « لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ » أى من قرابتنا عنفاً، إذ لا تجانسنا.

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٨] (قَالَ إِنِّي لَعَمَلِكُمْ مِّنَ الْقَالِينَ)

[١٦٩] (رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ)

« قَالَ إِنِّي لَعَمَلِكُمْ مِّنَ الْقَالِينَ » أى المبغضين غاية البغض. أى فأنا أرغب في الخروج عن دياركم، والراحة من مجاورتكم، لبغضى لعملكم، الآيل بكم إلى الدمار وخراب الديار. ولذا أتبعه بقوله « رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ » أى من شؤمه وغائلته.

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧٠] (فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ وَأَجْمَعِينَ)

[١٧١] (إِلَّا عَجُوزًا فِي الْعَبْرِينَ)

[١٧٢] (مُّمَّ دَمَّرْنَا الْأَخْرِينَ)

« فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ وَأَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا » وهي امرأته . كما بينت في آيات
« فِي الْعَبْرِينَ » أي مقدرًا كونها من الباقيين في العذاب . لأنها كانت راضية
بِعَمَلِ قَوْمِهَا .

لطيفة :

قال الناصر في (الاتصاف) : كثيراً ما ورد في القرآن، خصوصاً في هذه السورة ، العدول
عن التعبير بالفعل إلى التعبير بالصفة المشتقة . ثم جعل الموصوف بها واحداً من جمع . كقول
فرعون (١) (لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ) وقولهم (٢) (سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ
مِنَ الْوَاعِظِينَ) وقولهم (٣) (لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ) وقوله (٤) (إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِّنَ
الْقَائِلِينَ) وقوله تعالى (٥) في غيرها (رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ) وكذلك (٦) (ذَرْنَا
نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ) وأمثاله كثيرة . والسر في ذلك ، والله أعلم ، أن التعبير بالفعل ، إنما
يفهم وقوعه خاصة . وأما التعبير بالصفة ، ثم جعل الموصوف بها واحداً من جمع ، فإنه يفهم
أمراً زائداً على وقوعه . وهو أن الصفة المذكورة ، كالسمة للموصوف ثابتة المألوق به . كأنها
لقب . وكأنه من طائفة صارت كالنوع المخصوص المشهور ببعض السمات الرديئة . واعتبر
ذلك لو قلت (رضوا بأن يتخلفوا) لما كان في ذلك مزيد على الإخبار بوقوع التخلف منهم لا غير .

(١) [٢٦ / الشعراء / ٢٩] . (٢) [٢٦ / الشعراء / ١٣٦] .

(٣) [٢٦ / الشعراء / ١١٦] . (٤) [٢٦ / الشعراء / ١٦٨] .

(٥) [٩ / التوبة / ٨٧] . (٦) [٩ / التوبة / ٨٦] .

وانظر إلى المساق وهو قوله (رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ) كيف ألحقهم لقباً رديئاً ، وصيرهم من نوع رذل مشهور بسمة التخلف ، حتى صارت له لقباً لاحقاً به . وهذا الجواب عام في جميع ما يرد عليك من أمثال ذلك . فتأمله واقدره قدره « ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ » أى أهلكناهم أشد إهلاك وأفضله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧٣] (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا ، فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذِرِينَ)

[١٧٤] (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ)

[١٧٥] (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

[١٧٦] (كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ)

« وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا » أى عظيم غير معهود ، هلكوا به « فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذِرِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ » وهم أهل مدين . وهم من زعم أنهما أمتان أرسل إليهما شعيب عليه السلام : فإنهم أمة واحدة كانوا يقطنون (مدين) أضيفوا إليها تارة وأخرى إلى ما حوتها من الآية ، وهى الأشجار الكثيرة الملتفة المجتمعة فى مكان واحد . قال الحافظ ابن كثير : والصحيح أنهم أمة واحدة . وصفوا فى كل مقام بشئ . ولهذا وعظ هؤلاء وأمرهم بوفاء المكىال والميزان ، كما فى قصة مدين سواء بسواء . فدل ذلك على أنهما أمة واحدة .

تنبيه :

قال أبو عمرو : وكتب فى جميع المصاحف (لىكة) فى الشعراء و(ص) ، بلام من غير ألف قبلها . وفى الحجر وق (الأىكة) ولذا قرأ نافع وابن كثير وابن عامر بلام مفتوحة ، من غير همز قبلها ولا بعدها . ونصب التاء غير منصرف . والباقون (الأىكة) بإسكان اللام وهمز

وصل قبله ، وهمزة قطع مفتوحة بعده ، وجر التاء . وهمزة وصل ووقفا على أصله . وقراءة الأولين استشكلها أبو علي الفارسي وغيره ، بأنه لا وجه للفتح . لأن نقل حركة الهمزة لا يقتضى تغيير الإعراب من الكسر إلى الفتح . أى فإن العرب تقول فى الأحمر (الجر والجر) وإثبات الألف واللام فى (الأيكة) فى سائر القرآن يدل - كما قال الزجاج - على أن حذف الهمزة منها التى هى ألف الوصل ، بمنزلة قولهم (الجر) وقرئ (ليكة) بالجر على الإضافة فى غير السبع . لكن قال الزخشرى : هو الوجه . ومن قرأ بالنصب ، وزعم أن ليكة ، بوزن ليلة ، اسم بلد ، فتوهم قاد إليه خط المصحف حيث وجدت مكتوبة فى هذه السورة وفى سورة (ص) بغير ألف . وفى المصحف أشياء كتبت على خلاف قياس الخط المصطلح عليه . وإنما كتبت فى هاتين السورتين على حكم لفظ الالفاظ . كما يكتب أصحاب النحو - لأن ولول - على هذه الصورة ، لبيان لفظ المخفف . وقد كتبت فى سائر القرآن على الأصل . والقصة واحدة . على أن (ليكة) اسم لا يعرف . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٧] (إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ)

[١٧٨] (إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ)

[١٧٩] (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا)

[١٨٠] (وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ)

[١٨١] (أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ)

« إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَوْفُوا الْكَيْلَ » أى أتموه « وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ » أى حقوق الناس بإعطائهم ناقصاً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨٢] (وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ)

[١٨٣] (وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)

« وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ » أي بالميزان السوي « وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ »

أي لا تنقصوهم حقوقهم . قال الزمخشري : وهو عام في كل حق ثبت لأحد ، أن لا يهضم . وفي كل ملك أن لا يعصب عليه مالكة ، ولا يتحيف منه ، ولا يتصرف فيه ، إلا بإذنه تصرفاً شرعياً . « وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ » أي بالقتل والغارة وقطع الطريق والجور والظلم وأكل أموال الناس بالباطل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨٤] (وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأُولِينَ)

[١٨٥] (قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ)

[١٨٦] (وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ)

« وَأَتَقُوا » الله « الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأُولِينَ » أي : وذوي الجبلّة الأولين ،

وهم من تقدمهم من الخلائق « قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ * وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ » أي فيما تدعيه من النبوة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨٧] (فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)

[١٨٨] (قَالَ رَبِّيَّ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ)

« فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ » قطعاً منها . قرىء (كِسْفًا) بسكون السين

وتحريكها . وكلاهما جمع (كسفة) « إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ » أى من الكفر والمعاصى ، وبما تستوجبون عليها من العذاب ، بإسقاط كسف أو غيره مما يشاؤه إذا جاء أجلكم ، فإليه الحكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٩] (فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ، إِنَّهُ وَكَانَ عَذَابَ يَوْمِ عَظِيمٍ)
 « فَكَذَّبُوهُ » أى فاستمروا على تكذيبه ولم يتوبوا « فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ »
 إِنَّهُ وَكَانَ عَذَابَ يَوْمِ عَظِيمٍ » أى لجلول العقاب فيهم ، من جنس ما سأله من إسقاط
 السماء قطعاً عليهم . فقد أظلمت سحابة أطبقت عليهم ، وأظلمت الجوف فوقهم ، وغشيمهم العذاب
 وأحاط بهم . و (الظلّة) بالضم لغة ، الناشئة ، وما أطبق وستر من فوق .

قال الحافظ ابن كثير : ذكر تعالى صفة إهلاكهم فى ثلاثة مواطن . كل مواطن بصفة
 تناسب ذلك السياق . فى (الأعراف) ذكر أنهم ^(١) (فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ
 جِثْمِينَ) وذلك لأنهم قالوا ^(٢) (لَنُخْرِجَنَّكَ بِشُعَيْبٍ وَاللَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا
 أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا) فأرجفوا نبي الله ومن اتبعه (فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ) وفى سورة هود قال ^(٣)
 (وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ) ذلك لأنهم استهزؤوا بنبي الله فى قولهم ^(٤) (أَصَلَاتُكَ
 تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَكِيمُ الرَّشِيدُ)
 قالوا ذلك على سبيل التهم والازدراء . فناسب أن تأتيهم صيحة تسكتهم فقال (وَأَخَذَتِ الَّذِينَ
 ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ) وههنا قالوا (فَاسْقُطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ) الآية ، على وجه التعنت
 والعداوة . فناسب أن يحقق عليهم ما استبعدوا وقوعه (فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ) . انتهى

(١) [٧ / الأعراف / ٩١] . (٢) [٧ / الأعراف / ٨٨] .

(٣) [١١ / هود / ٩٤] . (٤) [١١ / هود / ٨٧] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩٠] (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ)

[١٩١] (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

«إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً» أى على أخذه العصاة بمقتضى أعمالهم «وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ» أى الغالب على تعذيب من شاء بما شاء ، الرحيم ، بإرسال الرسل وإنزال الكتب ، لئلا يكون للناس على الله حجة .

قال الزمخشري : فإن قلت : كيف كرر في هذه السورة ، في أول كل قصة وآخرها ، ما كرر؟ قلت : كل قصة منها كتنازل برأسه . وفيها من الاعتبار مثل ما في غيرها . فكانت كل واحدة منها تدلى بحق في أن تفتتح بما افتتحت به صاحبها ، وأن تختتم بما اختتمت به . ولأن في التكرير تقريراً للمعاني في الأنفس ، وتثبيتاً لها في الصدور . ألا ترى أنه لا طريق إلى تحفظ العلوم إلا ترديد ما يراد تحفظه منها ؟ وكلما زاد ترديده كان أمكن له في القلب ، وأرسخ في الفهم ، وأثبت للذكر ، وأبعد من النسيان . ولأن هذه القصص طرقت بها أذان وُقِرُّ عن الإنصات للحق ، وقلوب غُلِّفَتْ عن تدبره ، فكوثر بالوعظ والتذكير ، وروجعت بالترديد والتكرير . لعل ذلك يفتح أذنا ، أو يفتح ذهننا ، أو يصقل عقلا طال عهده بالصقل أو يجلو فهما قد غطى عليه تراكم الصدأ . اه . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩٢] (وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

[١٩٣] (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ)

[١٩٤] (عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ)

[١٩٥] (بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ)

« وَإِنَّهُ » أى ما ذكر من الآيات الناطقة بالقصص المحكية ، أو القرآن المتضمن لها « لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ » أى منزل منه حقاً « نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ » أى جبريل عليه السلام « عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ » أى منتظماً فى سلك أولئك المشهورين بتلك الزية الجميلة ، والمنقبة الفاضلة . وهى الرسالة الإلهية بالإنذار ، إزالة للأعداء « بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ » أى واضح المعنى جلى المفهوم ، ليكون قاطعاً للعدو ، مقياً للحجة ، دليلاً إلى المحجة . والجار متعلق بـ (نزل) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[۱۹۶] (وَإِنَّهُ وَ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ)

[۱۹۷] (أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُوْا عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ)

« وَإِنَّهُ وَ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ » أى فى كتبهم . مع أنه صلوات الله عليه لم يصحب أهلها ولم يدرسها . فكفى بذلك شهيداً على صدقه « أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ » أى علامة على تنزيله الحق « أَنْ يَعْلَمَهُوْا عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ » أى فيجدون مصداقه فى زبرهم التى يدرسونها ، كما قال تعالى (۱) « وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَأَمْنَا بِهِ ءِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مَسْلُومِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[۱۹۸] (وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ)

[۱۹۹] (فَقَرَأَهُوْا عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مَسْمُومِينَ)

[۲۰۰] (كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ)

[۲۰۱] (لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ)

(۱) [۲۸ / القصص / ۵۳] .

[٢٠٢] (فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

[٢٠٣] (فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ)

[٢٠٤] (أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ)

[٢٠٥] (أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ)

[٢٠٦] (ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ)

[٢٠٧] (مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ)

[٢٠٨] (وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ)

[٢٠٩] (ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ)

« وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ وَعَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ سَٰمِعِينَ »
 أى ولو نزلناه بنظمه البديع على بعض الأعجم الذى لا يحسن العربية ، فقرأه عليهم قراءة فصيحة ، انفق لسانه بها ، خرقا للعادة ، لكفروا به كما كفروا . ولتمحلوا لجحودهم عذرا . ولسموه سحرا ، لفرط عنادهم « كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ » أى مكنا هذا العناد والإباء عن الإيمان به ، فى قلوبهم وأنفسهم . وقررناه فيها « لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ * فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ * أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ » أى وهو ما هو ، عياذا به منه « أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ » أى من طوال الأعمار وطيب المعاش « وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ * ذِكْرَىٰ » أى رسل يندرونهم لأجل الموعظة والتذكرة « وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ » أى فنبغتهم بالعذاب قبل الإنذار ، فإن ذلك محال فى حكمة الحكم العدل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١٠] (وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ)

[٢١١] (وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ)

[٢١٢] (إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعَزُؤُونَ)

[٢١٣] (فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)

« وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ » ردّ ملازمه المشركون من أن التنزيل الكريم من قبيل ما تلقيه الشياطين على الكهنة ، بعد تحقيق الحق ببيان أنه نزل به الروح الأمين . وقوله تعالى « إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ » أى الاستماع عن الملائكة « لَمَعَزُؤُونَ » لانتهاء الاستعداد لقبول فيضان أنوار الحق عليهم ، لخباثة نفوسهم بالذات ، فهم مرجومون مبعدون عن الأنوار القدسية والبراهين السبوحية « فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ » فى الدارين ، عذاب تعديد الوجهة ، واضطراب الفكر ، وضعف الشبهة ، وتوهين العقل فى الدنيا . ولعذاب الآخرة أشد وأبقى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١٤] (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)

[٢١٥] (وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

[٢١٦] (فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّى بَرىءٌ مِّمَّآ تَعْمَلُونَ)

[٢١٧] (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ)

[٢١٨] (الَّذى يَرىكَ حِينَ تَقُومُ)

[٢١٩] (وَتَقَلَّبُكَ فى السَّجْدِينَ)

« وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ » أى الأذنين . وإنه لا يخلص أحدا منهم إلا إيمانه بربه عز وجل . وقد قال عليه الصلاة والسلام^(١) لما نزلت عليه : (يا فاطمة ابنة محمد! يا صفيّة ابنة عبد المطلب ! يا بنى عبد المطلب ! لا أملك لكم من الله شيئا . أنقذوا أنفسكم من النار) وقد بسط الأحاديث الواردة فى ذلك ، ابن كثير . فراجعه . وقوله تعالى « وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » أى لئى جانبك لهم . مستعار من حال الطائر . فإنه إذا أراد أن ينحط خفض جناحه « فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ * وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الَّذِي يَرَنُكَ حِينَ تَقُومُ » أى من النوم إلى التهجّد « وَتَقْلِبُكَ فِي السَّاجِدِينَ » أى المصلين . أى تصرفك فيما بينهم بالقيام والركوع والسجود ، إذا أمتهم . يعنى : يراك وحدك ويراك فى الجمع . والتوصيف بذلك للتذكير بالعناية بالصلاة ليلا وجمعا وفرادى . أو معنى الآية : لا يخفى عليه حالك ، كلما قت وتقلبت مع الساجدين ، فى كفاية أمور الدين . أو هى كناية عن رعايته صلوات الله عليه ، والعناية به . كقوله تعالى^(٢) (وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا) .
القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢٠] (إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

[٢٢١] (هَلْ أَنْبَأَكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنْزَلُ الشَّيَاطِينُ)

[٢٢٢] (تَنْزَلُ عَلَىٰ كُلِّ آفَاكٍ أَثِيمٍ)

« إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » أى لما تقوله وبما تنويه « هَلْ أَنْبَأَكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنْزَلُ الشَّيَاطِينُ » أى (تنزل) وهو استثناء مسوق لبيان استحالة تنزل الشياطين على رسول الله ﷺ بعد امتناع تنزلهم بالقرآن « تَنْزَلُ عَلَىٰ كُلِّ آفَاكٍ أَثِيمٍ » أى كذاب فى قوله ، يصرف الكلام من وجه إلى آخر ، ولا يبالي بذلك . لأنه أثيم كثير الإثم والفجور فى فعله .

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٢٦ - سورة الشعراء ، ٢ - باب

وأنذر عشيرتك الأقربين ، حديث رقم ١٣٢٠ ، عن أبى هريرة (٢) [٥٢ / الطور / ٤٨] .

وحيث كان المقام النبويّ منزها عن ذلك ، اتضح استحالة تنزيلهم عليه .
قال القاشانيّ : لأنّ تنزيلهم لا يكون إلا عند استعداد قبول النفوس لنزولها ، بالمناسبة في الخبث والكيد والمكر والعدو والخيانة وسائر الرذائل . فن تجرد عن صفات النفس ، وترقى إلى جناب القدس ، وتمورت نفسه بالأنوار الروحية ومصاييح الشهب السبوحية ، وأشرق عقله بالاتصال بالعالم الأعلى ، فلا يمكن للشياطين أن يتنزلوا عليه ، ولا أن يتلقفوا المعارف والحقائق والشرائع . فإنهم معزولون عن استماع كلام الملكوت الأعلى ، مرجومون بشهب الأنوار القدسية . وقوله تعالى (قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ) تقرير لقوله تعالى (وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ) لأن الإفك والإثم من لوازم النفوس الكدرة الخبيثة المظلمة السفلية ، المستمدة من الشياطين بالمناسبة ، المستدعية لإلقائهم وتنزلهم بحسب الجنسية . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢٣] (يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ)

[٢٢٤] (وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ)

[٢٢٥] (أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ)

[٢٢٦] (وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ)

« يُلْقُونَ » أي الأفا كون « السَّمْعَ » أي إلى الشياطين وأوهامهم ووساوسهم
« وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ » أي فيما يتسكهنون به ، وفيما يحكونه عن الشياطين . وقوله تعالى
« وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ » استئناف مسوق لإبطال ما قالوا في حق القرآن الكريم ،
من أنه من قبيل الشعر ، وأن رسول الله ﷺ من الشعراء ، ببيان حال الشعراء المنافية لحاله
عليه الصلاة والسلام . بعد إبطال ما قالوا إنه من قبيل ما يلقي الشياطين على الكهنة من
الأباطيل ، بما مرّ من بيان أحوالهم المضادة لأحواله عليه الصلاة والسلام . والمعنى أن الشعراء

الذين يركبون الخيالات والمزخرفات من القياسات الشعرية والأكاذيب الباطلة ، سواء كانت موزونة أم لا ، فإنهم يتبعهم (أى يجاريهم ويسلك مسلكهم ، ويكون من جملتهم) الغاؤون الضالون عن السنن ، لاغيرهم من أهل الرشد ، المهتدين إلى طريق الحق ، الداعين إليه .
قاله أبو السعود .

وقوله تعالى « أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ » استشهاد على أن الشعراء إنما يتبعهم الغاؤون ، وتقرير له . أى ألم تر أنهم فى كل وادٍ من أودية الخيال يهيمون على وجوههم ، لا يقفون عند حدّ معين ، بل يركبون للباطل والكذب وفضول القول كل مركب . دينهم الهجاء ، وتمزيق الأعراض ، والقدح فى الأنساب ، والنسب^(١) بالحرم والغزل والابتهار . ومدح من لا يستحق المدح ، والغلو فى الثناء والهجاء .

لطيفة :

فى ذكر الوادى والهيام ، تمثيل لذهابهم فى شعب القول وفنونه وطرقه وشجونه . قال ابن الأثير : استعمار الأودية للفنون والأعراض من المعانى الشعرية التى يقصدونها . وإنما خص الأودية بالاستعارة ، ولم يستعمل الطرق والمسالك ، أو ما جرى مجراها - لأن معانى الشعر تستخرج بالفكرة والروية ، والفكرة والروية فهما خفاء وغموض . فكان استعارة الأودية لها أشبه وأليق .

« وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ » أى مما يتبجحون به من أقوال وأفعال لم تصدر منهم ولا عنهم ، كناية عن أنهم يكذبون غير مباين بما يستتبعه من اللوائم . أى فكيف يتوهم أن يتبعهم فى مسلكهم ذلك ، ويلتحق بهم وينتظم فى سلكهم ، من تزّهت ساحته عن أن يحوم حولها شائبة الاتصاف بشيء من الأمور المذكورة ، واتصف بمحاسن الصفات

(١) النسب : ذكر محاسن الحسان ، وإظهار التعشق والهيام بها . والغزل : التغزل وذكر صفات النساء ، وذكر الميل لهن . والابتهار : الكذب بادعاء الوصول إلى محبوبته . اهـ . خفاجى .

الجليلة ، وتخلق بمكارم الأخلاق الجميلة ، وحاز جميع الكلمات القدسية ، وفاز بجملته الملكات الأنسية ، مستقراً على النهج القويم ، مستمراً على الصراط المستقيم ، ناطقاً بكل أمر رشيد ، داعياً إلى صراط العزيز الحميد ، مؤيداً بمعجزات قاهرة ، وآيات ظاهرة ، مشحونة بفنون الحكم الباهرة ، وصنوف المعارف الزاهرة ، مستقلة بنظم رائع ، أعجز كل منطق ماهر ، وبكت كل مفلح ساحر ! قاله أبو السعود .

تنبیه :

قال الحافظ ابن كثير : اختلف العلماء فيما إذا اعترف الشاعر في شعره بما يوجب حداً . هل يقام عليه بهذا الاعتراف أم لا ؟ لأنهم يقولون ما لا يفعلون - على قولين : وقد ذكر محمد بن إسحق ومحمد بن سعد^(١) في (الطبقات) والزيير بن بكار في كتاب (الفساحة) أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضی الله عنه استعمل النعمان بن عدی بن نضلة على ميسان ، من أرض البصرة . وكان يقول الشعر ، فقال :

أَلَا هَلْ أَتَى الْحَسَنَاءُ أَنْ خَلِيلَهَا
بِمَيْسَانَ يُسْتَقَى فِي زُجَاجٍ وَحَنَّتَمِ
إِذَا شِئْتُ غَنَّتَنِي دَهَائِقُ قَرِيَةٍ
وَرَقَاصَةٌ تَحْتُو عَلَى كُلِّ مَبْسَمِ
فَإِنْ كُنْتُ نَدْمَانِي فَبِالْأَكْبَرِ اسْقِنِي
وَلَا تَسْقِنِي بِالْأَصْغَرِ الْمُثَلَّمِ
لَعَلَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَسُوؤُهُ
تَنَادُمْنَا بِالْجَوْسِقِ الْمُتَهَدَّمِ

فلما بلغ ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضی الله عنه ، قال : إى والله ! إنه ليسوؤنى ذلك . ومن لقيه فليخبره أنى قد عزلته . وكتب إليه عمر (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم . غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير) . أما بعد فقد بلغنى قولك :

لَعَلَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَسُوؤُهُ
تَنَادُمْنَا بِالْجَوْسِقِ الْمُتَهَدَّمِ

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات ، بالصفحة رقم ١٤٠ من الجزء الرابع (طبعة بيروت)

في ترجمة عدی بن نضلة .

وايم الله ! إنه ليسوؤنى ذلك . وقد عزلتلك) .

فلما قدم على عمر . بكته بهذا الشعر . وقال : والله ! يا أمير المؤمنين ! ماشربتها قط . وما ذاك الشعر إلا شيء طفح على لساني . فقال عمر : أظن ذلك . ولكن ، والله ! لا تعمل لي عملاً أبداً ، وقد قلت ما قلت .

فلم يذكر أنه حده على الشراب ، وقد ضمنه شعره . لأنهم يقولون ما لا يفعلون . ولكن ذمه عمر ولامه على ذلك وعزله به .

وحكى الزمخشري عن الفرزدق^(١) أن سليمان بن عبد الملك سمع قوله :

فَيْتِنَ بِجَانِبِيَّ مُصْرَعَاتٍ وَبِتُّ أَفْضُ أَعْلَاقَ الْخِتَامِ

فقال : قد وجب عليك الحد . فقال : يا أمير المؤمنين ! قد درأ الله عنى الحد بقوله (وَأَنْتَهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ) .

ثم استثنى تعالى الشعراء المؤمنين الصالحين ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢٧] (إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا ، وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا

مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ، وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ)

« إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا » أى فى شعرهم ، بأن كان غالبه فى توحيد الله والثناء عليه والحكمة والموعظة والآداب الحسنة « وَانْتَصَرُوا » أى بشعرهم على عدوهم بأن هجوه « مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا » أى فكان هجاؤهم على سبيل

(١) انظر فى ديوانه الصفحة ٨٣٥ قصيدته فى مدح هشام بن عبد الملك ، ومطامها :

الَسْتَمُّ عَائِجِينَ بِنَا لَعْنًا نَرَى الْعَرَصَاتِ أَوْ أَثَرَ الْخِيَامِ

الانتصار ممن يهجوهم ، جزاءً وفاقاً . قال الله (١) (لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلِمَ) وقال تعالى (٢) (فَمَنْ أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ مِثْلَ مَا أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ) قال ابن كثير : وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لحسان (٣) : (اهجم ، أو قال هاجهم ، وجبريل معك) ويروى الإمام أحمد (٤) عن كعب بن مالك أنه قال للنبي ﷺ : إن الله عز وجل قد أنزل في الشعر ما قد علمت ، وكيف ترى فيه ؟ فقال النبي ﷺ : إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه . والذي نفسى بيده ! لكان ماترمونهم به نضح النبل .

تنبيهات :

الأول - قال في (الإكيل) : في قوله تعالى (وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ) الآية ، ذم الشعراء ، والمبالغة في المدح والهجو وغيرها من فنونه ، وجوازه في الزهد والأدب ومكارم الأخلاق وجواز الهجو لمن ظلم ، انتصاراً . انتهى .

وحكى الزمخشري عن عمرو بن عبيد ، أن رجلاً من العلوية قال له : إن صدرى لي جيش بالشعر . فقال : فإيتمك منه فيما لا بأس به ؟ والقول فيه : أن الشعر باب من الكلام ، محسنه كحسن الكلام وقبيحة كقبيح الكلام .

الثاني - ذكر ابن إسحاق أنه لما نزلت (وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ) جاء حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك إلى رسول الله ﷺ ليكون . قالوا : قد علم الله حين أنزل

(١) [٤ / النساء / ١٤٨] . (٢) [٢ / البقرة / ١٩٤] .

(٣) أخرجه البخاري في : ٥٩ - كتاب بدء الخلق ، ٦ - باب ذكر الملائكة ، حديث رقم ١٥١٧ ، عن البراء .

وأخرجه مسلم في : ٤٤ - كتاب فضائل الصحابة ، حديث رقم ١٥٣ (طبعتنا) .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ٤٥٦ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي)

هذه الآية أنا شعراء . فتلا النبي ﷺ (إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) قال : أنتم . قال ابن كثير : لكن هذه السورة مكية ، فكيف يكون سبب نزول هذه الآيات في شعراء الأنصار ؟ وفي ذلك نظر . ولم يرو فيه إلا مرسلات لا يعتمد عليها . والله أعلم . ولكن الاستثناء دخل فيه شعراء الأنصار وغيرهم ، حتى يدخل فيه من كان متلبسا من شعراء الجاهلية بدم الإسلام وأهله ، ثم تاب وأناب ورجع وأقلع ، وعمل صالحا ، وذكر الله كثيرا ، في مقابلة ما تقدم من الكلام السيء . فإن الحسنات يذهبن السيئات . وامتدح الإسلام وأهله في مقابلة ما كان يذمه . كما قال (١) عبد الله ابن الزبيرى ، لما أسلم :

يارسولَ المليكِ إن لسانى رَاتِقٌ مَفْتَقٌ ، إِذْ أَنَا بُورُ
إِذْ جَارَى الشَّيْطَانَ فِي سَنَنِ الْعَيِّ وَمَنْ مَالَ مَيْلَهُ مَثْبُورُ

وكذلك أبو سفيان بن الحرث بن عبد المطلب ، كان من أشد الناس عداوة للنبي ﷺ فهو ابن عمه وأكثرهم له هجوا . فلما أسلم لم يكن أحد أحب إليه من رسول الله ﷺ . وكان يمدح رسول الله ﷺ . انتهى . وقوله تعالى « وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ » تهديد شديد ووعيد أكيد ، لما فى (سيمعلم) من تهويل متعلقه . وفى (الذين ظلموا) من إطلاقه وتعميمه . وفى (أى منقلب ينقلبون) من إبهامه وتهويله . كأنه لا يمكن معرفته ، وقد رأوا ما حاق بهم فى الدنيا . ولعذاب الآخرة أشد وأبقى .

(١) انظر سيرة ابن هشام ، الصفحة رقم ٦١ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٧ - سُورَةُ النَّمْلِ

قال المهايغيّ : سميت بها ، لاشتمالها على مقاتلها ، الدالة على علم الحيوان بنزاهة الأنبياء وأتباعهم ، عن ارتكاب المكاره عمداً . وهو مما يوجب الثقة بهم . وهو من أعظم مقاصد القرآن . وهي مكية وآياتها ثلاث وتسعون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (طسّ ، تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ)

[٢] (هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ)

[٣] (الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ)

« طسّ ، تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ » الإشارة إلى نفس السورة. والقرآن

عبارة عن الكل أو عن الجميع المنزل. أى تلك السورة آيات القرآن الذى عرف بعلو الشأن.

وآيات كتاب عظيم المقدار ، مبين لما تضمنه من الحكم والأحكام والمواظظ والاعتبار .

« هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ

هُمْ يُوقِنُونَ » أى هو هدى من الضلالة، وبشرى برحمة الله ورضوانه، لمن آمن وعمل صالحاً

من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وأيقن بالآخرة ، والجزاء على الأعمال خيرها وشرها .

لطيفة :

تكرير الضمير لإفادة الحصر والاختصاص على ما فى (الكشاف) .

ولصاحب (الانتصاف) وجه آخر قال : لما كان أصل الكلام (وهم يوقنون بالآخرة)

ثم قدم المجرور على عامله ، عناية به ، فوق فاصلاً بين المبتدأ والخبر ، فأريد أن يلي المبتدأ خبره ،

وقد حال المجرور بينهما ، فطرى ذكره ليليه الخبر ، ولم يفت مقصود العناية بالمجرور حيث بقى

على حاله مقدماً : ولا يستفكر أن تعاد الكلمة مفصولة له وحدها ، بعد ما يوجب التطرية .

فأقرب منها أن الشاعر قال :

سَلْ ذُو وَعَجَلْ ذَاوَالْحِقْنَ بِنَدَا ۱۱ الشَّحْمِ ، إِنَّا قَدْ مَلَلْنَاهُ بِخَلِّ

والأصل (وألحقنا هذا الشحم) فوق منتصف الرجز أو منتهاه (على القول بأن مشطور الرجز بيت كامل) عند اللام . وبنى الشاعر على أنه لا بد ، عند المنتصف أو المنتهى ، من وقيفة ما . فقدر بتلك الوقفة بُعداً بين المعرف وآلة التعريف . فطراها ثانية . فهذه التطرية لم تتوقف على أن يحول بين الأول وبين المكرر ولا كلمة واحدة ، سوى تقديره وقفة لطيفة لا غير .

ثم قال : فتأمل هذا الفصل فإنه جدير بالتأمل . والله أعلم .

ثم تأثر أحوال المؤمنين بأحوال الكفرة ، بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ)

[٥] (أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْآخَسْرُونَ)

[٦] (وَإِنَّكَ لَتَلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ عَلِيمٍ)

[٧] (إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنستُ نَارًا سَاءَتِ كَيْمٌ مِّنْهَا بَخْبَرٍ أَوْءَاتِيكُمْ

بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ)

[٨] (فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ

رَبِّ الْعَالَمِينَ)

« إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ » أى مددناهم في

غيبهم ، فهم يتيهون في ضلالهم . وكان هذا جزاء على ما كذبوا به من الدار الآخرة والجزاء على

الأعمال كما قال (١) تعالى (وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ مِنْ أَوَّلِ مَرَّةٍ)

« أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْآخَسْرُونَ » أى أشد الناس

(١) [٦ الأنعام / ١١٠] .

خسرانا للنجاة وثواب الله . « وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ عَلِيمٍ » أى لتؤتاه وتلقته من عند حكيم فى أمره ونهيه ، عليم بالأمر جليها وخفيها . نخبه هو الصدق المحض والحكمة البالغة ، كما قال (١) (وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا) والجملة مستأنفة ، سقيت بعد بيان بعض شؤون القرآن الكريم ، تمهيداً لما يعقبه من الأنباء الجميلة . وقد بدأ منها بما كان من أمر موسى عليه السلام واصطفائه وإيتائه من الآيات الباهرة ما أذل معانديه ، وجعلهم مثل السوء . فقال سبحانه « إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ عَ » أى حين قفل من مدين إلى مصر ، وأضلَّ الطريق « إِنِّي ءَأَنْتُ نَارًا » أى رأيها « سَأَتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ » أى عن الطريق « أَوْ ءَاتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ » أى بشعلة مقتبسة « لَمَّا كُمُ تَصْطَلُونَ » أى تندفئون به « فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَها » أى بورك من فى مكان النار ومن حول مكانها . ومكانها البقعة التى حصلت فيها . وتدل عليه قراءة أُبْنِي (تباركت الأرض ومن حولها) وعنه : بورت النار . والذى بورت له البقعة ، وبورك من فيها وحوايلها ، حدوث أمر ديني فيها ، وهو تكليم الله موسى ، واستنباؤه له ، وإظهار المعجزات عليه . ورب خير يتجدد فى بعض البقاع ، فينشر الله بركة ذلك الخير فى أقاليمها ويث آثار يمنه فى أباؤها . فكيف بمثل ذلك الأمر العظيم الذى جرى فى تلك البقعة المباركة؟ كذا فى (الكشاف) .

وقال السمين : (بارك) يتعدى بنفسه . فلذلك بنى للمفعول : باركك الله ، وبارك عليك ، وبارك فيك وبارك لك . والمراد ب (من) إما البارى تعالى وهو على حذف مضاف ، أى من قدرته وسلطانه فى النار . وقيل : المراد به موسى والملائكة . وكذلك قوله (وَمَنْ حَوْلَها) وقيل المراد ب (من) غير العقلاء . وهو النور والأمكنة التى حولها . انتهى .

ولذا قال الزمخشري : والظاهر أنه عام فى كل من كان فى تلك الأرض وفى ذلك الوادى

(١) [٦ / الأنعام / ١١٥] .

وحواليهما من أرض الشام . قال : ولقد جعل الله أرض الشام بالبركات موسومة في قوله (١)
 (وَنَجِّينَاهُ لُوْطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ) وحقت أن تكون كذلك .
 فهي مبعث الأنبياء صلوات الله عليهم ، ومهبط الوحي إليهم ، وكفاتهم أحياء وأمواتا .
 ثم قال : ومعنى ابتداء خطاب الله موسى بذلك عند مجيئه، هي بشارة له بأنه قد قضى أمر
 عظيم تنتشر منه في أرض الشام كلها البركة . انتهى .

وقال القرطبي : هذا تحية من الله تعالى لموسى ، وتكرمة له . كما حيا إبراهيم على السنة
 الملائكة حين دخلوا عليه فقالوا (٢) (رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ وَعَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ) .
 وعن ابن عباس : لم تكن تلك النار نارا ، وإنما كانت نوراً يتوهج .
 وعنه : هي نور رب العالمين .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي عبيدة عن أبي موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ
 (إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام . يخفض القسط ويرفعه . يرفع إليه عمل الليل قبل النهار
 وعمل النهار قبل الليل . حجاب النور أو النار . لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه كل شيء
 أدركه بصره) ثم قرأ أبو عبيدة : أن بورك من في النار ومن حولها .

قال ابن كثير : وأصل الحديث مخرج في صحيح مسلم (٣) من حديث عمرو بن مرة «وَسُبْحَانَ
 اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» أى الذى يفعل ما يشاء ، ولا يشبهه شيء من مخلوقاته ، ولا يحيط به شيء
 من مصنوعاته ، وهو العليّ العظيم المبين لجميع المخلوقات ، ولا يسكتفه الأرض والسموات ،
 بل هو الأحد الصمد المنزه عن مماثلة المحدثات . قاله ابن كثير .

وقد أفاد أن المقام اقتضى التنزيه ، دفعا لإيهام مالا يليق من التشبيه . ثم إن موسى عليه
 السلام ، أعلمه تعالى بأنه هو الذى يكلمه ويناجيه ، لاملك ولا خلق آخر ، بل ذاته العلية
 المستحقة للألوهية والنموت القدسية ، فقال سبحانه :

(١) [٢١ / الأنبياء / ٧١] . (٢) [١١ / هود / ٧٣] .

(٣) أخرجه في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٩٥ (طبعتنا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (يَمْؤُوسَىٰ إِنَّهُوَ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[١٠] (وَأَلْقِ عَصَاكَ ، فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ،

يَمْؤُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ)

[١١] (إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[١٢] (وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ، فِي تِسْعِ آيَاتٍ

إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ)

« يَمْؤُوسَىٰ إِنَّهُوَ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » وفي إشار هذه الأسماء الجليلة سرّ بديع . وهو الإشارة الجميلية إلى روح إرساله عليه السلام . أي : أنا الله لا تلك المعبودات التي عكف عليها قوم فرعون ، العزيز الغالب القاهر لسكالات متمردها ، الحكيم في البعثة والإرسال ، والتفضل والإفضال . ثم أمره تعالى أن يلقى عصاه من يده ليريه دليلًا واضحًا على أنه القادر على كل شيء ، بقوله « وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ » هو ضرب من الحيات ، أسرع حركة وأكثر اضطرابا « وَلَّى » أي من الخوف « مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ » أي لم يرجع على عقبه من شدة خوفه « يَمْؤُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ » أي لحفظي لهم وعنايتي بهم وعصمتي إياهم مما يؤذيهم . وفيه تبشير له باصطفائه بالرسالة والنبوة . وتشجيع له بنزع الخوف . إذ لا يتمكن من أداء الرسالة ، ما لم يزل خوفه من المرسل إليه . وقوله تعالى « إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ » استثناء منقطع . استدرك به ما عسى يخرج في الخلد من نقي الخوف عن كلهم . مع أن منهم من فرطت منه صغيرة ما ، مما يجوز صدوره عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . فإنهم وإن صدر عنهم شيء من ذلك ، فقد فعلوا عقيبه ما يبطله ، ويستحقون به من الله تعالى مغفرة ورحمة . وقد قصد به التعريض بما وقع من

موسى عليه الصلاة والسلام ، من وكزه القبطى والاستغفار . قاله أبو السعود . وسبقه الزمخشريّ حيث قال : يوشك أن يقصد بهذا ، التعريض بما وجد من موسى . وهو من التعريضات التي يلفظ مأخذها ، وسماء ظلاما كما قال موسى (رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي) ثم أشار تعالى إلى آية خارقة غير العصا ، آتاه إياها ، بقوله « وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوَاءٍ » أى آفة كبرص « فِي تِسْعِ آيَاتٍ » أى غيرها تؤتاها ، إذاجحد فرعون رسالتك . وهى ضرب ماء النهر بالعصا فينقلب دما . وإصعاد الضفادع على أرض مصر . وضرب التراب فتمتلئ الأرض قلا . وإرسال الجراد عليهم . والوباء الشديد . وإصابة أجسادهم بالقروح والدمامل والبثور . وإهلاك حصادهم بالبرد الشديد . وتغشيتهم بظلام كثيف ، على ماروى . وفى (تسع) أوجه : أحدها أنها حال ثالثة . أى تخرج آية فى تسع آيات . والثانى أنها متعلقة بمحذوف ، أى اذهب فى تسع . والثالث أن يتعلق بقوله (وَأَلْقِ عَصَاكَ) (وَأَدْخِلْ يَدَكَ) أى فى جملة تسع آيات . و(فى) بمعنى (مع) « إِلَى فِرْعَوْنَ » أى مرسلهم إلى فرعون « وَقَوْمِهِ إِتْنَهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ » أى خارجين عن الحدود ، فى الكفر والعدوان . وهذا تعليل للإرسال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ)

[١٤] (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ، فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ)

[١٥] (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ، وَقَالَ اللَّهُ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلْنَا عَلَىٰ

كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ)

[١٦] (وَوَرِثَ سُلَيْمٌ دَاوُدَ ، وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِّمْنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ
وَأُوْتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ، إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ)

«فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً» أي ظاهرة بينة «قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ * وَجَعَدُوا
بِهَا» أي كذبوا بها بالسنتهم «وَأَسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ» أي عرفت أنفسهم أنها آيات يقينا،
لا سيما عند إلقاء السحرة ساجدين «ظُلْمًا» أي للآيات ، بتسميتها سحراً كقوله (١) (بِمَا
كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلَمُونَ) ولقد (ظلموا بها) «وَعُلُوا» أي تكبراً عن الانقياد لموسى
«فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ» أي من إهلاكهم بالإغراق ، لغرقهم في بحر
الفساد والإفساد «وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا» أي بالقضاء بين الناس ، وحكمة
باهرة «وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ * وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ
دَاوُدَ» أي العلم والحكمة والنبوة أو الملك «وَقَالَ» أي تحدثنا بنعمة الله وتنوينا بمنته «يَا أَيُّهَا
النَّاسُ عَلِّمْنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ» أي فهم صوته «وَأُوْتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ، إِنَّ هَذَا لَهُوَ
الْفَضْلُ الْمُبِينُ» أي البين الظاهر . وهو قول وارد على سبيل الشكر والمحمدة . كما قال
رسول الله ﷺ (٢) (أنا سيد ولد آدم ولا نخر) أي أقول هذا القول شكراً ، ولا أقوله نخرًا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَحِشْرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ)

[١٨] (حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا

مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

(١) [٧ / الأعراف / ٩] . (٢) أخرجه أبو داود في : ٣٩ - كتاب السنة ، ١٣ -

باب في التخيير بين الأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام ، حديث رقم ٤٦٧٣ .

[١٩] (فَتَبَسَّمْ ضَاحِكًا مِّنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ)

[٢٠] (وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ)

[٢١] (لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ وَأَوْ لِيَأْتِنِي بَسُطْنٌ مِّبِينٍ)

[٢٢] (فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطُ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ)

[٢٣] (إِنِّي وَجَدتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ)

[٢٤] (وَجَدْتَهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ)

[٢٥] (أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ)

« وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ » أى جمع له عساكره « مِنْ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ » أى يجس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا « حَتَّى إِذَا آتَوُا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ « أرى أنهم متوجهين إلى وادئها « يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » أى بمكانكم « فَتَبَسَّمْ ضَاحِكًا مِّنْ قَوْلِهَا » أى تعجبا من حذرهما واهتدائهما إلى تدبير مصالحتها ومصالح بنى نوعها . وسرورا بشهرة حاله وحال جنوده فى باب التقوى والشفقة ، فيما بين أصناف المخلوقات ، التى هى أبعدها من إدراك أمثال هذه

الأمر ، وابتهاجا بما خصه الله تعالى به من إدراك همسها وفهم مرادها . قاله أبو السعود
« وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ » أى ألهمنى
شكرها « وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ * وَتَفَقَّدَ
الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ * لَأُعَذِّبَنَّهُ وَعَذَابًا شَدِيدًا
أَوْ لَأَأَذِيبَنَّهُ وَ أَوْ لِيَأْتِنِي بِسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ » أى بحجة تبين عذره « فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ » أى
فلبث فى الغيبة أمدًا غير طويل « فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحْطُ بِهِ وَ جِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ » وهى مدينة
« بِنَبَأٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ » أى
سريرتجلس عليه ، هائل مزخرف بأنواع الجواهر « وَجَدْتَهَا وَقَوْمًا بِسُجُودٍ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ
اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمْ الشَّيْطٰنُ أَعْمٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ * أَلَا يَسْجُدُوا
أى هلايسجدون . كما قرىء بذلك . وجوز بعضهم أن يكون معمولًا لما قبله . أى فصددهم عن
السبيل لثلاثيسجدوا ، فحذف الجار مع (أن) أو أن تكون (لا) مزيدة ، والمعنى : فهم لا يهتدون
إلى أن يسجدوا « لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى يظهر ماهو مخبوء
فيهما من نبات ومعادن وغيرها « وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ » قرىء بالتاء والياء
على صيغة الغيبة . والجملة التحضيضية إمامستأنفة من كلامه تعالى ، أو محكية عن قول الهدهد .
واستظهر الزمخشري الثانى . قال : لأن فى إخراج الخبء أماره على أنه من كلام الهدهد ،
لهندسته ومعرفة الماء تحت الأرض . وذلك بإلهام من يخرج الخبء فى السموات والأرض ،
جلت قدرته ولطف علمه . ولا يكاد يخفى على ذى الفراسة النظار بنور الله ، مخايل كل مختص
بصناعة أو فن من العلم ، فى روائه ومنطقه وشمائله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ)

وكل شيء . فما أصغر عرشها في جنب عظمتها ! وما أضعف معبودها - الشمس - في جانب قدرته !

تنبيه :

هذه السجدة من عزائم السجديات . قال الزخشرى : لأن مواضع السجدة إما أمر بها ، أو مدح لمن أتى بها ، أو ذم لمن تركها . وإحدى القراءتين أمر بالسجود ، والأخرى ذم للتارك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ)

[٢٨] (أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَأَنْظَرُوا مَاذَا يَرْجِعُونَ)

[٢٩] (قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِنِّي أَتِي بِكِتَابٍ كَرِيمٍ)

[٣٠] (إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

[٣١] (أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ)

[٣٢] (قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ)

« قَالَ » أى سليمان « سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ * ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَأَنْظَرُوا مَاذَا يَرْجِعُونَ * قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِنِّي أَتِي بِكِتَابٍ كَرِيمٍ * » أى حسن مضمونه ومافيه « إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ » أى لا تتكبروا على ، وأتوني منقادين لأمرى « قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ » أى لأبت

أمراً إلا بمحضركم ومشورتكم . ولا أستبدّ بقضاء إلا باستطلاع آرائكم والرجوع إلى استشارتكم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَسِّ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ)

[٣٤] (قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً، وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ)

[٣٥] (وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ)

« قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً » أى فى العدد والعدد « وَأَوْلُوا بِأَسِّ شَدِيدٍ » أى نجدة وبلاء فى الحرب « وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ » أى وأمر القتال أو الصلح مفوض إلى رأيك . فانظري ما هو أبقي لشرفك وملسك « قَالَتْ » أى مشيرة إلى اختيار خطة المسألة وإيثارها ، بالنظر لحالتها ومرکزها وضعفها أمام عدوها ، بأن القتال إنما يؤثر إذا لم يغلب على الظن دخول العدو فى قرية العدو . والأتعين الانقياد . وذلك معنى قولها « إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً » أى عنوة وقهرا « أَفْسَدُوهَا » أى أخرجوها « وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً » أى بالقهر والغلبة والقتل والأسر ونهب الأموال « وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ » تأكيد لما وصفت من حالهم ، وتقدير له بأن ذلك عادتهم المستمرة . وقيل تصديق لها منه تعالى « وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ » أى وإنى سأرسل إلى سليمان وملثه رسلا بهدية توجب المحبة وتشبه الانقياد . من غير اختلال لشرفنا . ثم أنتظر بأى أمر يرجع المرسلون منه ، حتى أعمل على حسب ذلك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[۳۶] (فَلَمَّا جَاءَ مُسْلِمِينَ قَالَ أُمِدُّونَنِي بِمَالٍ فَمَا آتَانَنِي اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيَتِكُمْ تَفْرَحُونَ)

[۳۷] (أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ)

[۳۸] (قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْاْ أَيْكُمُ يَا بَنِي بَعْرَشٍ مَا قَبَلَ أَنْ يَأْتُوْنِي مُسْلِمِينَ)

[۳۹] (قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ ، وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ)

[۴۰] (قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ، فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ، وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ)

«فَلَمَّا جَاءَ مُسْلِمِينَ» أي المرسلون منها «قَالَ أُمِدُّونَنِي بِمَالٍ فَمَا آتَانَنِي اللَّهُ» أي

من الملك والحكمة والنبوة «خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ» أي فلا أبالي بجميع ما عندكم فضلا عن الهدية «بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيَتِكُمْ تَفْرَحُونَ» أي إذا أهدى إليكم مثلها ، أو أهديتم مثلها ، تفرحون استكثاراً أو افتخاراً «أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ» أي مهانون «قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْاْ أَيْكُمُ يَا بَنِي بَعْرَشٍ مَا قَبَلَ أَنْ يَأْتُوْنِي مُسْلِمِينَ» قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ

وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ * قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ
 أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ، فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي
 ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ » أى ليختبرنى أشكر بالطاعة والعمل بالشرعية ، أم أكفر بالمعصية
 والمخالفة . وقوله تعالى « وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ، وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ
 كَرِيمٌ » كقوله (١) (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا) وكقوله (٢) (وَمَنْ
 عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (قَالَ نَكِرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ)

[٤٢] (فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ ، قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ، وَأَوْتَيْنَا الْعِلْمَ

مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ)

« قَالَ نَكِرُوا لَهَا عَرْشَهَا » أى اجعلوه متنكراً متغيراً عن هيئته وشكله ، كما يتنكر
 الرجل للناس « نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ » أى لمعرفة « فَلَمَّا
 جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ » قال المهاجى : لم تقل (هو هو) خوفاً
 من التكذيب ، مع نوع من التغيير . ولا (لا) خوفاً من التجهيل .

وقال الزمخشري : لم تقل (هو هو) ولا (ليس به) وذلك من راحة عقلها . حيث لم
 تقطع فى المحتمل . أى : فأنت بـ (كأن) الدالة على غلبة الظن .
 قال الشهاب : وهذا إشارة إلى أن (كأن) ليس المراد بها هنا التشبيه بل الشك ، وهو
 مشهور فيها .

وقد أبدى صاحب (الانتصاف) فرقاً بين (كأن) و (هكذا) فى التشبيه . وعبارته :

(١) [٤١ / فصلت / ٤٦] و [٤٥ / الجاثية / ١٥] . (٢) [٣٠ / الروم / ٤٤] .

وفي قولها (كأنه هو) وعدولها عن مطابقة الجواب للسؤال بأن تقول (هكذا هو) - نكتة حسنة . ولعل قائل يقول : كلتا العبارتين تشبيه . إذ كان التشبيه فيهما جميعاً ، وإن كانت في إحداها داخلية على اسم الإشارة ، وفي الأخرى داخلية على المضمرة ، وكلاهما (أعنى اسم الإشارة والمضمرة) واقع على الذات المشبهة . وحينئذ تستوى العبارتان في المعنى . ويفضل قولها (هكذا هو) بمطابقته للسؤال . فلا يد في اختيار (كَأَنَّهُ هُوَ) من حكمة . فنقول : حكمته ، والله أعلم ، أن (كأنه هو) عبارة من قرب عنده الشبه حتى شكك نفسه في التغير بين الأمرين . فكاد يقول (هو هو) وتلك حال بليقيس . وأما (هكذا هو) فعبارة جازم بتغير الأمرين ، حاكم بوقوع الشبه بينهما لا غير . فلماذا عدلت إلى العبارة المذكورة في التلاوة ، لمطابقتها لحالها ، والله أعلم . انتهى .

وقوله تعالى « وَأَوْتَيْنَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ » هذا من تمام كلام سليمان عليه السلام ، شكراً لله على فضلهم عليها ، وسبقهم إلى العلم بالله وبالإسلام . أى : وأوتينا نحن العلم بالله وبقدرته ، وبصححة ما جاء من عنده ، قبل علمها الذي أومأ إليه قولها (كأنه هو) والجملة عطف على مقدر اقتضاه المقام المقتضى ، للإفاضة في وصفها برجحة الرأي في الهداية للإسلام . والتقدير : أصابت في جوابها وقد رزقت الإسلام ، وعلمت قدرة الله . وأوتينا العلم الخ . وقيل : إنه من كلام بليقيس ، موصولاً بقولها (كأنه هو) ، لامن كلام سليمان . كأنها ظفرت أنه أراد بذلك اختبار عقلها وإظهار معجزة لها ، فقالت : أوتينا العلم الخ . أى لا حاجة إلى الاختبار لأنى آمنت قبل . وهذا يدل على كمال عقلها .

أو المعنى : علمنا إتيانك بالعرش قبل الرؤية ، أو هذه الحالة بالقرائن أو الأخبار . قال ابن كثير : ويؤيد الأول ، أى أنه من كلام سليمان ، أنها إنما أظهرت الإسلام بعد دخولها إلى الصرح ، كما سيأتى . والله أعلم . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ)

[٤٤] (قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ، فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِيهَا ،

قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ، قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي

وَأَسَأَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

« وَصَدَّهَا » أى وكان صدها عن الهداية « مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ

مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ * قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ » أى القصر، أو حن الدار وكان سليمان عليه

السلام اتخذ قصرًا أبدعًا من زجاج، فأراد أن يريها منه عظمة ملكه وسلطانه، ومقدار ما آثره

الله به « فَلَمَّا رَأَتْهُ » أى حننه « حَسِبَتْهُ لُجَّةً » أى ماء عظيمًا « وَكَشَفَتْ » أى للخوض فيه

« عَنْ سَاقِيهَا ، قَالَ إِنَّهُ وَ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ » أى مملس « مِّن قَوَارِيرَ » أى من الزجاج « قَالَتْ

رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي » أى بكفرها السالف وعبادتها وقومها الشمس « وَأَسَأَمْتُ مَعَ

سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » أى متابعة له فى دينه وعبادته لله وحده لا شريك له .

تنبيهات :

الأول - روى كثير من المفسرين ههنا أقاصيص لم تصحّ سندًا ولا خبرًا . وما هذا

سبيله ، فلا يسوغ نقله وروايته .

قال الحافظ ابن كثير ، بعد أن ساق ما رواه ابن أبي شيبة عن عطاء مستحسنًا له ،

ما مثاله : قلت : بل هو منكر غريب جدا . ولعله من أوهام عطاء بن السائب على ابن عباس ،

والله أعلم .

ثم قال : والأقرب فى مثل هذه السياقات أنها متلقاة عن أهل الكتاب ، مما وجد فى

صحفهم . كروايات كعب وهب ، ساعهما الله تعالى ، فيما نقلاه إلى هذه الأمة من أخبار بنى

إسرائيل ، من الأوابد والغرائب والعجائب . مما كان ومما لم يكن . ومما حرف وبدل ونسخ .

وقد أغنانا الله سبحانه عن ذلك بما هو أصح منه وأنفع وأوضح وأبلغ ، والله الحمد والمنة .
 الثاني - أشير في (التوراة) في الفصل الرابع من سفر الملوك الثالث إلى تفصيل نبأ سليمان عليه السلام وعظمة ملكه وساطانه . ومما جاء فيه أن سليمان كان متسلطاً على جميع الممالك من نهر الفرات إلى أرض فلسطين وإلى تخم مصر . وإن ملوك الأطراف كانوا يحملون له الهدايا خاضعين له كل أيام حياته أي أنها تؤدى له الجزية ، وإن كان ملكه محصوراً في فلسطين . وأن الله تعالى آتاه حكمة وفهما ذكياً جسداً ، وسعة صدر . ففاقت حكمته حكمة جميع أهل المشرق وأهل مصر . وقال ثلاثة آلاف مثل . وتسكلم في الشجر ، من الأرز الذي على لبنان إلى الزوفى التي تخرج في الحائط . وتسكلم في البهائم والطيور والزحافات والسمك . وأما صرحه وبيته عليه السلام ، فقد جاء وصفه في الفصل الخامس من السفر المتقدم . وأنه أكمل بناءه في ثلاث عشرة سنة . وأنه بنى جازراً وبيت حورون السفلى وبعثت وتدمر في أرض البرية . وجاء في الفصل العاشر من هذا السفر أيضاً قصة ملكة سبأ ومقدمها من اليمن على سليمان لتخبر حكمته وعظمة ملكه ، ودهشتها مما رآته وتحققته ، وإيمانها بربه تعالى . ثم إعطاؤه إياها بغيتها . ثم انصرافها إلى أرضها .
 وقد ذكرنا غير مرة أن القرآن الكريم لا يسوق أنباء ما تقدم سوق مؤرخ ، بل يقصها موجزة ليتحقق أنه مصداق ما بين يديه ، ومهيمن عليه ، ولينبه على أن القصد منها موضع العبرة والحكمة . ومثار التبصر والفطنة .

الثالث - مما استنبط من آيات هذه القصة الجميلة ، أن في قوله تعالى (فَتَبَسَّمْ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا) أنه لا بأس بالتبسم والضحك عند التعجب وغيره . وفي قوله تعالى (وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ)

استحباب تفقد الملك أحوال رعيته . وأخذ منه بعضهم تفقد الإخوان ، فأشدد :

تفقد الإخوان مستحسن	فن بداه نعم ماقد بدا
سن سليمان لنا سنة	وكان فيما سنه مقتدى
تفقد الطير على ملكه	فقال : مالى لا أر الهددا

وأن في قوله تعالى (لَأَعَذِّبَنَّهٗ وَعَذَابًا شَدِيدًا) الآية، دليلاً على أن العذاب على قدر الذنب، لا على قدر الجسد . وعلى جواز تأديب الحيوانات والبهايم بالضرب عند تقصيرها في المشي وإسراعها ونحو ذلك. وأن في قوله تعالى (قَالَ أَحَطُّ بِمَا لَمْ تَحِطُ بِهِ) أن الصغير يقول للكبير والتابع للمتبع : عندي من العلم ما ليس عندك ، إذا تحقق ذلك . وأن في قوله تعالى (قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ) قبول الوالي عذر رعيته، ودرءه العقوبة عنهم ، وامتحان صدقهم فيما اعتذروا به . وأن في قوله تعالى (أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ) إرسال الطير بالكتب . وأن في قوله تعالى (كِتَابٌ كَرِيمٌ) استحباب ختم الكتب ، لقول السدي : كريم بمعنى محترم . وأن في قوله تعالى (قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أُوْتُوا فِي آمْرِي) المشاورة والاستعانة بالأراء في الأمور المهمة . وأن في قوله تعالى (أَمْ تَدْعُونَ بِنَالٍ) الآية ، استحباب رد هدايا المشركين . كذا في (الإكليل) بزيادة . ثم أخبر تعالى عن ثمود وما كان من أمرها مع نبيها صالح عليه السلام ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ)

[٤٦] (قَالَ يَاقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالْسَيِّئَةِ قَبْلَ الْحُسْنَىٰ ، لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

[٤٧] (قَالُوا أَطِیرْنَا بِكَ وَبَيْنَ مَعَكَ ، قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ ، بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَفْتَنُونَ)

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ »

أى فريق مؤمن وفريق كافر . يختصمون خصومة لا يرجع فيها المبطل إلى الحق بعد ما تبين له . كقوله تعالى (١) « قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَنْ صِلِحًا مَّرْسَلًا مِنْ رَبِّهِ ، قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ ءَامِنُونَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ ءَكْفُرُونَ » « قَالَ يَقَوْمِ لِمَ تَسْتَمْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ » أى بالعقوبة السيئة قبل التوبة الحسنة . أى لم تدعون بحضور العقوبة ولا تطلبون من الله رحمته بالإيمان « لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * قَالُوا أَطَّيَّرْنَا » أى تطيرنا أى تشاء منا « بِنِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ » أى من المؤمنين . وقد كانوا ، لشقايتهم ، إذا أصيبوا بسوء قالوا : هذا من قبل صالح وصحبه « قَالَ طَّيَّرِكُمْ عِنْدَ اللَّهِ » أى سبيلكم الذى يجيء منه خيركم وشركم عند الله . وهو قدره وقسمته ، إن شاء رزقكم وإن شاء حرّمكم . قاله الزمخشري .

قال الشهاب : لما كان المسافر من العرب إذا خرج مرّ به طائر ساجحا ، وهو ما وليه بجيسرته ، أو بارحا وهو ما وليه بيمينته - تيمنوا بالأول وتشاءوا بالثانى . ونسبوا الخير والشر إلى الطائر . ثم استعير لما كان سببهما من قدر الله وقسمته . أو من عمل العبد الذى هو سبب الرحمة والنقمة . ومنه (طائر الله ، لا طائر ك) « بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ » أى مفتونون بضلالكم وكفركم . لاترون حسنا إلا ما يوافق هواكم ، ولا شؤما إلا يخالفه . ثم أخبر تعالى عن طغاة ثمود ورؤسائهم الذين كانوا دعاة قومهم إلى الضلال والكفر ، وتكذيب صالح عليه السلام ، وما آل بهم الأمر ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ)

(١) [٧ / الأعراف / ٧٥ و ٧٦] .

[۴۹] (قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّنَنَّهٗ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ)

[۵۰] (وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَمَكْرًا مَكَرًا وَمَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

[۵۱] (فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ)

[۵۲] (فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

«وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ» أي شأنهم وعادتهم

الإفساد، كما يفيد المضارع وتأكيده بقوله (في الأرض) الدال على عموم فسادهم. وهو صفة (رهط)

أو (تسعة) «قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ» أي ليحلف كل واحد منكم على موافقة الآخرين، بالله الذي

هو أعظم المعبودين «لَنُبَيِّنَنَّهٗ وَ» أي لنقتلنه ليلاً. وقرئ بالتاء على خطاب بمضهم لبعض

«وَأَهْلَهُ» أي من آمن معه. «ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ» أي الطالب ثأره علينا «مَا شَهِدْنَا

مَهْلِكَ أَهْلِهِ» أي ما حضرنا مكان هلاك الأهل، مع تفرقهم في الأماكن الكثيرة، فضلاً

عن مكانه، فضلاً عن مباشرته «وَإِنَّا لَصَادِقُونَ» أي ونحلف إننا لصادقون. أو: والحال

إننا لصادقون فيما ذكرنا «وَمَكْرُؤًا مَكَرًا» أي بهذه الحيلة «وَمَكْرًا مَكَرًا» أي بأن

جعلناها سبباً لإهلاكهم «وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ» * فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أننا

دمرناهم وقومهم أجمعين * فتلك بيوتهم خاوية» أي خالية ساقطة. لم تعمر بعدهم

لأنهم استؤصلوا «بِمَا ظَلَمُوا ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» أي بأنهم ما أخذوا إلا

لظلمهم. وإن عاقبة الظلم الدمار والبوار.

القول في تأويل قوله تعالى :

[۵۳] (وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)

[۵۴] (وَلَوْ طَآءِذُ قَالَ لِقَوْمِهِ ءَاتَاؤُنَ الْفَاحِشَةَ وَآتَمُّ تَبْصِرُونَ)

[٥٥] (أَإِنِّي لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ ، بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ)

[٥٦] (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ،

إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ)

[٥٧] (فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ وَ قَدَّرْنَا لَهَا مِنَ الْغَیْرِینَ)

[٥٨] (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا ، فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذِرِینَ)

[٥٩] (قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ، ءَآلَهُ خَيْرٌ مِّمَّا يُشْرِكُونَ)

« وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا » یعنی صالحًا علیه السلام ومن معه « وَكَانُوا يَتَّقُونَ *

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ » أى قبحها ومضادتها لحكمه

تعالى وحكمته « أَإِنِّي لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ » أى متجاوزين النساء

اللاتى هن محال الشهوة « بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ » أى تفعلون فعل الجاهلين سفها وعمى عن

العاقبة « فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ

أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ » أى يتزهون عن أفعالنا ورونها رجسًا . قالوا استهزاء « فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ وَ

إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ وَ قَدَّرْنَا لَهَا مِنَ الْغَیْرِینَ » أى الباقيين فى العذاب « وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا » أى

هائلا غير معهود « فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذِرِینَ * قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ

اصْطَفَىٰ ءَآلَهُ خَيْرٌ مِّمَّا يُشْرِكُونَ » قال الزمخشري : أمر رسوله ﷺ أن يتلو هذه الآيات

الناطقة بالبراهين على وحدانيته وقدرته على كل شيء وحكمته . وأن يستفتح بتحميده ،

والسلام على أنبيائه والمصطفين من عباده . وفيه تعليم حسن ، وتوقيف على أدب جميل ، وبعث

على التيمن بالذكرين ، والتبرك بهما ، والاستظهار بكنائهما ، على قبول ما يلقى إلى السامعين ،

وإصغائهم إليه وإنزاله من قلوبهم المنزلة التى يبغيها المسموع . ولقد توارث العلماء والخطباء

والوعاظ كابرًا عن كابر هذا الأدب . فحمدوا الله عز وجل ، وصلوا على رسول الله ﷺ ، أمام

كل علم مفاد ، وقبل كل عظة وتذكرة ، وفي مفتتح كل خطبة . وتبعهم المترسلون . فأجروا عليه أوائل كتبهم في الفتوح والتهاني وغير ذلك من الحوادث التي لها شأن . وقيل : هو متصل بما قبله ، وأمر بالتحميد على المهالكين من كفار الأمم . والصلاة على الأنبياء عليهم السلام وأشياعهم الناجين .

ثم قال : معلوم أن لاخير فيما أشركوه أصلا حتى يوازن بينه وبين من هو خالق كل خير ومالكة . وإنما هو إزام لهم وتبكيك وتهكم بحالهم . وذلك أنهم آثروا عبادة الأصنام على عبادة الله . ولا يؤثر عاقل شيئاً على شيء ، إلا لداع يدعوه إلى إشاره ، من زيادة خير ومنفعة . فقييل لهم ، مع العلم بأنه لا خير فيما آثروه ، وأنهم لم يؤثره لزيادة الخير ، ولكن هوى وعبثاً ، لينبئوا على الخطأ المفرط ، والجهل المورط . وإضلالهم التمييز ونبذهم المعقول . وليعلموا أن الإيثار يجب أن يكون للخير الزائد . ونحوه ما حكاه^(١) عن فرعون (أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ) « مع علمه أنه ليس لموسى مثل أنهاره التي كانت تجري تحته .

ثم عدد سبحانه الخيرات والمنافع التي هي آثار رحمته وفضله ، كما عدد هاهنا في موضع آخر . ثم قال (هَلْ مِنْ شَرٍّ كَأَيْبِكُمْ مِّنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِّنْ شَيْءٍ) .

لطيفة:

قال ابن القيم في (طريق المجرتين) في هذه الآية : كلمة (السلام) هنا تحتل أن تكون داخلية في حيز القول فتكون معطوفة على الجملة الخبرية ، وهي (الحمد لله) ويكون الأمر بالقول متناولاً للجملة معاً . وعلى هذا ، فيكون الوقف على الجملة الأخيرة ، ويكون محلها الفصيح محكية بالقول .

ويحتل أن تكون الجملة مستأنفة مستقلة معطوفة على جملة الطلب . وعلى هذا فلا محل لها من الإعراب .

(١) [٤٣ / الزخرف / ٥٢] .

وهذا التقدير أرجح ، وعليه يكون السلام من الله عليهم . وهو المطابق لما تقدم من سلامه سبحانه على رسله صلى الله عليهم وسلم .

وعلى التقدير الأول يكون أمر بالسلام عليهم .

ولكن يقال على هذا : كيف يعطف الخبر على الطلب مع تنافر ما بينهما . فلا يحسن

أن يقول : قم وذهب زيد . ولا اخرج وقعد عمرو .

ويجاب على هذا بأن جملة الطلب ، قد حكيت بجملة خبرية ، ومع هذا لا يمتنع العطف

فيه بالخبر على الجملة الطلبية لعدم تنافر الكلام فيه وتباينه .

وهذا نظير قوله تعالى^(١) (قُلْ أَنْظِرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا تُعْنِي

الْآيَاتُ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ) .

فقوله (وَمَا تُعْنِي الْآيَاتُ) ليس معطوفاً بالقول وهو (انظروا) بل معطوف على الجملة

الكبرى .

على أن عطف الخبر على الطلب كثير كقوله تعالى^(١) (قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ ،

وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ) وقوله^(٣) (وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ

خَيْرُ الرَّاحِمِينَ) .

والمقصود أنه على هذا القول ، يكون الله سبحانه قد سلم على المصطفين من عباده ،

والرسل أفضلهم . انتهى . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (أَمْنَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا

بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ، أَلَيْسَ

مَعَ اللَّهِ ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ)

(١) [١٠ / يونس / ١٠١] . (٢) [٢١ / الأنبياء / ١١٢] . (٣) [٢٣ / المؤمنون / ١١٨] .

[٦١] (أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ

وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ، أَعْلَاهُ مَعَ اللَّهِ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

[٦٢] (أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ

الْأَرْضِ ، أَعْلَاهُ مَعَ اللَّهِ ، قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ)

[٦٣] (أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ

يَدَيْ رَحْمَتِهِ ، أَعْلَاهُ مَعَ اللَّهِ ، تَعَلَّى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

« أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » إضراب وانتقال، من التبكيك تعريضاً، إلى التصريح

به خطاباً على وجه أظهر منه لمزيد التأكيد. أى: بل من خلق السموات والأرض، وأودع

فيهما من المنافع ما لا يحصى « وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ خِثَايَ ذَاتَ بَهْجَةٍ »

أى بساتين ذات حسن ورونق يبهج النظر « مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُدْبِتُوا شَجَرَهَا أَعْلَاهُ

مَعَ اللَّهِ » أى: أعله آخر كائن مع الله، الذى ذكر بعض أفعاله، التى لا يكاد يقدر عليها غيره،

حتى يتوهم جعله شريكاً له تعالى فى العبادة؟ وهذا تبكيك لهم بنفى الألوهية عما يشركونه به تعالى،

فى ضمن النفي الكلى على الطريقة البرهانية، بعد تبكيكهم بنفى الخيرية عنه بما ذكر من التردد.

قاله أبو السعود « بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ » أى عن طريق الحق . أو به تعالى غيره . « أَمَّنْ

جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا » أى قارة لا تنكفي بمن عليها. أو مستقراً لمن عليها، يتمتعون بمنافعها

« وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا » أى برزخاً

مانعاً من المازجة « أَعْلَاهُ مَعَ اللَّهِ » أى فى الوجود، أو فى إبداع هذه البدائع « بَلْ أَكْثَرُهُمْ

لَا يَعْلَمُونَ » أى شيئاً من الأشياء. ولذلك لا يفهمون بطلان ما هم عليه من الشرك، مع كمال

ظهوره « أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ » وهو الذى أحوجه مرض أو فقر أو نازلة من نوازل

الدهر ، إلى اللجأ والتضرع إلى الله تعالى . اسم مفعول من (الاضطرار) الذى هو افتعال من

(الضرورة) وهي الحالة المحوجة إلى اللجأ أى الالتجاء والاستناد .

قال ابن كثير : يذنبه تعالى أنه المدعو عند الشدائد ، الموجود عند النوازل ، كما قال تعالى (١) « وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَآهُ » وقال تعالى (٢) « ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْرُّونَ » وهكذا قال ههنا (أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ) أى من هو الذى لا يلجأ المضطر إلا إليه ، والذى لا يكشف ضر المضرورين سواه ؟

وقال ابن القيم فى (الجواب الكافى) : إذا اجتمع مع الدعاء حضور القلب وجمعيته بكليته على المطلوب ، وصادف انكساراً بين يدى الرب وذلاله وتضرعاً ورقة ، ثم توسل إليه تعالى بأسمائه وصفاته وتوحيده ، فإن هذا الدعاء لا يكاد يردّ أبداً . ولا سيما إن صادف الأدعية المأثورة عن النبي ﷺ ، أنها مظنة الإجابة ، أو أنها متضمنة للاسم الأعظم . ثم ساقها ابن القيم مسفدة .

ثم قال : وكثيراً ما مجده أدعية دعا بها قوم فاستجيب لهم . فيكون قد اقترن بالدعاء ضرورة صاحبه وإقباله على الله . أو حسنة تقدمت منه ، جعل الله سبحانه إجابة دعوته شكراً لحسنته . أو صادف الدعاء وقت إجابة ، ونحو ذلك ، فأجبت دعوته . فيظن الظان أن السر فى لفظ ذلك الدعاء ، فيأخذه مجرداً عن تلك الأمور التى قارنته من ذلك الداعى . وهذا كما إذا استعمل رجل دواء نافعاً ، فى الوقت الذى ينبغى ، على الوجه الذى ينبغى . فانتفع به . فظن غيره أن استعمال هذا الدواء بمجردة ، كافى فى حصول المطلوب ، كان غلطاً . وهذا موضع يغلط فيه كثير من الناس . ومن هذا قد يتفق دعاؤه باضطرار عند قبر فيجاب . فيظن الجاهل أن السر للقبر ولم يعلم أن السر للاضطرار وصدق اللجأ إلى الله . فإذا حصل ذلك فى بيت من بيوت الله ، كان أفضل وأحب إلى الله . انتهى .

وقوله تعالى (١) « وَيَكْشِفُ السُّوءَ » أى كل ما يسوءه مما يضطر فيه وغيره « وَيَجْعَلْكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ » أى خلفاء فيها . وذلك توارثهم سكنائها ، والتصرف فيها قرناً بعد قرن .

(١) [١٧ / الإسراء / ٦٧] . (٢) [١٦ / النحل / ٥٣] .

أو أراد بالخلافة الملك والتسلط . قاله الزمخشري « أءَلَهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا نَدَّ كَرُونَ * أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ » أي بالنجوم في السماء ، والعلامات في الأرض ، إذا جن الليل عليكم مسافرين في البر والبحر « وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيحَ بِشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ » وهي المطر « أءَلَهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (أَمَّنْ يَبْدُوْا أَلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيْدُهُوْ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ ،

أءَلَهُ مَعَ اللَّهِ ، قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

[٦٥] (قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ

أَيَّانَ يُبْعَثُونَ)

« أَمَّنْ يَبْدُوْا أَلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيْدُهُوْ » أي بعد الموت بالبعث . فإن قيل : هم منكرون

للإعادة ، فكيف خوطبوا بها خطاب المعترف؟ أجيب بأنها لظهورها ووضوح براهينها ، جعلوا

كأنهم معترفون بها ، لتسكنهم من معرفتها - فلم يبق لهم عذر في الإنكار . فلاحاجة إلى القول

بأن منهم من اعترف بها ، فالكلام بالنسبة إليه « وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ »

أي مما ينزله من مائها وما يخرجها من نباتها « أءَلَهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ

كُنْتُمْ صَادِقِينَ » أمر له عليه الصلاة والسلام بتبكيتهم إثر تبكيت . أي هاتوا برهاناً عقلياً

أو تقليماً ، يدل على أن معه تعالى إلهاً . لا على أن غيره تعالى يقدر على شيء مما ذكر من أفعاله تعالى ، فإنهم

لا يدعون صريحاً . وفي إضافة (البرهان) إلى ضميرهم ، تهكم بهم . لما فيها من إيهام أن لهم

برهاناً . وأنى لهم ذلك؟ قاله أبو السعود « قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ »

أي فإنه المفرد بذلك وحده ، كما قال ^(١) (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ) في آيات

(١) [٦ / الأنعام / ٥٩] .

لا تحصى . والاستثناء منقطع ، لاستحالة أن يكون تعالى ممن في السماء والأرض . أو متصل ، على أن المراد ممن في السموات والأرض ، من تعلق علمه بها واطلع عليها اطلاع الحاضر فيها مجازا مرسلًا أو استعارة . فإنه يعيّم الله تعالى وأولى العلم من خلقه « وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ » أي متى ينشرون .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (بَلِ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ، بَلِ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ، بَلِ هُمْ مِّنْهَا عَمُونَ)
 « بَلِ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ » قال السمين : فيه وجهان : أحدهما - أن (في) على بابها ، و (أدرك) وإن كان ماضيا لفظا ، فهو مستقبل معنى . لأنه كائن قطعاً . كقوله^(١) « أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ » .

وعلى هذا (في) متعلق بـ (أدرك) .

والثاني - أن (في) بمعنى الباء . أي بالآخرة .

وعلى هذا فيتعلق بنفس علمهم . كقولك (علمي يزيد كذا) انتهى .

والوجه الثاني على الاستفهام . أي بل هل أدرك علمهم فيها ، أي بلغ وانتهى ؟ كلا .

وقد قرىء (بل أدرك) بهمزتين و (بل آدرك) بألف بينهما و (أم أدرك) و (أم تدارك)

قال الرازي : وهي (أم) التي بمعنى (بل) والهمزة . فالعنى على الاستفهام على وجه

الإنكار لإدراك علمهم بها ، وأنهم لم يبرحوا في حضيض الجهالة بحقيقتها ، مع ما يتلى عليهم من أدلة ثبوتها .

وقد جنح إلى الكلام على تقدير الاستفهام ، السيوطي والمهايمي . وذهب غيرها إلى

إبقاء (بل) على أصلها من الإضراب الانتقالي . وقرروه بما فيه خفاء ودقة . ويبيده ما ذكرنا

(١) [١٦ / النحل / ١] .

من القراءات الصريحة في الاستفهام. وهي مما يرجع إليها إذا اشتبه المقام. كما تقرر في قواعد التفسير « بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا » أى مرية ، مع تقرير ما يزيله ويكشف غشاوته « بَلْ هُمْ مِّنْهَا عَمُونَ » أى فى عمائة وجهل كبير .

قال الزمخشريّ : فإن قلت : هذه الإضرابات الثلاثة ما معناها ؟ قلت : ما هى إلا تنزيل لأحوالهم : وَصَفَهُمْ أَوْلًا بِأَنَّهُمْ لَا يَشْعُرُونَ وَقَتِ الْبَعْثِ . ثم بأنهم لا يعلمون أن القيامة كائنة . ثم بأنهم يخبطون فى شك ومرية ، فلا يزيلونه . والإزالة مستطاعة . ألا ترى أن من لم يسمع اختلاف المذاهب وتضليل أربابها بعضهم لبعض ، كان أمره أهون ممن سمع بها وهو جائم ، لا يشخص به طلب التمييز بين الحق والباطل ؟ ثم بما هو أسوأ حالا ، وهو العمى وأن يكون مثل البهيمة قد عكف همه على بطنه وفرجه ، لا يُخَطِرُ بِيَالِهِ حَقًّا وَلَا بَاطِلًا وَلَا يَفْكَرُ فِي عَاقِبَةٍ . وقد جعل الآخرة مبدأ عمائم ومنشأه . فلذلك عداه (من) دون (عن) لأن الكفر بالعاقبة والجزاء ، هو الذى جعلهم كالبهائم لا يتدبرون ولا يتبصرون . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءِآبَاؤُنَا أَنِنَّا لَمُخْرَجُونَ)

[٦٨] (لَقَدْ وَعِدْنَا هَذَا لَكُمْ وَإِذْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ لَمُخْرَجُونَ)

[٦٩] (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ)

[٧٠] (وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ)

« وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا » أى بوعد الله وآياته وعلمه وقدرته وحكمته « أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءِآبَاؤُنَا أَنِنَّا لَمُخْرَجُونَ » أى من القبور « لَقَدْ وَعِدْنَا هَذَا لَكُمْ وَإِذْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ لَمُخْرَجُونَ » أى أحاديثهم وأكاذيبهم التى سطورها بمباراة مموهة « قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ » أى لتبصروا آثار القائلين هذا القول قبلكم « فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ

عَقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ » بإنكاره . وهى دمارهم وهلاكهم بالاستئصال « وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ » أى على قولهم وتكذيبهم . فإنه سيكون لك من المصدقين من لا يبالي معهم بهؤلاء ، كقوله تعالى (١) (فَلَمَّا كَبَخِعْ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا) « وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ » أى فى حرج صدر من مكروهم وكيدهم لك . ولا تبال بذلك ، فإن الله يعصمك من الناس .

القول فى تأويل قوله تعالى :

- [٧١] (وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)
- [٧٢] (قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ)
- [٧٣] (وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ)
- [٧٤] (وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تَكْنُ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ)
- [٧٥] (وَمَا مِنْ غَابِيَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ)
- [٧٦] (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَاقُصُّ عَلَىٰ ابْنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)
- « وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ » أى بالعذاب « إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ » أى لحقكم أودنا لكم « بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ » أى من العذاب ، فصل لهم القتل بيدى . ولعذاب الآخرة أمر . قال الزمخشري : (وعسى) و(لعل) و(سوف) فى وعد الملوك ووعدهم ، يدل على صدق الأمر وجدّه ، وما لا مجال للشك بعده . وإنما يعنون بذلك إظهار وقارهم ، وأنهم لا يمجولون بالانتقام ، لإدلالهم بقهرهم وغلبيتهم ، ووثوقهم أن عدوهم لا يفوتهم ، وأن الرزمة إلى الأغراض كافية من جهتهم . فعلى ذلك جرى وعد الله ووعيده . انتهى . أى لأن حقيقة الترجى محال فى حقه تعالى . فهو على هذا استعارة تمثيلية . قاله

(١) [١٨ / الكهف / ٦] .

الشهاب « وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ » أى لذو إفضال وإنعام عليهم ، بتأخير العقوبة وعدم معاجلتهم بها . ولكن أكثرهم لا يعرفون حق النعمة فيه فلا يشكرونه ، بل بجهلهم يستعجلونها « وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ » أى من عداوة رسوله ونصب المكائد له . وهو معاقبهم على ذلك « وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » أى وما من خافية فيهما ، إلا وقد علمها الله وأحاط بها وأثبتها في اللوح البين ، المثبت فيه مقدوراته تعالى . أو المراد بالكتاب القضاء العدل ، على طريق الاستعارة ، بتشبيهه بالكتاب الجامع للوقائع ، كالسجل « إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أَنْ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » أى فهو مصدق لما بين يديه ، ومهيمن عليه . يقص القصص الحق ، ويفصل بين ما اختلفوا فيه بالصدق . فالعول من أنبياءهم عليه ، ومرد ما اختلفوا فيه إليه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ)

[٧٨] (إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ)

[٧٩] (فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، إِنَّكَ عَلَىٰ الْحَقِّ الْمُبِينِ)

[٨٠] (إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تَسْمِعُ الضُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ)

[٨١] (وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَىٰ عَن ضَلَالَتِهِمْ ، إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ

بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ)

« وَإِنَّهُ وَ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ » أى بما فيه من إقامة الدلائل ورفع الشبه التي يعقلها

المؤمنون المنصفون المصدقون بالحق ، المذعنون له « إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ » أى

بين من آمن بالقرآن ومن كفر به ، بعدله وحكمته « وَهُوَ الْعَزِيزُ » أى فلا يرد قضاؤه الغالب

في انتقامه من المبطلين « أَلْعَلِمِمْ » أى بالفصل بينهم وبين المحقّين . ثم أمره تعالى بقلة المبالاة بأعدائه، وبالضىّ في دعوته وانتظار الوعد الحق، بقوله « فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ » أى الأبلج الذى لا ريب فيه . قال الزمخشريّ : وفيه بيان أن صاحب الحق حقيق بالوثوق بصنع الله وبنصرته، وأن مثله لا يخذل. ثم أشار تعالى إلى كفاية نفع دعوته للمؤمنين، الذين هم أولياؤه وحزبه، وإلى أن السكل لا يرجى منهم الهداية، كآية (١) (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ) تسليمة عما كان يهمله من إيمانهم، بقوله سبحانه « إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الْأَصْمَّ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ * وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَّاتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ » قال الزمخشريّ : شبّهوا بالموتى وهم أحياء صحاح الحواس ، لأنهم إذا سمعوا ما يتلى عليهم من آيات الله فكانوا أقباع القول ، لا تميّه آذانهم . وكان سماعهم كلا سماع . كانت حالهم ، لانتفاء جدوى السماع ، كحال الموتى الذين فقدوا مصحح السماع، وكذلك تشبيهم بالصم الذين ينعق بهم فلا يسمعون. وشبهوا بالعمى حيث يضلون الطريق ولا يقدر أحد أن ينزع ذلك عنهم ، وأن يجعلهم هداة بصراء، إلا الله عز وجل . فإن قلت: ما معنى قوله (إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ)؟ قلت : هو تأكيد لحال الأصمّ . لأنه إذا تباعد عن الداعي ، بأن يولّى عنه مدبرا ، كان أبعد عن إدراك صوته . انتهى .

وإيراد قوله (وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَّاتِهِمْ) إثر ما تقدم ، للمبالغة في نفي الهداية . وقوله تعالى (إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا) أى ما تسمع سماعا يجدى السامع نفعا ، إلا من شأنه الإيمان بها . وقوله (فَهُمْ مُسْلِمُونَ) تعليل لإيمانهم بها . كأنه قيل : فإنهم مفقادون للحق . وقيل : معناه مخلصون ، من قوله (بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ) يعنى جملة سالما لله خالصا له .

(١) [١٢ / يوسف / ١٠٣] . (٢) [٢ / البقرة / ١١٢] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ
أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ)

« وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ
كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ » اعلم أن في هذا الوعيد وجوها من التأويل :
الأول - أنه دنيوي ، عني به نصر الرسول صلوات الله عليه ، عليهم . والمعنى أن أولئك
الصم عن سماع الآيات ، العمى عن النظر فيها ، الجاحدين لها ، سيأتهم أبناء حقيقة ما كانوا
يدعون إليه من نصر الداعي وهو الرسول وأتباعه ، وتكثير سوادهم حتى يظفروا بمناوئهم .
ويظفروا على عدوهم . وذلك بأن تدب إليهم من المؤمنين دابة عظيمة تملأ السهل والربى ،
تزلزل أركانهم وتهدم بنيانهم وتقوض خيامهم وتدك أعلامهم . فتكلمهم حينئذ بلسان الحال
أو المقال ، بأنهم إنما أخذوا بالعقاب ، وحل بهم شديد العذاب لضلالهم وإضلالهم العباد .
وسعيهم في الأرض الفساد . فإن الإيمان دعامة الصلاح والإصلاح . وقائد الفلاح والنجاح ،
وقد سبقت كلمته لعباده المرسلين إنهم لهم المنصورون ، وإن جنده لهم الغالبون . وقد صدق
الله وعده . وأعز جنده .

والوجه الثاني - أن الدابة حيوان بخلاف ما نعرفه . يختص خروجها بحين القيامة ، قال
بعضهم : والمعنى إذا قامت القيامة بعث الله نوعا مخصوصا من دواب هذه الأرض ، كما يبعث
غيره من أنواع الدواب الأخرى . وينطقه فيوخر الإنسان على كفره ، كما ينطق أعضاءه في
ذلك اليوم أيضا . قال : فليس المراد من قوله (دَابَّةً) الفرد ، بل النوع . كما في قولك (أرسل
الله عليهم دودة أتلقت زرعهم) أى ديدانا كثيرة ، من نوع واحد مخصوص . ١ هـ .

وقد روى فيها أحاديث وآثار كثيرة ، لم يصحح البخاري منها شيئا ، لاضطراب متونها

وضعف رجالها . وأمثل مآثرها ما أخرجه مسلم^(١) عن عبد الله بن عمرو مرفوعا (إن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة على الناس ضحى . وأيهما ما كانت قبل صاحبها ، فالأخرى على إثرها قريبا) .

ومعلوم أن أمور الآخرة من عالم الغيب . ولا يؤخذ فيها إلا بما كان قطعى الثبوت .

الوجه الثالث - نقله الرابع في مفرداته قال : وقيل عنى بالدابة الأشرار الذين هم في الجهل بمنزلة الدواب . فتكون الدابة جمعا ، اسما لكل ما يدب . نحو (خائنة) جمع خائن . انتهى .
ولعل الآية كقوله تعالى^(٢) (حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ * وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُؤْيَلْنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ) فإن يأجوج ومأجوج كالدابة ، لما يغطي بديبه وجه الأرض - فهو مثل في الكثرة . والله أعلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ)

[٨٤] (حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ قَالَ أَلَيْسَ لِي بِآيَاتٍ وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمْ آذًا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

« وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ » أى يحبس أولهم على آخرهم ، حتى يجتمعوا فيكذبوا في النار . وهذه عبارة عن كثرة العدد وتباعد أطرافه . كما وصفت جنود سليمان بذلك . وكذلك قوله (فَوْجًا) ، فإن الفوج الجماعة الكثيرة . أفاده الزمخشري « حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ » أى إلى المحشر « قَالَ » أى ليفضحهم في هذا اليوم المشهود

(١) أخرجه مسلم في : ٥٢ - كتاب الفتن وأشراف الساعة ، حديث رقم ١١٨ (طبعتنا)

(٢) [٢١ / الأنبياء / ٩٦ و ٩٧] .

« أَكْذَبْتُمْ بِآيَاتِي » أى الناطقة بلقاء يومكم هذا وقوله « وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا » جملة حالية مفيدة لزيادة شناعة التكذيب وغاية قبحة . ومؤكدة للإنكار والتوبيخ . أى أ كذبتم بها بادئ الرأي ، غير ناظرين فيها نظراً يؤدي إلى العلم بكنهها ، وأنها حقيقة بالتصديق حتماً؟ وهذا نص فى أن المراد بالآيات ، فيما ساف فى الموضوعين ، هى الآيات القرآنية . لأنها هى المنطوية على دلائل الصحة ، وشواهد الصدق التى لم يحيطوا بها علماً ، مع وجوب أن يتأملوا ويتدبروا فيها . لانفس الساعة وما فيها . أفاده أبو السعود «أَمَّا إِذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» أى بها . أو ماذا كان عملكم؟ هل هو إلا الفساد والإفساد؟ وصد السبيل عن العباد؟ ولذا حقت كلمة العذاب عليهم ، كما قال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ)

[٨٦] (الْمَ يَرَوْنَ أَنَّا جَعَلْنَا آلَ الْيَمَلِ لَيْسُ كُنُوزًا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ، إِنَّ فِي ذَلِكَ

لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

[٨٧] (وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ

إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَكُلُّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ)

[٨٨] (وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ، صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي

أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ، إِنَّهُ خَيْرُ مَا تَفْعَلُونَ)

[٨٩] (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُمْ مِّنْ فَزَعِ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ)

« وَوَقَعَ الْقَوْلُ » أى مدلوله وهو العقاب الموعودون به « عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ

لَا يَنْطِقُونَ * أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلَ الْيَمَلِ لَيْسُ كُنُوزًا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا » أى ليصروا ، بما

فيه من الإضاءة ، طرق التقاب فى أمور الماش « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * وَيَوْمَ

يُنْفِخُ فِي الصُّورِ فَنَزَعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوْهُ»
 أى حضر والموقف بين يديه «دَاخِرِينَ» أى صاغرين «وَتَرَى الْجِبَالَ» عطف على (ينفخ)
 داخل فى حكم التذكير «تَحْسَبُهَا جَامِدَةً» أى ثابتة فى أماكنها «وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ»
 أى فى تخلل أجزائها وانتفاشها . كما فى قوله تعالى^(١) (وَتَسْكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ)
 «صُنِعَ اللَّهُ لِدَىٰ أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ» ، إِنَّهُ وَخَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ» أى فيجازيهم عليه .

تنبيه :

ما ذكرناه فى تفسير هذه الآية هو ما ذهب إليه كثير . قالوا : المراد بهذه الآية تسيير
 الجبال الذى يحصل يوم القيامة ، حينما يبمد الله تعالى العوالم ، كما قال^(٢) (وَسِيرَتِ الْجِبَالُ
 فَكَانَتْ سَرَابًا) وكما قال^(٣) (وَإِذَا الْجِبَالُ سُفِّتْ) وقال^(٤) (وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ
 الْمَنْفُوشِ) .

وقال بعض علماء الفلك : لا يمكن أن يكون المراد بهذه الآية ما قالوه ، لعدة وجوه :
 الأول - أن قوله تعالى (وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً) لا يناسب مقام التحويل
 والتخويف إذا أريد بهما يحصل يوم القيامة . وكذلك قوله^(٥) (صُنِعَ اللَّهُ لِدَىٰ أَتَقَنَ كُلَّ
 شَيْءٍ) لا يناسب مقام الإهلاك والإبادة ، على أن محل هذه الآية على المستقبل ، مع أنها صريحة فى
 إرادة الحال ، شىء لا موجب له . وهو خلاف الظاهر منها .

الثانى - أن سير الجبال للفناء يوم القيامة ، يحصل عند خراب العالم وإهلاك جميع الخلائق
 وهذا شىء لا يراه أحد من البشر كما قال^(٦) (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ
 فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ) أى من الملائكة . فما معنى قوله^(٧) (إِذْ نَأَى الْجِبَالَ
 تَحْسَبُهَا جَامِدَةً) ؟

(١) [١٠١ / القارة / ٥] . (٢) [٧٨ / النبأ / ٢٠] . (٣) [٧٧ / الرسائل / ١٠] .

(٤) [١٠١ / القارة / ٥] . (٥) [٢٧ / النمل / ٨٨] . (٦) [٣٩ / الزمر / ٦٨] .

(٧) [٢٧ / النمل / ٨٨] .

الثالث - أن تسيير الجبال الذي يحصل يوم القيامة ، إذا رآه أحد شعر به . لأنه ما دام وضعها يتغير بالنسبة للإنسان ، فيحسّ بحركتها . وهذا يتنافى قوله تعالى (تَحْسَبُهَا جَامِدًا) أى ثابتة . أما في الدنيا فلا نشعر بحركتها ، لأننا نتحرك معها ولا يتغير وضعنا بالنسبة لها . وهذا بخلاف ما يحصل يوم القيامة . فإن الجبال تنفصل عن الأرض وتنسف نسفًا . وهذا شيء يراه كل واقف عندها .

الرابع - ورود هذه الآية في سياق الكلام على يوم القيامة ، لورود آية (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا) المذكورة قبلها في نفس هذا السياق، والمراد بهما ذكر شيء من دلائل قدرة الله تعالى ، المشاهدة آثارها في هذا العالم الآن من حركة الأرض وحوادث الليل والنهار، ليكون ذلك دليلاً على قدرته على البعث والنشور يوم القيامة فإن القادر على ضبط حركات هذه الأجرام العظيمة ، لا يصعب عليه أن يعيد الإنسان ، وأن يضبط حركاته وأعماله ويحصيها عليه . ولذلك ختم هذه الآية بقوله (إِنَّهُ وَخَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ) فذكر هذه الأشياء في هذا السياق ، هو كذكر الدليل مع الدلول ، أو الحججة مع الدعوى . وهى سنة القرآن الكريم . فإنك تجد الدلائل منبثة بين دعاويه دائماً ، حتى لا يحتاج الإنسان لدليل آخر خارج عنها . وذلك شيء مشاهد في القرآن من أوله إلى آخره . اه كلامه .
وقال العلامة المرجاني في مقدمة كتابه (وفية الأسلاف ، وتحية الأخلاف) في بحث علم الهيئة ، ما مثاله :

ويدل على حركة الأرض قوله تعالى (وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدًا وَهِيَ تَمُرُّ مَرًّا السَّحَابِ) الآية . فإنه خطاب لجناب الرسول ﷺ ، وإيدان الأمر له بالأصالة مع اشتراك غيره في هذه الرؤية . وحسبان جهود الجبال وثباتها على مكانها ، مع كونها متحركة في الواقع بحركة الأرض ، ودوام مرورها مرّ السحاب في سرعة السير والحركة . قال : وقوله (صُنِعَ اللَّهُ) من المصادر المؤكدة لنفسها . وهو مضمون الجملة السابقة . يعنى أن هذا المرور هو صنع الله .

كقوله تعالى^(١) (وَعَدَ اللَّهُ) ^(٢) (صِبْغَةَ اللَّهِ) ثم (الصنع) هو عمل الإنسان، بعد تدرب فيه وتروى وتجرى إجادة. ولا يسمى كل عمل صناعة، ولا كل عامل صانعاً، حتى يتمكن فيه ويتدرب وينسب إليه. وقوله (الَّذِي آتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ) كابرهان على إتقانه، والدليل على إحكام خلقته، وتسوية مروره على ما ينبغي. لأن إتقان كل شيء، يتناول إتقانه. فهو ثنائية للمراد وتكريره، كقوله تعالى^(٣) (وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) قال: وقد اشتملت هذه الآية على وجوه من التأكيد، وأنحاء من المبالغة. فمن ذلك تعبيره (بالصنع) الذي هو الفعل الجميل المتقن المشتمل على الحكمة. وإضافته إليه تعالى، تعظيماً له وتحقيقاً لإتقانه وحسن أعماله. ثم توصيفه سبحانه بإتقان كل شيء، ومن جملة هذا المرور. ثم إرادته بالجملة الاسمية الدالة على دوام هذه الحالة واستمرارها مدى الدهور. ثم التقييد بالحال، لتدل على أنها لا تنفك عنها دائماً. فإن قوله تعالى (وَهِيَ تَمْرُّ مَرًّا السَّحَابِ) حال من المفعول به، وهو الجبال. ومعمول لفعله الذي هو رؤيتها على تلك الحال.

فهذه الآية صريحة في دلالتها على حركة الأرض ومرور الجبال معها في هذه النشأة.

وليس يمكن حملها على أن ذلك يقع في النشأة الآخرة، أو عند قيام الساعة وفساد العالم وخروجه عن متعاهد النظام. وأن حساباتها جامدة لعدم تبين حركة كبار الأجرام إذا كانت في سمت واحد. فإن ذلك لا يلائم المقصود من التهويل على ذلك التقدير. على أن ذلك نقض وإهدام، وليس من صنع وإحكام. قال: والعجب من حذاق العلماء المفسرين، عدم تعرضهم لهذا المعنى، مع ظهوره واشتغال الكتب الحكيمة على قول بعض القدماء. مع أنه أولى وأحق من تنزيل احتمالات كتاب الله على القصص الواهية الإسرائيلية، على ماشحنوا بها كتبهم. وليس هذا بخارج عن قدرة الله تعالى، ولا بعيد عن حكمته، ولا القول به بمصادم للشريعة والعقيدة الحقة، بعد أن تعتقد أن كل شيء حادث بقدرة الله تعالى وإرادته وخلقته بالاختيار، كأثنا ما كان، وهو العليّ الكبير، وعلى ما يشاء قدير.

(١) [٤ / النساء / ١٢٢] . (٢) [٢ / البقرة / ١٣٨] (٣) [٣ / آل عمران / ٩٧]

واعلم أن هذه الآية وما قبلها من قوله تعالى (أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ) الآية ، اعتراض في تضاعيف مساقه من الآيات الدالة على أحوال الحشر وأحوال القيامة، كاعتراض توصية الإنسان بوالديه في تضاعيف قصة لقمان . ومثل ذلك ليس بعزير في القرآن .

وفأدته هنا، التنبيه على سرعة تقضى الآجال ومضى الآماد. والتهويل من هجوم ساعة الموت وقرب ورود وقت المعاد . فإن انقضاء الأزمان ، وتقضى الأوان ، إنما هو بالحركة اليومية المارة على هذه السرعة المنطبقة على أحوال الإنسان . وهذا المرور . وإن لم يكن مبصرا محسوسا ، نكن ما ينبعث منه تبدل الأحوال ، بما يطرأ من تعاقب الليل والنهار وغيره ، بمنزلة المحسوس المبصر^(١) (فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ) فيكون هذا معجزة للنبي ﷺ ، مخصوصة به ، إذ لم يخبر به غيره من الأنبياء .

فليس بممكن حمل الآية على تسمير الجبال الواقع عند قيام الساعة ووفاء النشأة الآخرة . إذ ليس هو من (الصنع) في شيء . بل هو إفساد أحوال الكائنات ، وإخلال نظام العالم ، وإهلاك بني آدم . اه . كلام المرجاني .

«مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ وَخَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِّنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ» أي لا يعترهم ذلك الفزع الهائل . وقرئ (فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ) بالإضافة وكسر الميم وفتحها . وفزع منوناً وفتح الميم ، على أنه ظرف (لآمنون) أو المحذوف هو صفة للفزع . والتنوين في (يومئذ) عوض عن جملة محذوفة ، أي يوم إذ جاءوا بالحسنة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (وَمَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَكَبَتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

[٩١] (إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ

وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

(١) [٥٩ / الحشر / ٢] .

[٩٢] (وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ ، فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ)

[٩٣] (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِيكُمْ ءَايَتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ، وَمَا رَبُّكَ بِمَفْعِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)
 « وَمَنْ جَاءَ بِالسَّبِيحَةِ فَكُتِبَتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ »
 أى من الشرك والمعاصى « إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ » أى مكة « الَّذِي حَرَّمَهَا » أى جعلها محرماً آمناً لا يسفك فيها دم ، ولا يظلم فيها أحد ولا يصاد صيدها ولا يحتل خلاها . وفيه تعريض بجدد نعمته تعالى فى ذلك ، حيث آمنهم من خوف ، وأجلهم فى أعين القبائل ، ووقاهم من الفتن المنتشرة عند غيرهم ، إجلالاً لهذا البيت . وهم لم يرعوا هذه النعمة بالقيام بواجب شكرها ، من عبادته تعالى وحده ، وسعيهم بالإصلاح « وَلَهُ وَكُلُّ شَيْءٍ » أى خلقا وملكا . فهو خالق كل شىء ومليكه « وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ » أى ممن أسلم وجهه لله ، لانهيه « وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ » أى عليكم ، تلاوة الدعوة إلى الإيمان به ، لما اشتمل عليه من سعادة الدارين « فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ » أى من اتبع ما فيه من توحيد الله ، ونفى الأنداد عنه ، والدخول فى الملة الحنيفة ، واتباع ما أنزل على من الوحي ، فنفعه اهتدائه راجعة إليه ، لإلى « وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ » أى ومن ضل عن الإيمان وأخطأ بزئنه طريق الهدى ، ولم يتبعنى ، فلا على . وما أنا إلا رسول منذر ، وما على الرسول إلا البلاغ المبين « وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ » أى على ما هدانا لهذا الدين ، ومن علينا بصراطه المستقيم « سِيرِيكُمْ ءَايَتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا » كقوله تعالى (١) سَرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ آتَيْنَاهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) وقوله (٢) (وَتَعَلَّمَنَّ نَبَأَهُ وَبَعْدَ حِينٍ) « وَمَا رَبُّكَ بِمَفْعِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » أى من الشرك والتكذيب ونصب السكايد . بل هو شهيد رقيب ، جل جلاله وعظم نواله ، ولا إله غيره .

(١) [٤١ / فصلت / ٥٣] . (٢) [٣٨ / ص ٨٨] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٨ - سُورَةُ الْقَصَصِ

سميت به لاشتغالها على قوله تعالى (١) (فَلَمَّا جَاءَهُ وَوَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) الدالة على أن من هرب من مكان الأعداء، إلى مكان الأنبياء اعتباراً بقصصهم الدالة على نجات الهاربين ، وهلاك الباقين بمكان الأعداء - أمن من الهلاك . وهذا أيضاً من أعظم مقاصد القرآن، مع اشتغالها على ما لا يشتمل عليه غيرها من أنباء موسى، أفاده المهايى .

والسورة مكية كلها . وقيل لإلّا من قوله تعالى (٢) (الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ) إلى قوله (الْجَاهِلِينَ) فقد أخرج الطبرانى عن ابن عباس أنها نزلت هي وآخر الحديد في أصحاب النجاشى الذين قدموا وشهدوا وقعة أُحد .
وقوله تعالى (٣) (إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ) الآية لما روى من نزولها بالجحفة حين الهجرة إلى المدينة . والله أعلم . وهي ثمان وثمانون آية ، بالاتفاق .

(١) [٢٨ / القصص / ٢٥] .

(٢) [٢٨ / القصص / ٥٢-٥٥] .

(٣) [٢٨ / القصص / ٨٥] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (طسّم)

[٢] (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ)

[٣] (تَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مَوْسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

[٤] (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ

يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ، إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)

«طسّم» تقدم الكلام على هذه الحروف غير مأمرة «تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * نَتْلُوا

عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مَوْسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» أي نقرأ عليك، بواسطة الروح الأمين ، تلاوة مانتمسبة بالحق . كما قال تعالى ^(١) (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ) ثم

استأنف ما يجري مجرى التفسير للمجمل الموعود ، بقوله «إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ»

أي تكبر وتجاوز الحد في الطغيان ، في أرض مصر «وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا» أي فرقاً وأصنافاً

في استخدامه وطاعته «يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ» وهم بنو إسرائيل «يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ

وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ» وذلك إماتة لرجلهم ، وتقليلاً لعددهم ، كيلا يكثروا فينازعه الملك

«إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ» أي المتمكنين في الإفساد وقهر العباد .

ثم أشار تعالى إلى فرجه الذي جعله لتلك الطائفة ، بقوله :

(١) [١٢ / يوسف / ٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أُمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ

الْوَارِثِينَ)

[٦] (وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ

مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)

[٧] (وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ، فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ

وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ، إِنَّا رَأَوْنَاهُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَاهُ مِنْ الْمُرْسَلِينَ)

[٨] (فَأَلْقَتْهُ وَّاءِلْ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ، إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ

وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ)

« وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ » أى نفضل « عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أُمَّةً »

أى يقتدى بهم فى الدين بعد أن كانوا أتباعا مسخرين « وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ » أى : ملك

عدوهم . كما قال تعالى^(١) (وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ) إلى قوله (يَمْرُسُونَ)

« وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ » أى بالتصرف فيما تصرف الملوك « وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ

وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ » أى من أولئك المستضعفين « مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ » أى من هلاكهم

وذهاب ملكهم ، جزاء إفسادهم وعدم إصلاحهم وطغيانهم « وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ » أى إر

ولادته فى تلك الشدة « أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ » أى من أولئك الدباحين الذين

بأيديهم الشفار المرهفة العاملة فى تلك الأنفس الزكية « فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ » أى فى البحر ،

وهو النيل « وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَأَوْنَاهُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَاهُ مِنْ الْمُرْسَلِينَ * فَأَلْقَتْهُ وَ

(١) [٧ / الأعراف / ١٣٧] .

ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا « أى فى هلاكهم على يديه .

قال أبو السعود : واللام لام العاقبة . أبرز مدخولها فى معرض العلة ، لالتقاطهم . تشبيهاله فى الترتب عليه ، بالغرض الحامل عليه « إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ » أى مجرمين فعاقبهم الله بأن ربى عدوهم ، ومن هو سبب هلاكهم ، على أيديهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ ، لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

[١٠] (وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أَمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ، إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

[١١] (وَقَالَتِ لِأَخْتِهِ قُصِيهِ ، فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنِ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

« وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ » أى لفرعون ، حين أخرجه من التابوت « قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ ، لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » أى بما سيكون « وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أَمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا » أى خاليا من العقل ، لما دهمها من فرط الجزع ، وأطار عقلها من الدهش ، لما بلغها وقوعه فى يد فرعون « إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ » أى بأمره وقصته ، وأنه ولدها « لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » أى لولا أن ألهمناها الصبر . شبه بربط الشيء المنفلت ليقتر ويطمئن . ومعنى (من المؤمنين) أى المصدقين بوعده الله . وهو قوله ^(١) (إِنَّا رَأَدُّوهُ إِلَيْكَ) .

قال الزمخشري : ويجوز ، وأصبح فؤادها فارغا من الهم ، حين سمعت أن فرعون عطف عليه وتبناه . إن كادت لتبدي بأنه ولدها ، لأنها لم تملك نفسها فرحا وسرورا بما سمعت . لولا أننا

(١) [٢٨ / القصص / ٧] .

طامنا قلبها وسكنا قلقة الذي حدث به من شدة الفرح والابتهاج ، لتكون من المؤمنين الواثقين بوعد الله ، لا بتبني فرعون وتعطفه « وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ » أي اتبعي أثره لتفالي خبره « فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنِ جُبِّ » بضم النون وسكونها . أي : عن بعد « وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » أي أنها تتعرف حاله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ)

[١٣] (فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَىٰ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

[١٤] (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ، وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

[١٥] (وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ، فَاسْتَنَفَّهٗ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ، قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ، إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ)

[١٦] (قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

[١٧] (قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَن أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ)

« وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ » أي من قبل قصصها أثره . و (المرضع) جمع مرضع

بضم الميم وكسر الضاد . وهي المرأة التي ترضع . وترك (التاء) لاختصاصه بالنساء . أو جمع (مرضع) بفتح الميم مصدر ميمي ، جمع لتعدد مواده . أو اسم موضع الرضاع ، وهو الثدي « فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ وَاصِحُونَ » أي في رضاعه وتربيته « فَرَدَّدَ نَهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا » أي برويته « وَلَا تَحْزَنْ » أي بفرقه « وَتَتَعَلَّمَ أَنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ » أي كمال قوته ، « وَأَسْتَوَىٰ » أي اعتدل مزاجه « ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ » أي في أعمالهم . ثم بين تعالى من نبئه عليه السلام ، ما تدرج به إلى ما قدر له من الرسالة ، بقوله سبحانه « وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ » أي مصر آتياً من قصر فرعون « عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا » قيل وقت القيولة . وقيل بين العشاءين « فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ » أي يتنازعان « هَذَا » أي أى الواحد « مِنْ شِيعَتَيْهِ » أي من يشايعه على دينه وهم بنو إسرائيل « وَهَذَا » أي الآخر « مِنْ عَدُوِّهِ » أي ممن خلفه في دينه وهم القبط « فَأَسْتَعْتَبَ » أي سأله الإغاثة « الَّذِي مِنْ شِيعَتَيْهِ » لكونه مظلوماً « عَلَىٰ الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ » لكونه ظالماً . وإغاثة المظلوم واجبة فوجبت إغاثته من جهتين « فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ » أي ضربه بجمع كفه « فَقَضَىٰ عَلَيْهِ » أي فقتله « قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ . إِنَّهُ وَعَدُوٌّ مُّبِينٌ » يشير إلى تأسفه على ما أفضى وكزه ، من قتله . وسماه ظالماً واستغفر منه بالنسبة إلى مقامه « قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي » أي بقتله « فَأَغْفِرْ لِي فَعَفَّرَ لَهُ » وإنه هو الغفور الرحيم * « قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ » يجوز أن يكون قسما جوابه مخدوف . أي أقسم بإنعامك على بالغفرة ، لأتوبن ولا أظاهر المجرمين . وأن يكون استعطافاً كأنه قال : رب ! اعصمني بحق ما أنعمت على من الغفرة . فلن أكون ، إن عصمتني ، ظهيراً للمجرمين . وأراد بمظاهرتهم ، إما صحبة فرعون وانتظامه في جملته وتكثير سواده ، وإما مظاهرة من أدت مظاهرتة إلى الجرم والإثم ، كمظاهرة الإسرائيليين المؤدية إلى القتل الذي لم يحل له . قاله الزمخشري .

قال الناصر : لقد تبرأ عليه السلام من عظيم . لأن ظهير المجرمين شريكهم فيما هم بصدده .

ويروى أنه يقال يوم القيامة : أين الظلمة وأعوان الظلمة ؟ فيؤتى بهم حتى يلاق لهم ليقية، أو يرى لهم قلماً ، فيجعلون في تابوت من حديد ويلقى بهم في النار .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِبًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اُسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ

يَسْتَصْرِخُهُ ، قَالَ لَهُ وَ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَعَوِيٌّ مُّبِينٌ)

[١٩] (فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ

أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا

فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ)

[٢٠] (وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَائِكَةَ آمَتُونَ

بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ)

[٢١] (فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِبًا يَتَرَقَّبُ ، قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

[٢٢] (وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ)

[٢٣] (وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ

دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ، قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ، قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصَدِرَ

الرِّعَاءَ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ)

« فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِبًا يَتَرَقَّبُ » أى الاستفادة أو الأجناد . « فَإِذَا الَّذِي

اُسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ » أى استعاناه فقتل من أجله منازعه القبطى « يَسْتَصْرِخُهُ » أى يستغيثه

من قبطى آخر « قَالَ لَهُ وَ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَعَوِيٌّ مُّبِينٌ » أى بمخاصمتك الناس مع عجزك ،

وجرت إليهم مالا محمد عقباه « فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا » أى لموسى وللإسرائيليين ، وهو القبطي « قَالَ » أى ذلك العدو وهو القبطي ، لا الإسرائيليين كما وهم « يَمُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسَكَ بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ » أى بين الناس بالقول والفعل .

قال الزخشرى: الجبار الذى يفعل ما يريد من الضرب والقتل بظلم ، لا يظفر فى العواقب ولا يدفع بالتي هى أحسن . « وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْمَى » أى يسرع لفرط حبه لموسى « قَالَ يَمُوسَى إِنَّ الْمَلَائِكَةَ يَأْتِمِرُونَ بِكَ » أى يتشاورون بسببك « لِيَقْتُلُوكَ فَأَخْرُجْ » أى من حدم ملكتهم « إِنَّ لِي لَكَ مِنَ النَّصِيحِينَ * فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ » أى لحوق الطالبين « قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَلَمَّا تَوَجَّهَ » أى جعل وجهه « تَلَقَّاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ » أى فلا يلحقنى فيه الطالبون « وَلَمَّا وُورِدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً » أى جماعة كثيفة « مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ » أى مواشيمهم « وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ أُمَّةً تَدُودًا » أى تمنعان مواشيمها عن الماء ، لوجود من هو أقوى منهما عنده ، فلا تتمكنان من السقى « قَالَ مَا خَطْبُكُمْ » أى ما شأنكم فى الذود « قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ » أى عادتنا أن لانسقى حتى يصرف الرعاة مواشيمهم عن الماء ، عجزاً عن مساجلتهم ، وحذراً من مخالطة الرجال « وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ » أى فيعجز عن الخروج والسقى . أى مالنا رجل يقوم بذلك إلا هو ، وقد أضعفه الكبر ، فاضطرنا الحال إلى ماترى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ)

[٢٥] (فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ

أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ، فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ،

نَجَّوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

« فَسَقَى لَهُمَا » أى فسقى غنمهما ، لأجلهما من غير أجر « ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ » أى الذى كان هناك ، من شدة الحر « فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ » أى محتاج . والخير أعم من المال أو القوة أو الطعام . وعلى الأخير حمله الأكثرون بمعونة المقام « فَجَاءَهُهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ، فَلَمَّا جَاءَهُ وَوَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ » أى أخبره بجميع ماجرى عليه إلى خروجه لما تأمر وابتقله « قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » أى بالخروج عن حد ولايتهم ، إذ لا سلطان لهم بأرضنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَجِرْهُ ، إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ)

[٢٧] (قَالَ إِنِّي أَرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي

تَمْثِنِي حِجَابٍ ، فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ ، وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَسْقَ

عَلَيْكَ ، سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ)

[٢٨] (قَالَ ذَلِكَ يَدْنِي وَيُدْنِيكَ ، أَيَّمَا الْأَجْلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ ،

وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ)

« قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَجِرْهُ » أى اجعله أجيرك ليرعى غنمك ، فإنه حقيق

بذلك « إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ » أى خير من أردت جعله أجيراً ، القوي

على العمل المؤتمن فيه .

قال الزمخشري : وقولها (إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ) كلام حكيم جامع

لا يزداد عليه . لأنه إذا اجتمعت هاتان الخصلتان ، أعنى الكفاية والأمانة فى القائم بأمرك ،

فقد فرغ بالك وتم مرادك. وقد استغنت بإرسال هذا الكلام الذى سياقه سياق المثل والحكمة، أن تقول : استأجره لقوته وأمانته . انتهى .

قال الناصر : وهو أيضاً أجمل في مدح النساء للرجال، من المدح الخاص . وأبقى للحشمة . وخصوصاً إن كانت فهمت أن غرض أبيها عليه السلام أن يزوجه منها . وما أحسن ما أخذ الفاروق رضى الله عنه هذا المعنى فقال : أشكو إلى الله ضعف الأمين وخيانة القوى . ففي مضمون الشكاية سؤال الله تعالى أن يتحفه بمن جمع الوصفين ، فكان قويا أميناً : يستعين به على ما كان بصدده رضى الله عنه . انتهى . « قَالَ إِنِّي أُرِيدُ » أى لقوتك وأمانتك ، ما يقوى المودة ويجذب القلوب « أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتِي هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَجَجٍ » أى على أن تكون أجبرى لرعى المواشى بأجرة على ابنتى ، هى مهرها عليك ، ثمانى سنين « فَإِنْ أْتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ » أى فهو من عندك بطريق التفضل « وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ » أى بإلزام أتم الأجلين وإجابه « سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ » أى فى حسن المعاملة ولين الجانب والوفاء بالمهد « قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ » أى ذلك الذى عاهدتنى عليه ، لا يخرج عنه جميعاً « أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ » أى أتممت « فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ » أى بطلب الزيادة على ثمان ، أو الخروج بالأهل قبل عشر « وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ » أى شاهد وحفيظ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (فَأَمَّا قِصَىٰ مُوسَىٰ الْأَجَلِ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ۖ إِنَّنَا نَسَخْنَا مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ، قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ)

[٣٠] (فَأَمَّا آتَاهَا نُودَىٰ مِنْ شَطِئِ الوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

[٣١] (وَأَنْ أَلْقَ عَصَاكَ ، فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ،
يَمُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ، إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِينَ)

« فَلَمَّا قَضَىٰ » أى أتم « مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ » أى سار من جانب الطور نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنستُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ « أى من الطريق ، من ضوءها ، أو ممن عندها « أَوْ جَدْوَةً » مثلثة الجيم ، وقد قرئ بها كلها ، أى عود فيه شئ « مِنْ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ » أى تستدفئون « فَلَمَّا آتَمَهَا » أى قرب منها « نُودِيَ مِنْ شَطِئِ » أى جانب « الْأَوَادِ الْأَيْمَنِ » أى المبارك. يقال: يمين فهو ميمون وأيمن. وتفسيره بخلاف الأيسر بعيد. لأن ألفاظ التنزيل وآيه يفسر بعضها بعضاً . وقد جاء في غير آية توصيف الوادى بالمقدس ، وبقعته بالمباركة ، والمعنى واحد. وإن أدهش التفنن في التعبير عنه ببديع تلك المبانى « فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ » أى التى بورك مكانها بالتجلى الإلهى « مِنْ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَأَنْ أَلْقَ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ » أى تتحرك « كَأَنَّهَا جَانٌّ » أى حية صغيرة ، فى سرعة الحركة « وَلَّى مُدْبِرًا » أى أعرض بوجهه عنها ، جاعلاً ظهره إليها « وَلَمْ يُعَقِّبْ » أى لم يرجع « يَمُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِينَ » أى من المخاوف. القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (أَسْأَلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بِيضًا مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمُ إِلَيْكَ
جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ، فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ
وَمَلَائِيهِ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِقِينَ)

[٣٣] (قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ)

[٣٤] (وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ،
إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ)

[٣٥] (قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ، بئَايٰتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغٰلِبُونَ)

« أَسْلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ » أى أدخلها فيه « تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ » أى عيب « وَأَضْمُمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ » أى يدك « مِنْ الرَّهْبِ » أى الخوف . قرئ بفتحين ، وضمين ، وفتح وسكون ، وضم وسكون . قال ابن أسلم وابن جرير: مما حصل لك من خوفك من الحية قال ابن كثير: والظاهر أن المراد أعم من هذا . وهو أنه أمر عليه السلام ، إذا خاف من شيء ، أن يضم إليه يده ، فإذا فعل ذلك ذهب عنه ما يجده من الخوف . وربما إذا استعمل أحد ذلك ، على سبيل الاقتداء ، فوضع يده على فؤاده ، فإنه يزول عنه ما يجد أو يخفّ إن شاء الله تعالى . وبه الثقة . « فَذٰنِكَ » إشارة إلى العصا واليد « بُرْهٰنًا مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَآئِهِ مَآ إِلَيْهِمْ كَانُوا قَوْمًا فَٰسِقِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ * وَأَخِي هٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا » أى فيكون أحسن بيانًا . ولا يتحمل ذلك ما لم يكلف بمثل ما كلفت به « فَأَرْسَلَهُ مَعِيَ رِدْءًا * أَيْ مَعِينًا * يُصَدِّقُنِي » أى لنشاط قلبي « إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ » أى يتفقوا على تكذيبى المؤدى إلى أنواع الأذيات .

قال الرمخشري: فإن قلت: تصديق أخيه، ما الفائدة فيه؟ قلت: ليس الغرض بتصديقه أن يقول له: صدقت، أو يقول للناس: صدق موسى، وإنما هو أن يلخص بلسانه الحق ويبسط القول فيه ويجادل به الكفار، كما يفعل الرجل المنطيق ذو العارضة. فذلك جار مجرى التصديق المفيد، كما يصدق القول بالبرهان . ألا ترى إلى قوله (وَأَخِي هٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلَهُ مَعِيَ) وفضل الفصاحة إنما يحتاج إليه لذلك . لاقوله صدقت . فإن سبحانه وبقا لا يستويان فيه . أو يصل جناح كلامه بالبيان حتى يصدقته الذى يخاف تكذيبه . فأسند التصديق إلى هرون لأنه السبب فيه ، إسناداً مجازياً . انتهى . « قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ » أى سنقويك به ونعينك .

قال الشهاب: والشد التقوية. والعضد من اليد معروف. فهو إما كناية تلويحية عن تقويته، لأن اليد تشد بشدة العضد، والجملة تشد بشدة اليد، ولا مانع من الحقيقة كما توهم. أو استعارة تمثيلية. شبه حال موسى في تقويته بأخيه عليهما السلام، بحال اليد في تقويتها بيد شديدة. « وَنَجْمَلُكُمْ سُلْطَنَا » أى غلبة ومهابة في قلوبهم أو حجة « فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمْ » أى بايذاء، فضلا عن القتل « بِأَيْتِنَا » متعلق بمحذوف أى اذهبوا بآياتنا. أو بـ (نجعل) أى نسلطكم بها أو بمعنى (لا يصلون) أى تمتنعون منهم بها. أو قسم جوابه (لا يصلون) مقدر. أو صلة لـ (الغالبون) فى قوله « أَنْتُمْ وَمَنْ اتَّبَعَكُمْ الْغَالِبُونَ » وتقدمه، إما للفاصلة أو للحصر. أى الغالبون عليهم، وإن غلبوكم وغلبوا العالمين قبلكم.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرَىٰ وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولَىٰ)

[٣٧] (وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ وَعَقِبَةُ الدَّارِ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)

[٣٨] (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَنِ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَلِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ)

«فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرَىٰ» أى مبتدع لم يسبق له نظير. أو تقريه على الله بنسبته له، وأنت تعلمته من غيرك. فالافتراء بمعنى الاختلاق أو الكذب « وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا » أى السحر أو ادعاء النبوة، أو بأن للعالم إلهًا يرسل الرسل

بالآيات « فِيءِ آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ » أى كائنًا فى أيامهم. قال الشهاب: وهذا إما تعمد للكذب وعناد بإنكار النبوات ، وإن كان عهد يوسف قريباً منهم. أولأنهم لم يؤمنوا به أيضاً « وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٰ أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ ۖ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ » قال المهايمى: معناه: كفى دليلاً على كونها آيات، أنها خوارق لم يسبق لها نظير. مع أن ما جئت به هدى. والساحر لا يدعو فى العموم إلى هدى. فإن لم تعترفوا بكونه هدى، فربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده، ويعلم ذلك بالعاقبة، فإن الله يحسن عاقبة أهل الهدى لا محالة. لأنه يعلم من تكون له عاقبة الدار. وهى العاقبة المحمودة. والمراد (الدار) الدنيا. وعاقبتها وعقبها: أن يحتم للعبد بالرحمة والرضوان. وتلقى الملائكة بالبشرى عند الموت. وهذه لا تكون للساحر إذا ادعى النبوة، لأنه ظالم فلا يفلح بالعاقبة الحميدة كما قال « إِنَّهُ وَ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ » أى بالدار وإن وجدوا بعض مقاصدهم أولاً استدرأجاً، فلا يفوزون بالعقبى الحميدة. وإنما غاية أمرهم انقطاع أثرهم وسوء ذكركم. وقد حقق الله هذا الوعد فجعل عاقبة قوم موسى رفيعة. ونهاية أعدائه وضيفة « وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي » هذا حكاية لتمرده وعموه وطغيانه فى تفوهه بتلك العظيمة. كما واجه موسى عليه السلام بها فى قوله (١) (لِيَنِ اتَّخَذَتْ لَهَا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ) وكما قال تعالى (٢) عنه (فَحَشَرَ فَنَادَى * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى * فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَسْكَالًا لِآخِرَةٍ وَالْأُولَى * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى) يعنى أنه جمع قومه ونادى فيهم معلناً بذلك. فانتقم منه بما جعله عبرة لمن اعتبر « فَأَوْقَدْ لِي يَهْمَنُ عَلَى الطِّينِ » أى ناراً، فأتخذ منه آجراً.

قال الزمخشري: ولم يقل (اطبخ لى الآجر) وأتخذ) لأن هذه العبارة أحسن طباقاً لفصاحة القرآن وعلو طبقتة، وأشبهه بكلام الجبارة. وهامان وزيره ومدبر رعيته « فَأَجْعَل لِّي » أى من الآجر « صرْحاً » أى قصرأ رفيعاً إلى السماء « لَعَلِّي أَطْلِعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَى »

(١) [٢٦ / الشعراء / ٢٩] . (٢) [٧٩ / النازعات / ٢٣ و ٢٦] .

يعنى العلى الأعلى ، تبارك وتعالى « وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ وَمِنَ الْكَاذِبِينَ » أى فى دعواه الألوهية ، والعلو لبارى الأرض والسماوات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (وَأَسْتَكْبِرُ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ)

[٤٠] (فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ، فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)

[٤١] (وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ)

[٤٢] (وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ)

[٤٣] (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى

بِصَارٍ لِلنَّاسِ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

« وَأَسْتَكْبِرَ هُوَ » أى بدعوى الألوهية لنفسه ، ونفيها عن الله تعالى ، وقصد الاطلاع إلى الله سبحانه ، وادعاء العلم الكلى لنفسه مع جهله بربه « وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ » أى بل بالفساد ورد الحق ، والصدع سبيل الله « وَظَنُوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ » بضم الياء وفتحها قراءتان « فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ » فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ * وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً « أى يلعنهم كل مؤمن بسمعهم « وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ » أى من الطرودين ، المبعدين « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بِصَارٍ لِلنَّاسِ » أى أنواراً للقلوب « وَهَدَىٰ » أى إلى الاعتقادات الصحيحة ودلائلها « وَرَحْمَةً » أى بالإرشاد إلى العمل الصالح « لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » أى فيتمظنون به ويهتدون بسببه .

ثم أشار تعالى إلى كون التنزيل وحيامن علام الغيوب، ببيان أنه مافصل من هذه الأنبياء لا يتسنى إلا بالمشاهدة أو التعلم، وكلاهما معلوم الانتفاء، فتحقق صدق الإيحاء. وذلك قوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ)

[٤٥] (وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ، وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًّا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ)

[٤٦] (وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

« وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ » أى الوادى الغربى الذى كوشف فيه موسى عن النجاة
 « إِذْ قَضَيْنَا » أى قدرنا وأمهينا « إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ » أى أمر الإرسال والإنباء « وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ * » وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا « أى بين زمانك وزمان موسى « فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ »
 أى أمد انقطاع الوحي، واندرست معالم الهدى، وعم الضلال والبغى والردى، فاقتضت رحمتنا إرسالك لنخرجهم من الظلمات إلى النور « وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًّا » أى مقياً « فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ » أى لك، وموحيين إليك تلك الآيات. أى ما كان الإنباء بها إلا وحياً مصدره الرسالة « وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا » أى وقت ندائنا موسى « وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ » أى ولكن أرسلناك بالقرآن الناطق بما ذكره وبغيره، لرحمة عظيمة كائنة منك وللناس « لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ » أى من نذير فى زمان الفترة، بينك وبين عيسى « لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » أى يتعظون بإنذارك.

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمْتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا

أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

[٤٨] (فَلَمَّا جَاءَهُمْ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى ،

أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ ، قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا
إِنَّا بِكُلِّ كَافِرٍ مِنْكُمْ

«وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ» أي عقوبة «بِمَا قَدَّمْتْ أَيْدِيهِمْ» أي من الكفر والفساد «فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» أي بها. وجواب (لولا) الأولى محذوف، ثقة بدلالة الحال عليه. أي ما أرسلناك. لكن قولهم هذا عند عقوبتهم محقق. ولذا أرسلناك قطعاً لمعاذيرهم.

قال الزمخشري : ولما كانت أكثر الأعمال تراول بالأيدي ، جعل كل عمل معبراً عنه باجتراح الأيدي، وتقديم الأيدي، وإن كان من أعمال القلوب. وهذا من الاتساع في الكلام، وتصيير الأقل تابعاً للأكثر، وتغليب الأكثر على الأقل « فَلَمَّا جَاءَهُمْ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى » أي من قلب العصا حية، وخلق البحر، وغيرهما من الآيات. تعنتاً وعناداً، كما قالوا^(١) «لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ وَ مَلَكٌ» وما أشبه ذلك. وقوله « أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ » رد عليهم، وإظهار لسكون ما قالوه تعنتاً محضاً ، لاطلباً لما يرشدهم إلى الحق . أي أو لم يكفر أبناء جنسهم ، ومن مذهبهم مذهبهم ، وعنادهم عنادهم وهم القبط ، بما أوتي موسى من الكتاب « قَالُوا » أي في موسى وهرون عليهما السلام (ساحران) « تَظَاهَرَا » أي تعاونا. وقرئ « سِحْرَانِ » أي ذوا سحرين؛ أو جعلوها

(١) [١١ / هود / ١٢] .

سحرين مبالغة « وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرٍ وَّكَانَ » ثم أشار تعالى إلى أن الآية العظمى للنبي صلوات الله عليه ، هي الآيات النفسية العلمية ، لا الكونية الآفاقية التي كانت لغيره ، جرياً على سنة الارتقاء . فإن النوع الإنساني كان ، لما جاء الإسلام قد استعد إلى معرفة الحق من الباطل بالبرهان ، والتمييز بين الخير والشر بالدليل والحجة . وكان لا بد له في هذا الطور من معلم ومرشد ، كما في الأطوار الأخرى ، أرسل الله إليه رسولا يهديه إلى طرق النظر والاستدلال ، ويأمره بأن يرفض التقليد البحت والتسليم الأعمى . وأن لا يأخذ شيئاً إلا بدليل وبرهان ، يوصل إلى العلم . فكانت عمدته ﷺ في الاستدلال على نبوته ورسالته نفسه الكريمة ، وما جاء به من النور والهدى ، كالطبيب الذي يستدل على إتقانه صناعة الطب ، بما يديه من العلم والعمل الناجح فيها . وقد بسط هذا في مواضعه . وهذا معنى قوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (قُلْ قَاتُوا بِكِتَابِ مَنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

[٥٠] (فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ، وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ، إِنْ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

[٥١] (وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

[٥٢] (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ)

[٥٣] (وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ)

[٥٤] (أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)

[٥٥] (وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلِكُمْ سَلَّمْ عَلَيْكُمْ لَّا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ)

« قُلْ » أى لهؤلاء الجاحدين: قد مضى دور الخوارق التى تقترحونها، ونسخ تعالى من تلك الآيات بما أتى بغير منها ، وهو آية الهداية التى تصلح بها قلوب العالمين . والدكرى التى تزغ النفوس عن الشر ، وتحملها على الخير . بحيث يظهر أثرها الحسن فى المؤمنين ، ويحق الشقاء على الجاحدين المعاندين . فإن يك هذا سحراً ، ولديكم ما هو أهدى « فَاتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا » أى من التوراة والقرآن « أَتَّبِعُهُ » أى ولا أعاندكم مثل ما تماندونى « إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » أى فى أنهما سحران مختلفان . أو فى أنه يمكن الإتيان بما هو أهدى منهما .

قال أبو السعود: ومثل هذا الشرط مما يأتى به من يدل بوضوح حجته وسنوح محجته . لأن الإتيان بما هو أهدى من الكتابين ، أمر بين الاستحالة . فيوسع دائرة الكلام للتبكيك والإحجام . انتهى .
أى لالشك والتردد .

قال الشهاب : وهذا جواب عما يقال أن عدم إتيانهم به معلوم . وهذا كما يقول المدل : إن كنت صديقك القديم ، فعاملنى بالجهل . وكذا فى إيراد كلمة (إن) مع امتناع صدقهم ، نوع تهكم بهم « فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ » أى فلم يأتوا بذلك الكتاب ، ولم يتابعوا الكتابين « فَأَعْلَمَ أَنَّمَا يُدْعِيهِمْ أَنَّهُمْ » أى الزائفة من غير برهان « وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ أَتَّبَعَ هَوَاهُ بغير هدى مِنَ اللَّهِ » الاستفهام إنكارى للنفى . أى لأحد أضل منه . كيف لا؟ وهو أظلم الظلمة ، بتقديم هواه على هدى الله . كما قال تعالى « إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » أى الذين ظهروا أنفسهم بالانهماك فى اتباع الهوى ، والإعراض عن الآيات الهداية إلى الحق المبين .

قال الرازي: وهذا من أعظم الدلائل على فساد التقليد، وأنه لا بد من الحجة والاستدلال . انتهى « وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » أي أنزلنا عليهم القرآن متواصلاً ، بعضه إثر بعض ، وعداً ووعيداً ، وقصصاً وعبراً ، ومواعظ ، حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة . إرادة أن يتذكروا فيفلحوا . وقرئ (وَصَّلْنَا) بالتشديد والتخفيف « الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ » أي القرآن « هُمْ بِهِ يَتَذَكَّرُونَ » وهم مؤمنوا أهل الكتاب وأولياؤهم « وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ » أي القرآن « قَالُوا ءَأَمِنَّا بِهِ » أي إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله « أي من قبل نزوله « مُسْلِمِينَ » أي منقادين له ، لما عندنا من البشائر به . أو على دين الإسلام ، وهو إخلاص الوجه له تعالى بدون شرك « أُولَٰئِكَ » أي الموصوفون بما ذكر من النعوت « يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ » يعني مرة على إيمانهم بكتابهم ، ومرة على إيمانهم بالقرآن « بِمَا صَبَرُوا » أي بصبرهم وثباتهم على الإيمانين . أو على الإيمان بالقرآن قبل النزول وبعده . أو على أذى من نابذهم « وَيَذَرُونَ » أي يذفمون « بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ » أي بالحكمة الطيبة ، ما يسوؤهم « وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ » أي للبؤساء والفقراء ، وفي سبيل البر والخير ، فراراً عن وصمة الشح ، وتنبهاً لآفاته . « وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ » أي من الجهال . وهو كل ما حقه أن يلغى ويترك ، من العبث وغيره « أَعْرَضُوا عَنْهُ » أي تكريماً للنفس عن ملابسة الأذنياء ، وتشريفاً للسمع عن سقط باطلهم « وَقَالُوا » أي لهم « لَنَأَعْمَلُنَّ وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ » أي بطريق التوديع والتاركة ؛ وعن الحسن رضي الله عنه : كلمة حلم من المؤمنين « لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ » أي لا نزيد مخالطهم وصحبهم ، ولا نزيد مجازاتهم بالباطل على باطلهم . قال الرازي : قال قوم : نسخ ذلك بالأمس بالقتال . وهو بعيد . لأن ترك المسافهة مندوب . وإن كان القتال واجبا .

تنبیه :

قال ابن كثير عن سعيد بن جبیر : إنها نزلت في سبعين من القسيسين . بعضهم النجاشي .

فلما قدموا على النبي ﷺ قرأ عليهم^(١) (يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ) حتى ختمها . فاجعلوا
يكون وأسألوها .

وقال محمد بن إسحاق في (السيرة) : ثم قدم على رسول الله ﷺ وهو بمكة ، عشرون
رجلا أو قريب من ذلك من النصارى ، حين بلغهم خبره من الحبشة . فوجدوه في المسجد .
فجلسوا إليه وكلموه وسألوه . ورجال من قريش في أنديةهم . حول الكعبة . فلما فرغوا
من مساءلة رسول الله ﷺ عما أرادوا ، دعاهم إلى الله تعالى وتلا عليهم القرآن . فلما سمعوا القرآن
فاضت أعينهم من الدمع . ثم استجابوا لله وآمنوا به ، وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف
لهم في كتابهم من أمره . فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام في نفر من قريش .
فقالوا لهم : خيبتكم الله من ركب . بعثكم من وراءكم من أهل دينكم تراءدون لهم ، لتأتوهم
بخبز الرجل . فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه فيما قال . ما نعلم ركبا أحق
منكم . أو كما قالوا لهم . فقالوا لهم : سلام عليكم . لأنجاهلكم . لنا ما نحن عليه ، ولكم
ما أنتم عليه ، لم نأل أنفسنا خيرا .

قال : ويقال إن النفر النصارى من أهل نجران . فالله أعلم أي ذلك كان .
قال : ويقال ، والله أعلم ، إن فيهم زلت هذه الآيات (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ
هُمْ بِهِ يَوْمِنُونَ) إلى قوله (لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ) .

قال : وسألت الزهري عن هذه الآيات فيمن زلت؟ قال : ما زلت أسمع من علمائنا أنهم
زلن في النجاشي وأصحابه رضى الله عنهم . والآيات اللاتي في سورة المائدة^(٢) (ذَلِكَ بِأَنَّ
مِنْهُمْ قَسِيسِينَ وَرُهْبَانًا) إلى قوله^(٣) (فَأَكْتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ) .

(١) [٣٦ / يس / ٢١] . (٢) [٥ / المائدة / ٨٢] .

(٣) [٥ / المائدة / ٨٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ
أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)

[٥٧] (وَقَالُوا إِن تَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نَتَّخِطْفُ مِنْ أَرْضِنَا ، أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ
لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُحْبِبُوا إِلَيْهِ نَمُوتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

[٥٨] (وَكَم أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا ، فَتَلَّكَ مَسَاكِينُهُمْ
لَمْ تَسْكُنْ مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ، وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ)

« إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ » أى لاتقدر أن تدخل فى الإسلام كل من أحببت أن يدخل فيه من قومك وغيرهم « وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » أى أن يهديه فيدخله فى الإسلام بعنايته « وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ » أى القابلين للهداية . لاطلاعه على استعدادهم وكونهم غير مطبوع على قلوبهم .

تنبيه :

روى البخارى^(١) فى (صحیحہ) فى تفسير هذه الآية عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبى أمية ابن المغيرة . فقال : أى عم ! قل لا إله إلا الله ، كلمة أحاج لك بها عند الله . فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية : أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها

(١) أخرجه فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٢٨ - سورة القصص ، ١ - باب قوله إنك

لا تهدي من أحببت ، حديث ٧١٧

عليه ، ويعيدانه بتلك المقالة ، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم : على ملة عبد المطلب . وأبى أن يقول لا إله إلا الله .

قال فقال رسول الله ﷺ : والله ! لأستغفرنَّ لك ما لم أُنهَ عنك . فأُنزل اللهُ (١) (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ) وأنزل اللهُ في أبي طالب ، فقال لرسول الله ﷺ (٢) (إِنَّكَ لَا يَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) .

قال ابن كثير : وهكذا رواه مسلم (٣) في صحيحه والترمذي (٤) أيضا من حديث يزيد بن كيسان عن أبي حازم ، عن أبي هريرة . والإمام أحمد من حديثه أيضا . وهكذا قال ابن عباس وابن عمر ومجاهد والشعبي وقتادة : إنها نزلت في أبي طالب حين عرض عليه الإسلام . انتهى . وقال ابن حجر في (فتح الباري) : لم تختلف النقلة في أنها نزلت في أبي طالب . انتهى .

وقدمنا مرارا معنى قولهم نزلت الآية في كذا . فانظر المقدمة ، وغير موضع بعدها .

ثم ذكر تعالى من تمنعهم ، شبهة استروح بها الحرث بن عامر بن نوفل ، فيما رواه النسائي ، بقوله سبحانه « وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ » أي ونخالف العرب « نَتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا » أي مكة . فرد عليهم تعالى بقوله « أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا » أي : ألم نعصمهم من عدوهم ونجعل مكانهم حرما ذا أمنٍ ، لحرمة البيت الحرام ، الذي تتناجز العرب حوله وهم آمنون « يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » أي جهلة لا يتفكرون . ولو علموا أن ذلك رزق من عند الله ، لعلموا أن الخوف والأمن من عنده ، ولما خافوا التخطف إذ آمنوا به وخلصوا أئداده . « وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِكَ مَیِّمَاتٍ مَیِّمَاتٍ » أي كبرت بها فلم تحفظ حق الله فيها فدمرت « فَتِلْكَ مَسْجِدُهُمْ

(١) [٩ / التوبة / ١١٣] . (٢) [٢٨ / القصص / ٥٦] .

(٣) أخرجه في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ٣٩ (طبعتنا)

(٤) أخرجه في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٢٨ - سورة القصص

لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ « أى منهم . إذ لم يخلفهم أحد يتصرف تصرفهم . وموصوف (قليلا) المستثنى ، إما (زمان) أى إلا زمانا قليلا ، إذ لا يسكنها إلا المارة يوما أو بعض يوم . وإما (مكان) أى إلا مكانا قليلا يصح لسكنى البعض ، واندر الباقى . أو (مصدر) أى سكننا قليلا من شؤم معاصيهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَّهَاتِ رُسُلًا يَلْعَنُوا عَلَيْهِمْ)
 ءَايَاتِنَا ، وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ)

[٦٠] (وَمَا أَوْتَيْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا ، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

[٦١] (أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

[٦٢] (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ)

« وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَّهَاتِ رُسُلًا يَلْعَنُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا » أى الناطقة بالحق . ويدعوهم إليه بالترغيب والترهيب . وذلك لإلزام الحجة وقطع المذرة « وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ » أى بالكفر بالآيات وتكذيب الرسل سعيًا بالفساد ، وإباء عن سبيل الصلاح والرشاد « وَمَا أَوْتَيْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا » أى فهو مما يتمتع ويتزين به أياما قلائل . وهى مدة الحياة المتقضية « وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ » أى متاع وزينة فى نفسه ، لخلوه عن شوائب الألم « وَأَبْقَىٰ » لأنه أبدى لا يزول « أَفَلَا تَعْقِلُونَ * أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا » أى بإيمانه وعمله الصالح « فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَّعَ

الْحَيَوَاتِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ « أَى من الذين أحضروا للحساب أو للنار أو العذاب .

قال الشهاب : وقد غلب لفظ (المحضر) فى القرآن فى المذنب . وإليه أشار الزمخشري ، وصرح به فى البحر « وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِى الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ » .
القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ، تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ ، مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ)

[٦٤] (وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ ، لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ)

[٦٥] (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ)

[٦٦] (فَعَمِيَّتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ)

[٦٧] (فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَحَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ)

[٦٨] (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ، مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ، سُبْحَانَ اللَّهِ

وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

« قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ » أَى وجب وثبت مقتضاه . وهو لحوق الوعيد بهم . والمراد بهم ، رؤساء الضلال ، وقادة الكفر والفساد « رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا » أَى أضللناهم . قال أبو السعود : ومرادهم بالإشارة ، بيان أنهم يقولون ما يقولون بمحض منهم . وأنهم غير قادرين على إنكاره وردّه « أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا » أَى أضللناهم بالسوسة والتسويل ، كما ضللنا باختيارنا ، وإيثار ما يفنى على ما يبقى « تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ » أَى من الكفر والشرك والمعاصى . أو منهم وما اختاروه « مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ » أَى بل كانوا يعبدون

أهواءهم وشهواتهم «وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ» ليشفعوا لكم «فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأُوا الْعَذَابَ لَوْ أَنََّّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ» أى تمنوا ذلك لينقذوا من العذاب العظيم «وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ» أى الداعين إلى الهداية وإصلاح الأعمال والأخلاق «فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ» أى فصارت الأنباء كالعمى عليهم لا تهتدى إليهم . وأصله (فعموا عن الأنباء) لكنه عكس مبالغة . قال الشهاب: ففيه استعمارة تصريحية تبعية . استعير العمى لعدم الاهتداء . فهم لا يهتدون للأنباء . ثم قلب للمبالغة . فجعل الأنباء لا تهتدى إليهم . وضمن معنى الخفاء . فعدى بـ (على) . ففيه أنواع من البلاغة : الاستعمارة والقلب والتضمين . والمراد بالأنباء ما أجابوا به الرسل . أو ما يعمها وغيرها من كل ما يمكن الجواب به «فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ» أى لا يسأل بعضهم بعضاً عن الجواب ، لفرط الدهشة . أو لعلمه بأنه مثله فى العجز عن الجواب . أو لعجزهم عن النطق وكونهم محتوما على أفواههم . ثم إن هذا الوعيد لاحق للمصر «فَأَمَّا مَنْ تَابَ» أى من الشرك «وَأَمَّنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ» أى أن يفلح عند الله . و (عسى) من الكرام تحقيق . ويجوز أن يراد ترجى التائب وطمعه . كأنه قال: فليطمع أن يفلح . قاله الزمخشري «وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ» أى بمقتضى مشيئته وعنايته، ما يريد «مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ» أى فى ذلك . بل الخيرة له فى أفعاله وهو أعلم بوجوه الحكمة فيها ، ليس لأحد من خلقه أن يختار عليه .

قال الزمخشري : الخيرة من التخير ، كالطيرة من التطير ، تستعمل بمعنى المصدر وهو التخير ، وبمعنى المتخير . كقولهم (محمد خيرة الله من خلقه) والقصد تقرير انفراد بالالوهية وحده . ولذا قال «سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ» من الأصنام والأنداد التى لا تخلق شيئاً ولا تختار .

تنبيه :

للإمام ابن القيم فى مقدمة (زاد المعاد) مقالة فى هذه الآية الكريمة ، جديرة بأن تؤثر

عنه . قال رحمه الله : وبعد . فإن الله سبحانه وتعالى هو المتفرد بالخلق والاختيار من المخلوقات . قال تعالى (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ) وليس المراد ههنا بالاختيار ، الإرادة التي يشير إليها المتكلمون بأنه الفاعل المختار ، وهو سبحانه كذلك . وليس المراد بالاختيار هنا هذا المعنى . وهذا الاختيار داخل في قوله (يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ) فإنه لا يخلق إلا باختياره . ودخل في قوله تعالى (مَا يَشَاءُ) فإن المشيئة هي الاختيار . وإنما المراد بالاختيار هنا الاجتهاد والاصطفاء . فهو اختيار بعد الخلق . والاختيار العام اختيار قبل الخلق . فهو أعم وأسبق . وهذا أخص وهو متأخر . فهو اختيار من الخلق والأول اختيار للخلق . وأصح القولين أن الوقف التام على قوله (وَيَخْتَارُ) ويكون (ما كان لهم الخيرة) نفياً . أى ليس هذا الاختيار إليهم ، بل هو إلى الخالق وحده . فكأنه هو المتفرد بالخلق ، فهو المتفرد بالاختيار منه . فليس لأحد أن يخلق ولا يختار سواه . فإنه سبحانه أعلم بمواقع اختياره ومحالّ رضاه ، وما يصلح للاختيار مما لا يصلح له . وغيره لا يشاركه في ذلك بوجه . وذهب بعض من لا تحقيق عنده ولا تحصيل ، إلى أن (ما) في قوله تعالى (مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ) موصولة وهي مفعول (يختار) أى ويختار الذى لهم الخيرة . وهذا باطل من وجوه : أحدها - أن الصلة حينئذ تخلو من العائد . لأن الخيرة مرفوع بأنه اسم (كان) و (لهم) خبره . فيصير المعنى : ويختار الذى كان الخيرة لهم . وهذا التركيب محال من القول . فإن قيل : يمكن تصحيحه بأن يكون العائد محذوفاً ، ويكون التقدير : ويختار الذى كان لهم الخيرة فيه . أى ويختار الأمر الذى كان لهم الخيرة فى اختياره . قيل : هذا يفسد من وجه آخر . وهو أن هذا ليس من المواضع التي يجوز فيها حذف العائد . فإنه إنما يحذف مجروراً إذا جر بحرف جر الموصول بمثله ، مع اتحاد المعنى نحو قوله تعالى (يَا كُلُّ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ) ونظائره . ولا يجوز أن يقال جاءنى الذى مررت ، ورأيت الذى رغبت ، ونحوه . الثانى - أنه لو أريد هذا المعنى لنصب (الخيرة) وشغل فعل الصلة بضمير يعود على الموصول . فكأنه يقول : ويختار ما كان لهم

الخيرة . أى الذى كان هو عين الخيرة لهم . وهذا لم يقرأ به أحد البتة . مع أنه كان وجه الكلام على هذا التقدير . الثالث - أن الله سبحانه يحكى عن الكفار اقتراحهم فى الاختيار وإرادتهم أن يكون الخيرة لهم . ثم ينفى هذا سبحانه عنهم ، ويبين تفرد بالاختيار ، كما قال تعالى (١) « وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَىٰ بِتَيْنٍ عَظِيمٍ * أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ، نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا ، وَرَحِمْتَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ » فأنكر عليهم سبحانه تخييرهم عليه . وأخبر أن ذلك ليس إليهم . بل إلى الذى قسم بينهم معاشهم المتضمنة لأرزاقهم ومدد آجالهم . وكذلك هو الذى يقسم فضله بين أهل الفضل ، على حسب علمه بمواقع الاختيار ، ومن يصلح له ممن لا يصلح . وهو الذى رفع بعضهم فوق بعض درجات . وقسم بينهم معاشهم ودرجات التفضيل . فهو القاسم ذلك وحده لا غيره . وهكذا هذه الآية . بين فيها انفراد بالخلق والاختيار . فالله سبحانه أعلم بمواقع اختياره كما قال (٢) « وَإِذَا جَاءَهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ . اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ وَ أَى اللَّهُ أَعْلَمُ بِالْحَلِّ الَّذِي يَصْلَحُ لِصَلْفَانِهِ وَكَرَامَتِهِ وَتَخْصِيصِهِ بِالرِّسَالَةِ وَالنَّبُوَّةِ ، دُونَ غَيْرِهِ . الرابع - أنه نزه نفسه سبحانه عما اقتضاه شركهم من اقتراحهم واختيارهم فقال « مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ » ولم يكن شركهم مقتضيا لإنبات خالق سواه ، حتى نزه نفسه عنه . فتأمله فإنه فى غاية اللطف .

الخامس - إن هذا نظير قوله فى الحج (٣) « إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِن يَسْتَنْبِهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْفِذُوهُ مِنْهُ ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ * مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ » ثم قال (٤) « اللَّهُ يُصْطَفِي مَن

(١) [٤٣ / الزخرف / ٣١ و ٣٢] . (٢) [٦ / الأنعام / ١٢٤] .

(٣) [٢٢ / الحج / ٧٣ و ٧٤] . (٤) [٢٢ / الحج / ٧٥ و ٧٦] .

الْمَلَأْنَا مَكَّةَ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) وهذا نظير قوله في القصص (١) (وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ) ونظير قوله في الأنعام (٢) (اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ و) فأخبر في ذلك كله عن علمه المتضمن لتخصيصه محال اختياره، بما خصصها به بعلمه، بأنه يصلح له دون غيرها فتقدير السياق في هذه الآيات تجده متضمناً لهذا المعنى دأراً عليه . والله أعلم .

السادس - إن هذه الآية مذكورة عقيب قوله (٣) (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ * فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ * فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ * وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ) فكما خلقهم وحده سبحانه ، اختار منهم من تاب وآمن وعمل صالحاً ، فكانوا صفوته من عباده ، وخيرته من خلقه ، وكان هذا الاختيار راجعاً إلى حكمته وعلمه سبحانه ، لمن هو أهل له . لا إلى اختيار هؤلاء المشركين واقتراحهم . فسبحان الله وتعالى عما يشركون .

ثم قال ابن القيم رحمه الله تعالى : (فصل) فإذا تأملت أحوال هذا الخلق رأيت هذا الاختيار والتخصيص فيه، دالاً على ربوبيته تعالى ووحدانيته وكمال حكمته وعلمه وقدرته. وأنه الله الذي لا إله إلا هو، فلا شريك له يخلق كخلقهم، ويختار كاختياره، ويدبر كتدبيره. فهذا الاختيار والتدبير والتخصيص، المشهور أثره في هذا العالم، من أعظم آيات ربوبيته، وأكبر شواهد وحدانيته، وصفات كماله وصدق رسوله. فنشير منه إلى شيء يسير يكون منها على ما وراءه، دالاً على ما سواه. فخلق الله السموات سبعاً. فاختار العليا منها فجعلها مستقر المقربين من ملائكته واختصها بالقرب من كرسيه ومن عرشه. وأسكنها من شاء من خلقه. فلها مزية وفضل على سائر السموات. ولولم يكن لإقربها منه تبارك وتعالى. وهذا التفضيل والتخصيص، مع تساوي

(١) [٢٨ / القصص / ٦٩] . (٢) [٦ / الأنعام / ١٢٤] .

(٣) [٢٨ / القصص / ٦٥ - ٦٨] .

مادة السموات، من أبين الأدلة على كمال قدرته وحكمته، وأنه يخلق ما يشاء ويختار. ومن هذا تفضيله سبحانه جنة الفردوس على سائر الجنان، وتخصيصها بأن جعل عرشه سقفاً. وفي بعض الآثار: إن الله سبحانه غرسها بيده واختارها لخيرته من خلقه. ومن هذا اختياره من الملائكة، المصطفين منهم على سائرهم. كجبريل وميكائيل وإسرافيل. وكذلك اختياره سبحانه للأنبياء من ولد آدم. واختيار الرسل منهم واختياره أولى العزم منهم. واختياره منهم الخليلين إبراهيم ومحمد صلى الله عليهم وسلم. ومن هذا اختياره سبحانه ولد إسماعيل من أجناس أنواع بني آدم. ثم اختار منهم بني كنانة بن خزيمه. ثم اختار من ولد كنانة قريشاً. ثم اختار من قريش بني هاشم. ثم اختار من بني هاشم، سيد ولد آدم محمدًا ﷺ. وكذلك اختار أصحابه من جملة العالمين. واختار منهم السابقين الأولين. واختار منهم أهل بدر وأهل بيعة الرضوان. واختار لهم من الدين أكمله، ومن الشرائع أفضلها، ومن الأخلاق أزكاها وأطيبها وأطهرها. واختار أمته ﷺ على سائر الأمم. ومن هذا اختياره سبحانه وتعالى من الأماكن والبلاد خيرها وأشرفها. وهي البلد الحرام. فإنه سبحانه اختاره لنبيه، وجعله مناسباً لعباده. وأوجب عليهم الإتيان إليه من القرب والبعد من كل فج عميق. فلا يدخلونه إلا متواضعين متخشعين متذللين، كاشفي رؤوسهم، متجردين عن لباس أهل الدنيا. وجعله حرماً آمناً لا يسفك فيه دم، ولا تعضد به شجرة، ولا ينفر له صيد ولا يختلج خلاله، ولا يلتقط لقطته للتملك. بل للتعريف ليس إلا. ومن هذا تفضيله بعض الأيام والشهور على بعض. فخير الأيام عند الله يوم النحر. وهو يوم الحج الأكبر كما في (السنن). وأفضل الشهور شهر رمضان. وعشره الأخير أفضل الليالي. وليلة القدر أفضل من ألف شهر. ويوم الجمعة أفضل أيام الأسبوع. ويوم عرفة ويوم النحر أفضل أيام العام. انتهى ملخصاً.

وقد أوسع المقال وجود الاستدلال. فرحمه الله ورضي عنه وأرضاه. وقوله تعالى «سُبْحَانَ اللَّهِ» أي تنزيهاً لله الذي لا يزاحم اختياره اختياراً «وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ» .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تَكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ)

[٧٠] (وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ ، وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

[٧١] (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ ، أَفَلَا تَسْمَعُونَ)

« وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تَكِنُّ » أى تخفى « صُدُورُهُمْ » أى من الكيد والمكر « وَمَا يُعْلِنُونَ » أى من الأقوال والأفعال « وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ » أى وهو المستحق للألوهية والعبادة وحده « لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ » أى لأنه المولى للنعم كلها فى الدارين « وَلَهُ الْحُكْمُ » أى القضاء النافذ فى كل شىء . يقهر كل شىء على مقتضى مشيئته . ويحكم عليه بموجب إرادته « وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » أى بالبعث للجزاء « قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ » أى هذا الكلام الحق ، سماع تدبر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ

مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بَلِيلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ، أَفَلَا تَبْصُرُونَ)

[٧٣] (وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا

مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

[٧٤] (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ)

[٧٥] (وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

[٧٦] (إِنَّ قُرُونًا كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ، وَءَاتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ وَ لَتَنُوذِرُ بِالْعَصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ وَ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ)

« قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ » أى هذه المنفعة فتقوموا بشكرها « وَمِنْ رَحْمَتِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ » أى فى الليل « وَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ » أى فى النهار « وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » أى نعمه الظاهرة والباطنة، والجسدية والروحانية، باستعمالها فيما واجب من طاعته . وذلك فيما خلقت له « وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِي الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ * وَنَزَعْنَا » أى وأخرجنا « مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا » أى نبياً يشهد عليهم بما كانوا عايناه . كقوله تعالى^(١) « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ » « فَقُلْنَا » أى لكل أمة من تلك الأمم « هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ » أى على ما أنتم عليه . أحق هو أم لا؟ فعجزوا عن آخرهم . وظهر برهان النبىؐ ، كإقال تعالى « فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ » أى فى الألوهية، لا يشاركه فيها أحد « وَصَلَّ عَنْهُمْ » أى غاب عنهم غيبة الضائع « مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ » أى من الباطل والمذاهب المختلفة، والطرق المتشعبة المتفرقة « إِنَّ قُرُونًا كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ » أى من شا كلتهم فى الكفر والطغيان . وقوم موسىؑ ، جماعته الذين أرسل إليهم، وهم القبط وطاغيتهم فرعون « فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ » أى بالكبر والاستطالة عليهم ، لما غلب عليه الحرص ومحبة الدنيا، لغروره وتعززه بروية زينة نفسه « وَءَاتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ » أى من الأموال

(١) [٤ / النساء / ٤١] .

المدخرة « مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ وَ » أى مفاتيح صناديقه . على حذف مضاف . أو الإضافة لأدنى ملابسة .
وقيل خزائنه « لَتَنُوۡءَ » أى تثقل « بِالْمُعْصَبَةِ » أى الجماعة الكثيرة من الرجال أو البغال
« أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ وَ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ » أى بزخارف الدنيا فرحاً يشغلك عن الشكر فيها
والقيام بحقها « إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ » أى هذا الفرح ، لما فيه من إثارها عن الآخرة ،
والرضا بها عنها ، والإخلاد إليها . وذلك أصل كل شر ومبعث كل فساد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (وَأَتَّبِعْ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ، وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ،
وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ، وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ،
إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ)

[٧٨] (قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ، أَوَلَمْ يَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ
مِنْ قَبْلِهِ مِنْ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ، وَلَا يُسْئَلُ
عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ)

« وَأَتَّبِعْ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ » أى اطلب من الغنى الذى تفضل الله به عليك ، بمدا لفاقاة
« الدَّارَ الْآخِرَةَ » أى بأن تفعل فيه أفعال الخير من أصناف الواجب والمندوب . وتجمعه زائدك
إلى الآخرة « وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا » وهو أن تأخذ منه ما يصلحك ويرفئك « وَأَحْسِنْ »
أى إلى الناس . أو اعمل الإحسان من وجوهه المعروفة « كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ
الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ » أى بهذا المال الذى جعله سبب صلاحها « إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ *
قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي » أى بطرق التجارة أو المكاسب « أَوَلَمْ يَعْلَمَ » أى مما
سمع بالتواتر « أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً » أى الكثيرة ، بحيث صارت سنة له
« مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً » أى بالأموال والأنباع « وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمْ

الْمُجْرِمُونَ « أَى لا يتوقف إهلاكه إياهم على سؤال ، ليمتذروا عنها . بل متى حق عليها القول ، بفسقهم ، أهلكتهم بغتة بلا معاتبة وطلب عذر . ثم أشار تعالى إلى أن قارون لم يعتبر بذلك ، ولا بنصيحة قومه ، بقوله سبحانه :

القول فى تاويل قوله تعالى :

[٧٩] (فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ، قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا

يَلْبَسْتُمْ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)

[٨٠] (وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَن ءَامَنَ وَعَمِلَ

صَالِحًا ، وَلَا يُلَقَّهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ)

[٨١] (فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ

مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُتَنَصِّرِينَ)

[٨٢] (وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَآنَ اللَّهُ يَمْسُطُ

الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ، لَوْلَا أَن مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا

لَخَسَفَ بِنَا ، وَيَكَآنَهُ لَوْ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ)

« فَخَرَجَ » أى قارون باغيا « عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ » أى مُعْتَرِّبًا بالنظر فيها « قَالَ الَّذِينَ

يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا » أى جريا على سنن الجبللة البشرية ، من الرغبة فى السعة واليسار

« يَلْبَسْتُمْ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * » وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ

وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ » أى مما تتمنونه « لِمَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّهَا » أى

هذه الكلمة التى فاه بها الذين أوتوا العلم . أو الجنة . أو السيرة والطريقة ، وهى الإيمان

والعمل الصالح « إِلَّا الصَّابِرُونَ » أى على الطاعات عن الشهوات ، وعلى زمام النفس أن

تجرى في أعقاب المزخرفات . و(وبلك) في الأصل دعاء بالهلاك . والمراد به هنا الزجر عن هذا التمني ، مجازاً . وهو منصوب على المصدرية « فَخَسَفْنَا بِهِ يَدَايِهِ » أي المشتعلة على أمواله « الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ » أي بدفع العذاب عنه « وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ » أي بقوة نفسه وماله « وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَسْكَأَنَّ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ » أي من شق وسعيد « وَيَقْدِرُ » أي يقبض . فلا دلالة في البسط على السعادة . ولا في القبض على الشقاوة . بل يفعل سبحانه كل واحد من البسط والقدر بمحض مشيئته ، لا لكرامة توجب البسط ، ولا لهوان يقتضى القبض « لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا » أي بعدم إيتائه متمننا « لَخَسَفَ بِنَا » أي كخسف به « وَيَسْكَأَنَّهُ وَلَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ » أي لنعمة الله ، في صرفها في غير سبيلها . أو المكذبون برسله اغترارا بزخارفهم .

فائدة :

في (ويكأن) مذاهب :

الأول - أن (وي) كلمة بزأسها . وهي اسم فعل ، معناها أعجب . أي أنا . والكاف للتعليل . و (أن) وما في حيزها مجرورة بها . أي أعجب لأن الله يبسط الرزق الخ . وقياس هذا القول أن يوقف على (وي) وحدها ، وقد فعل ذلك الكسائي .

الثاني - أنه مركب من (وي) للتعجب (وكأن) للتشبيه . والمعنى : ما أشبه الأمر أن الله يبسط . أي ما أشبه أمر الدنيا والناس مطلقاً إلى آخره ، أمر قارون وما شوهده من قصته . والأمر مأخوذ من الضمير . فإنه للشأن . والمراد من تشبيه الحال بهذه الحال ، أنه لتحققه وشهرته ، يصلح أن يشبه به كل شيء . كما أشار إليه في الكشف .

الثالث - قال بعضهم : (كأن) هنا للتشبيه . إلا أنه ذهب منها معناه . وصارت للخبر واليقين . وهذا أيضاً يناسبه الوقف على (وي) .

الرابع - زعم الهمداني في (الفرائد) أن مذهب سيويويه والخليل أن (وى) للتندم. و(كأن) للتعجب . والمعنى : ندموا متعجبين في أن الله يبسط الخ .
قال الشهاب : وكون (كأن) للتعجب ، لم يعهد .
الخامس - ذهب الكوفيون إلى أنه مركب من (ويك) بمعنى (ويلك) تخفف بحذف اللام .
والعامل في (أن) اعلم ، المقدر . والكاف على هذا ضمير في محل جرّ . وهذا يناسب الوقف على الكاف . وقد فعله أبو عمرو .
السادس - أن (ويك) كلمة برأسها . والكاف حرف خطاب . ويقرب هذا مما قبله . قال أبو البقاء : وهو ضعيف لوجهين : أحدهما - أن معنى الخطاب هنا بعيد . والثاني - أن تقدير (وى) اعلم ، لا نظير له ، وهو غير سائغ في كل موضع . انتهى .
السابع - أن (ويكأن) كلها كلمة مستقلة بسيطة . ومعناها ألم تر . وربما نقل ذلك عن ابن عباس . ونقل الفراء والكسائي أنها بمعنى (أما ترى إلى صنع الله) وحكى ابن قتيبة أنها بمعنى (رحمة لك) في لغة حمير . ولم يرسم في القرآن إلا (ويكأن) و(ويكأنه) متصلة في الموضعين .
فعامة القراء اتبعوا الرسم . والكسائي وقف على (وى) وأبو عمرو على (ويك) .
هذا ما استفاد من حواشي الفاضل والسمين . وعندى أنها مركبة من (وى) للتعجب و(كأن) التي للتحقيق وهو أحد معانيها المعروفة . والوقف على (وى) . ولا يشكل على ذلك كتابتها في المصاحف متصلة ، لأن الكتابة - كما قال ابن كثير - أمروضى اصطلاحى ، والمرجع إلى اللفظ العربى .

وقد اتفق اللغويون على أن (وى) كلمة تعجب . يقال (ويك) و(وى لزيد) وتدخل على (كأن) الخففة والمشددة . ومن شواهد الأولى قول الشاعر :

سَأَلْتَانِي الطَّلَاقَ أَنْ رَأَيْتَانِي قَلَّ مَالِي . قَدْ جِئْتَانِي بُنْكَرٍ
وَيْ كَأَنْ مِنْ يَكُنْ لَهُ نَسَبٌ يُحِبُّ بَبٍّ وَمَنْ يَقْتَرِرُ يَعِشُ عَيْشَ ضُرٍّ

وهذا البيت مما يدل على ما استظهرته ، بله الاستعمال إلى هذه الأجيال .

قال ابن كثير : وقد ذكر ههنا إسرائيليات ، أضربنا عنها صفحاً . ونحن تأسيفا به ، بل فقناه في الإضراب عن كثير من مرويه ، الموقوف والضعيف الذي سوّدت به الصحف . ثم أشار تعالى إلى مقابل حال قارون ، من حال خلص عباده ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

[٨٤] (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا ، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ » أي غلبة وتسلطاً بسوء وتكبر « وَلَا فَسَادًا » أي بظلم وعدوان وصدّ عن سبيل الله تعالى « وَالْعَاقِبَةُ » أي النهاية الحميدة « لِلْمُتَّقِينَ » أي الذين يتقون ما لا يرضاه تعالى من الأقوال والأفعال .

قال الزمخشري ، قدس الله روحه : لم يعلق الموعد بترك العلوّ والفساد . ولكن بترك إرادتهما ، وميل القلوب إليهما . كما قال^(١) (وَلَا تَرَهُ كُنُوزًا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا) فعلق الوعيد بالركون . وعن عليّ رضي الله عنه : إن الرجل ليعجبه أن يكون شرك نعله أجود من شرك نعل صاحبه . فيدخل تحته .

وعن الفضيل أنه قرأها ثم قال : ذهبت الأمانى ههنا . وعن عمر بن عبد العزيز ، أنه كان يرددها حتى قبض . ومن الطمّاع من يجعل العلوّ لفرعون ، والفساد لقارون ، متعلقاً بقوله^(٢) : (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ)^(٣) (وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ) ويقول : من لم يكن

(١) [١١ / هود / ١١٣] . (٢) [٢٨ / القصص / ٤] . (٣) [٢٨ / القصص / ٧٧] .

مثل فرعون وقارون ، فله تلك الدار الآخرة . ولا يتدبر قوله (وَأَلْعَلِّيَةً لِلْمُتَمِّينَ) كما تدبره على والفضيل وعمررضي الله عنهم. «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ وَخَيْرٌ مِنْهَا، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» معناه : فلا يجوزون إلا .. الخ . فوضع فيه الموصول والظاهر ، موضع الضمير ، لتهجين حالهم بتكرير إسناد السيئة إليهم ، ولزيادة تبغيض السيئة إلى قلوب السامعين . ومعنى قوله (إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) أى مثله . وهذا من فضله العظيم وكرمه الواسع ، أن لا يجزى السيئة إلا بمثلها . ويجزى الحسنة بعشر أمثالها وسبعائة . وهو معنى قوله (فَلَهُ وَخَيْرٌ مِنْهَا) كذا في الكشاف .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٨٥] (إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ، قُلْ رَبِّيَ أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)

[٨٦] (وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلتَقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ ، فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ)

« إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ أَنْ » أى أوجب عليك تلاوته على الناس ، وتبليغه إليهم ، وصدعهم به « لَرَادُّكَ » أى بعد الموت « إِلَىٰ مَعَادٍ » أى مرجع عظيم . وهو المقام المحمود الذى وعدك أن يبعثك فيه . فتنوينه للتعظيم . ووجهه - كما فى (العناية) - أن المعاد صار كالحقيقة فى المحشر . لأنه ابتداء العود إلى الحياة ، ورده إلى ما كان عليه فجعل معاده عظيماً لعظمة مقامه فيه .

وقال ابن كثير : المعاد هو يوم القيامة . يسأله عما استرعاه من أعباء النبوة . كما قال تعالى (١) (فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ) وقال تعالى (٢) (يَوْمَ يَجْمَعُ

(١) [٧ / الأعراف / ٦] . (٢) [٥ / المائدة / ١٠٩] .

اللَّهِ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَأَاجِبْتُمْ) وقال^(١) (وَجَاءَءِىَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشَّهَدَاءِ) وعن ابن عباس روايات : إلى يوم القيامة . إلى الموت . إلى الجنة أخرجت عنه من طرق . كما أسنده ابن كثير .
والذى رواه البخارى والنسائى وابن جرير عن ابن عباس قال : (لرأدك) إلى مكة كما أخرجك منها . وعن الضحاك قال : لما خرج النبي ﷺ من مكة فبلغ الجحفة ، اشتاق إلى مكة . فنزلت الآية .

قال ابن كثير : وهذا يقتضى أن هذه الآية مدنية ، وإن كان مجموع السورة مكياً ، والله أعلم .

ثم قال : ووجه الجمع بين هذه الأقوال ، أن ابن عباس فسر ذلك تارة برجوعه إلى مكة ، وهو الفتح ، الذى هو عند ابن عباس أمانة على اقتراب أجل النبي ﷺ . كما فسر ابن عباس سورة (إذا جاء نصر الله والفتح) أنه أجل رسول الله ﷺ نعى إليه ، وكان ذلك بحضور عمر ابن الخطاب ووافقه عمر على ذلك ، وقال : لا أعلم منها غير الذى تعلم . ولهذا فسر ابن عباس تارة أخرى قوله تعالى (لَرَأَدُكَ إِلَى مَعَادٍ) بالموت . وتارة بيوم القيامة الذى هو بعد الموت . وتارة بالجنة التى هى جزاؤه على أدائه رسالة الله وإبلاغها إلى الثقلين الجن والإنس . ولأنه أكمل خلق الله على الإطلاق . انتهى . « قُلْ رَبِّىَ أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِأَلْهَدَى » يعنى نفسه الكريمة . أى بما يستحقه من الثوبة « وَمَن هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ » يعنى المشركين . أى بما يستحقونه من العذاب . والجملة تقرير للوعيد السابق « وَمَا كُنْتَ تَرْجُوا أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ » أى ما كنت تظن ، قبل إنزال الوحي إليك ، أن الوحي ينزل عليك « إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ » أى ولكن رحمة من ربك أتى إليك « فَلَا تَكُونَنَّ ظَهْرًا لِّلْكَافِرِينَ » أى مميئاً لهم . ولكن نابذهم وخالفهم . وحكى الكرماتى فى (الفرائب) أن معناه : فلا تكن بين ظهرانهم ، وأنه أمر بالهجرة .

(١) [٣٩ / الزمر / ٦٩] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (وَلَا يَصُدُّنَكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلْتُ إِلَيْكَ ، وَأَدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

[٨٨] (وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ . لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ، لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

« وَلَا يَصُدُّنَكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلْتُ إِلَيْكَ » أى عن تبليغها بعد إنزالها ، والأمر بالصدع بها لضيق صدرك من مكرهم . فإن الله معك ، ومُعَلِّ كَلِمَتِكَ ومُؤَيِّد دِينِكَ . ولذا قال « وَأَدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ » أى إلى عبادته وحده لا شريك له « وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ » .

قال القاضى : هذا وما قبله للتبهيح وقطع أطماع المشركين عن مساعدته لهم . أى لأنه لا يتصور منه ذلك حتى ينهى عنه . فكأنه لما نهاه عن مظاهرتهم ومداراتهم ، قال إن ذلك مبعوض لى كالشرك . فلا تكن ممن يفعله . أو المراد نهى أمته ، وإن كان الخطاب له ﷺ . كذا فى (العناية) .

« لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ » أى إياه و(الوجه) يعبره عن الذات كقال^(١) « كُتِبَ مِنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلْدِ وَالْإِكْرَامِ » وفى قوله تعالى (هَالِكٌ) وجوه : حمله على المستقبل ، أو هو عرضة للهلاك والعدم ، أو هالك فى حد ذاته ، لأن وجوده ليس ذاتيا بل لاستناده إلى واجب الوجود ، فهو بالقوة وبالذات معدوم حالا . والمراد بالمعدوم ما ليس له وجود ذاتى . لأن وجود غيره كلا وجود . إذ هو فى كل آن قابل للعدم . وعن مجاهد والثورى (إلا وجهه) أى ما أريد به وجهه . حكاه^(٢) البخارى فى (صحیحه) .

(١) [٥٥ / الرحمن / ٢٦ و٢٧] .

(٢) أخرجه فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٢٨ - سورة القصص .

قال ابن جرير^(١) : ويستشهد من قال ذلك بقول الشاعر :

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ ذَنْبًا ، لَسْتُ مُحْصِيَهُ
رَبُّ الْعِبَادِ ، إِلَيْهِ الْوَجْهُ وَالْعَمَلُ

قال ابن كثير : وهذا القول لا ينافي القول الأول . فإن هذا إخبار عن كل الأعمال ، بأنها باطلة ، إلا ما أريد به وجه الله تعالى من الأعمال الصالحة المطابقة للشريعة . انتهى .
وفيه بُمد وتكلف يذهب رونق النظم ، وماء الفصاحة . لا سيما وآى التنزيل يفسر بعضها بعضاً . والآية الثانية التي ذكرناها بمعنى هذه . وتلك لا تحتمل ذلك المعنى ، فكذا هذه « لَهُ الْحُكْمُ » أى القضاء النافذ الخلق « وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » أى يوم معادكم فيجزئكم بأعمالكم ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٧ من الجزء العشرين (طبعة الحلبي الثانية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٩ - سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ

سميت بها لاشتمالها على آية^(١) (مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ) الآية، المشير إن من اعتمد على قوة الأصنام وحفظها عن العذاب كالعنكبوت، اعتمدت على قوة بيتها التي لا تتحمل مسّ أدنى الحشرات والرياح، وحفظها عن الحر والبرد. وهذا أتمّ في الدعوة إلى التوحيد الذي هو أعظم مقاصد القرآن. أفاده المهايمي.

وهي مكّية. واستثنى من أولها إلى قوله تعالى^(٢) (وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ) وقوله^(٣) : (وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ) الآية ويقال إنها آخر منازل بمكة. وآياتها تسع وستون. قال الداني: متفق عليه.

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٤١] .

(٢) [٢٩ / العنكبوت / ١١] .

(٣) [٢٩ / العنكبوت / ٦٠] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (الْم)

[٢] (أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكَوَأَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

[٣] (وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ

الْكٰذِبِينَ)

«الْم أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكَوَأَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ» أى أحسب الذين أجرُوا كلمة الشهادة على ألسنتهم ، وأظهروا القول بالإيمان ، أنهم يتركون بذلك غير ممتحنين ، بل يحجنهم الله بضروب المحن ، حتى يبلاو صبرهم وثبات أقدامهم وصحة عقائدهم . لتمييز المخلص من غير المخلص . كما قال (١) (لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ، وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) و كقوله (٢) (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ) وقوله تعالى (٣) (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ، مَسْتَهْمِكُمْ الْبُيُوتَ الْوُضَّاعَةَ وَالضَّرَاقَ لَزُلُوكُمْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهُ ، أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ) وكل هذه الآيات وأمثالها مما نزل بمكة في تثبيت قلوب المؤمنين ، وتصبيرهم على ما كان ينالهم

(١) [٣ / آل عمران / ١٨٦] . (٢) [٣ / آل عمران / ١٤٢] .

(٣) [٢ / البقرة / ٢١٤] .

من أذى المشركين « وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » أى من أتباع الأنبياء عليهم السلام ، بضروب من الفتن من أعدائهم ، كما دون التاريخ اضطهادهم . أى فصبروا وماوهنوا لما أصابهم حتى علت كلمة الله « فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا » أى فى قولهم (ءَامِنًا) « وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَذِبِينَ » أى فيه : وذلك بالامتحان .

فإن قيل : يتوهم من صيغة الفعل أن علمه حدث ، مع أنه قديم . إذ علمه بالشىء قبل وجوده وبعده ، لا يتغير . يجاب بأن الحادث هو تعلق علمه بالمعلوم بعد حدوثه . وقال الناصر : فائدة . ذكر العلم ههنا ، وإن كان سابقاً على وجود المعلوم هو التنبيه بالسبب على المسبب . وهو الجزاء كأنه قال تعالى (ليعلمنهم فليجازينهم بحسب علمه فيهم) . وقال المهايى : (فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ) أى يظهر علمه عند خلقه بصدق إيمان (الَّذِينَ صَدَقُوا) فيه ، بدلالة ثباتهم عليه عند المصائب (وَلْيَعْلَمَنَّ) أى وليظهر علمه بكذب دعوى (الْكَذِبِينَ) لثلا يشهدوا عنده بإيمان الكاذبين ، فينسب فى تعذيبهم إلى الظلم . وليثق المؤمنون بحجة الصادقين ، ويستظفروا بها ، ويحذروا عن مكر الكاذبين . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

[٥] (مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

[٦] (وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ، إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ)

[٧] (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ

أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا » أى يفوتونا ، فلا نقدر على مجازاتهم

بمساوى أعمالهم « سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ » أى بسئ الذى يحكمونه حكمهم « مَنْ كَانَ يَرْجُوا

لِقَاءِ اللَّهِ» أى فى الجنة من رؤيته، والفوز بكرامته «فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ وَهُوَ الْمَوْتُ «لَأْتِ» أى فليبادر ما يصدق رجاءه ويحقق أمله من الثبات والتواصى بالحق والصبر والرغبة فيما عنده تعالى . أو المعنى : من كان يرجو لقاء الله ، من كل من صدق فى إيمانه ، وأخلص فى يقينه ، ناعلم أن أجل الله لآت . وهو الوقت الذى جعله أجلاً وغاية لظهور النصر والفتح وعلو الحق وزهوق الباطل . أى فلا يستبطئنه . فإنه آت بوعده الله الحق وقوله الصدق . ولم أر من ذكره ولعله أنسب بقرينة السياق والسباق . والله أعلم «وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» أى السميع لأقوالهم العليم بضمائرهم وأحوالهم «وَمَنْ جَهَدَ» أى فى الصبر على البلاء والثبات على الحق مع ضروب الإيذاء «فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ» أى لأنه يمهّد لنفسه ، ما يبغى به ثمرة غرسه «إِنَّ اللَّهَ لَعَنَى الْعَالَمِينَ * وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ» أى أحسن جزاء أعمالهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا . وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ

بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ، إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

[٩] (وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ)

«وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا» أى أمرناه أمراً مؤكداً بإبلاء والديه فعلا

ذا حسن عظيم «وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا» أى فى

الشرك ، إذا حملك عليه . ومعنى (مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) أى لا علم لك بالهيته . قال

القاضى : عبر عن نفيها بنفى العلم بها ، للإيدان بأن ما لا يعلم صحته ، لا يجوز اتباعه ، وإن لم يعلم

بطلانه . فكيف بما علم بطلانه؟ «إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» أى إلى

مرجع من آمن منكم ومن أشرك . فأجازكم حق جزائكم . فيه التحذير من متابعتهم على الشرك

والحث على الثبات والاستقامة في الدين ، بذكر المرجع والوعيد . وقد روى أن سعد بن أبي وقاص الزهري رضي الله عنه حين أسلم ، قالت أمه : يا سعد ! بلغني أنك قد صبأت . فوالله ! لا يظلمني سقف بيت من الضحّ والريح . وإن الطعام والشراب على حرام ، حتى تكفر بمحمد وكان أحب ولدها إليها . فأبى سعد . وبقيت ثلاثة أيام كذلك . فجاء سعد إلى رسول الله ﷺ وشكا إليه . فنزلت هذه الآية ، والتي في لقمان ، والتي في الأحقاف . فأمره رسول الله ﷺ أن يداريها ويترضاها بالإحسان . وروى الترمذي عن سعد^(١) قال : نزلت في أربع آيات . فذكر قصته وقال : قالت أم سعد : أليس الله قد أمرك بالبر ؟ والله لا أطعم طعاما ولا أشرب شرابا حتى أموت ، أو تكفر . فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاهها . فنزلت هذه الآية قال ابن كثير : وهذا الحديث رواه الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي أيضا . وقال الترمذي : حسن صحيح «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ» أى في زمرة الراسخين في الصلاح والسكال .

قال الزمخشري : والصلاح من أبلغ صفات المؤمنين ، وهو متمنى أنبياء الله . قال الله^(٢) تعالى حكاية عن سليمان عليه السلام (وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ) وقال^(٣) في إبراهيم عليه السلام (وَإِنَّهُ وَفِي الْآخِرَةِ لِمَنِ الصَّالِحِينَ) أو المعنى : في مدخل الصالحين وهي الجنة . وهذا نحو قوله^(٤) تعالى (وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ) الآية .

(١) أخرجه الترمذي في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٢٩ - سورة العنكبوت ، حدثنا محمد ابن بشار ومحمد بن الثني .

(٢) [٢٧ / النمل / ١٩] . (٣) [١٦ / النحل / ١٢٢] و [٢٩ / العنكبوت / ٢٧] .

(٤) [النساء / ٦٩] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذْ آؤُذِي فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ

كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ،

«وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذْ آؤُذِي فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ

اللَّهِ » أى جعل ما يصيبه فى الصّرف عن الإيمان من ضروب الإيذاء، بسببه ، مثل عذاب

الله فى الشدة والهول . فيرتد عن الدين . مع أن مقتضى إيمانه أن يصبر ويتشجع ويتلقى ما يفاله

فى الله بالرضا ، ويرى العذاب فيه عذوبة والحنة منحة . فإن العاقبة للمتقوى وسعادة الدارين

لأهلها «وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي

صُدُورِ الْعَالَمِينَ» أى من التلبيس والإخلاص . وهذه الآية كقوله تعالى^(١) (وَمِنَ النَّاسِ مَن

يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ، فَإِن أَصَابَهُ وَخَيْرٌ أطمأن به ۖ وَإِن أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ ۖ

إلى قوله^(٢) (ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ البعيدُ) وكقوله سبحانه^(٣) (الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ

فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ

قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْزِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعِكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ) وقال تعالى^(٤) (فَعَسَىٰ اللَّهُ أَن

يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّن عِنْدِهِ ۖ فَيُضْهِجُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ)

[١١] (وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ)

(١) [٢٢ / الحج / ١١] . (٢) [٢٢ / الحج / ١٢] . (٣) [٤ / النساء / ١٤١] .

(٤) [٥ / المائدة / ٥٢] .

[١٢] (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ
وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ ، إِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ)
[١٣] (وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ ، وَلَيَسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

« وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا » أى بإخلاصهم « وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ » ثم بين تعالى
حمل كفار قريش لمن آمن على الكفر بالاستمالة ، بعد بيان حملهم لهم عليهم بالأذية ، بقوله
« وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ » أى إن كان
ذلك خطيئة يؤاخذ عليها بالبعث ، فتبعتمنا علينا وفي رقابنا .

قال ابن كثير: كما يقول القائل افعل كذا وخطيئتك في رقبتي . قال الله تعالى تكذبا لهم
« وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ * وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ » وهى
أوزار أنفسهم « وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ » أى وأوزاراً أخرجهم أوزار أنفسهم . يعنى أوزار الإضلال
والحمل على الكفر والصدعن سبيل الله . كقال تعالى ^(١) (لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ
وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّوهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ) وفى الصحيح ^(٢) (من دعا إلى هدى كان له من الأجر
مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أجورهم شيئا . ومن دعا إلى ضلالة
كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة ، من غير أن ينقص من آثامهم شيئا)
« وَلَيَسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ » أى من الأكاذيب والأباطيل . ثم بين تعالى افتتان
الأنبياء بأذية أممهم ، إثر بيان افتتان المؤمنين بأذية الكفار ، تأكيد الإنكار على الذين يحسبون
أن يتركوا بمجرد الإيمان بلا ابتلاء ، وحثاً لهم على الصبر تأسيا بالأنبياء ، فقال سبحانه :

(١) [١٦ / النحل / ٢٥] .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٤٧ - كتاب العلم ، حديث ١٦ (طبعتنا) عن ابن هريرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ۖ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ)

[١٥] (فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ)

[١٦] (وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ)

[١٧] (إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ، إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَأَشْكُرُوا لَهُ ، إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

[١٨] (وَإِن تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبْتُمْ أُمَّةً مِّن قَبْلِكُمْ ، وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَنْ يَبْلُغَ الْأُمَمِينَ)

[١٩] (أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ، إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ۖ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً » أى هذه الحادثة الهائلة موعظة « لِلْعَالَمِينَ * وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا » أى كذبا، فى تسميتها آلهة وشركاء لله ، وشفعاء إليه « إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَأَشْكُرُوا لَهُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَإِن

تُكذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ، وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ» أى التبليغ الذى يزيل كل لبس وما عليه أن يصدقه قومه «أَوْ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ-» إرشاد إلى إثبات المعاد الذى ينكرونه مع وضوح دليله ، وذلك بما يشاهدونه فى أنفسهم من خلق الله إياهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً، ثم وجدوا ووصاروا أناساً سامعين مبصرين . فالذى بدأ هذا ، قادر على إعادته . فإنه سهل عليه ، يسير لديه . فقوله تعالى (ثُمَّ يُعِيدُهُ) عطف على (أو لم يروا) لاعلى (يبدئ) لعدم وقوع الرؤية عليه . فهو إخبار بأنه تعالى يعيد الخلق قياساً على الابتداء . وقد جوز العطف على (يبدئ) بتأويل (الإبداء) بإبداء ما يشاهده ، كالنبات وأوراق الأشجار وغيرها . والإعادة بإنشائه تعالى كل سنة ، مثل ما أنشأه فى السنة السابقة من النبات والثمار وغيرها . فإن ذلك مما يستدل به على صحة البعث ووقوعه من غير رب . فيصح حينئذ العطف .

قال الشهاب : لكنه غير ملاق لما وقع فى غير هذه الآية .

قال : وبهذا التقرير سقط ما قيل : إن أريد بالرؤية العلم فكلاهما معلوم . وإن أريد الإبصار فهما غير مرئيين . مع أنه يجوز أن يجعل ما أخبر به الله تعالى لتحقيقه ، كأنه مشاهد «إِنَّ ذَلِكَ» أى ما ذكره ، وهو الإعادة «عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ» .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ، ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ

النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

[٢١] (يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ ، وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ)

[٢٢] (وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ، وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ

مِن وَّلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ)

[۲۳] (وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَسُؤُونَ مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

[۲۴] (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

« قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ » أى كيف خلقهم ابتداء على أطوار مختلفة وطبائع متغايرة وأخلاق شتى. فإن ترتيب النظر على السير فى الأرض، مؤذن بتتبع أحوال أصناف الخلق القاطنين فى أقطارها « ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ » أى الخلق الآخر « إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ » أى بعد النشأة الثانية، وهم المنكرون لها « وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ » وهم المؤمنون بها « وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ * وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ » أى بالتوارى فى الأرض، ولا بالتحصن فى السماء التى هى أفسح منها، لو استطعم الرقى فيها. أو القلاع الذاهبة فيها. فىكون المراد بالسماء ما ارتفع. وقيل : المعنى (ولا من فى السماء) فحذف اسم الموصول وهو مبتدأ محذوف الخبر . والتقدير (ولا من فى السماء بمعجزه) والجملة معطوفة على جملة (أنتم بمعجزين) وفيه تكلف وضعف صناعى « وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ » أى يدافع عنكم ما يراد بكم « وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَسُؤُونَ مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » ثم أشار تعالى إلى ما أحاب به قوم إبراهيم، بعد دعوته إياهم وعظاته البالغة، بقوله « فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ لَّصِيرِينَ)

[٢٦] (فَأَمِّنْ لَهُو لُوطٌ ، وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي ، إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[٢٧] (وَوَهَبْنَا لَهُو إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ

وَءَاتَيْنَاهُ أَجْرَهُو فِي الدُّنْيَا ، وَإِنَّهُو فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ)

[٢٨] (وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ لَتَأْتُنَّ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا

مِنَ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ)

[٢٩] (أَلَيْسَ لَكُم لَتَاتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ

الْمُنْكَرَ ، فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ

إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)

« وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » أى

لتتوادوا بينكم وتتواصلوا، لاجتماعكم على عبادتها « ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ

وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا » أى تتجاحدون ما كان بينكم، ويلعن الأتباعُ المتبوعين، والمتبوعون

الأتباع . كما قال تعالى^(١) : (كَلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا) وقال تعالى^(٢) (الْأَخْلَافُ

يَوْمَئِذٍ مِّنْ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَمِّينَ) « وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ

لَّصِيرِينَ » .

(١) [٧ / الأعراف / ٣٨] . (٢) [٤٣ / الزخرف / ٦٧] .

تنبيه :

قال السمين : في (ما) من قوله تعالى (إِنَّمَا أُتَّخَذْتُمْ) ثلاثة أوجه :

أحدها - أنها موصولة بمعنى (الذى) والعائد محذوف ، وهو المفعول الأول و (أَوْثَانًا) مفعول ثان . والخبر (مودة) في قراءة من رفع . والتقدير : إن الذى اتَّخَذْتُمُوهُ أَوْثَانًا مودة ، أى ذو مودة ، أو جعل نفس المودة مبالغة . ومحذوف على قراءة من نصب (مودة) أى : الذى اتَّخَذْتُمُوهُ أَوْثَانًا لأجل المودة لا ينفعكم ، أو يكون عليكم ، لدلالة قوله (ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ) .

والثانى - أن تجعل (ما) كافة و (أَوْثَانًا) مفعول به . و (الاتخاذ) ههنا متعمد لواحد . أو لاثنتين ، والثانى هو (من دون الله) فن رفع (مودة) كانت خبر مبتدأ مضمرة ، أى هى مودة أى ذات مودة . أو جعلت نفس المودة مبالغة . والجملة حينئذ صفة لـ (أَوْثَانًا) أو مستأنفة . ومن نصب كان مفعولاً له ، أو بإضمار (أعنى) .

الثالث - أن تجعل (ما مصدرية ، وحينئذ يجوز أن يقدر مضاف من الأول . أى : أن سبب اتخاذكم أَوْثَانًا مودة ، فيمن رفع (مودة) ويجوز أن لا يقدر ، بل يجعل نفس الاتخاذ هو المودة مبالغة . ومن القراء من رفع (مودة) غير منونة وجرّ (بينكم) ومنهم من نصب (مودة) منونة ونصب (بينكم) ومنهم من نصب (مودة) منونة وجرّ (بينكم) . فالرفع تقدم . والنصب تقدم أيضاً فيه وجهان . وجوز ثالث ، وهو أن يجعل مفعولاً ثانياً عن المبالغة والإضافة ، للاتساع في الظرف .

ونقل عن عاصم أنه رفع (مودة) غير منونة ونصب (بينكم) وخرجت على إضافة (مودة) للظرف . وإنما بنى لإضافته إلى غير متمكن . ١٠ هـ .

وأشار العلامة القاشانى إلى جواز أن يكون قوله تعالى (فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) خبراً لـ (ما) إن كانت اسمية . وهو وجه لم يتعرض له العربون هنا ، ولا مانع منه . وعبارته :

إنما اتخذتم من دون الله، شيئاً عبدتموه مودوداً فيما بينكم (في الحياة الدنيا) أو: إن كل ما اتخذتم من دون الله، شيئاً مودوداً فيما بينكم في الحياة الدنيا، أو: إن كل ما اتخذتم أوأنا مودود في هذه الحياة الدنيا. أو لمودة بينكم في هذه، على القراءتين.

ثم قال: والمعنى أن المودة قسمان: مودة دنيوية، ومودة أخروية. والدنيوية منشؤها النفس، والأخروية منشؤها الروح. فكل ما يحب ويودّ من دون الله، لا لله ولا بحسبة الله، فهو محبوب بالمودة النفسية. وهو هوى زائل، كلما انقطعت الوصلة البدنية زالت ولم تصل إلى إحدى القيّامات، فإنها نشأت من تركيب البدن واعتدال المزاج. فإذا انحلت التركيب وانحرف المزاج، تلاشت وبقى التضادّ والتعاند، بمقتضى الطبائع، لقوله تعالى (ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ) الآية. ولهذا شبهها ببيت العنكبوت في الوهن.

وأما الأخروية فنشؤها المحبة الإلهية. وتلك المودة هي التي تكون بين الأصفياء والأولياء، لتناسب الصفات، وتجانس الذوات، لاتصنفي غاية الصفاء إلا عند زوال التركيب. فيصير يوم القيامة محبة صافية الهيئة، بخلاف تلك. انتهى.

« قَأْمَنَ لَهُو » أى صدق إبراهيم فيما دعاه إليه « لُوْطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ » أى من أرض قومي « إِلَىٰ رَبِّي » أى لا إلى غيره بل إلى عبادته وإقامة شعائر دينه والقيام بدعوة الخلق إلى الحق من شرعه وتوحيده « إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَوَهَبْنَا لَهُو » أى لإبراهيم « إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ » أى ولداً ونافلة، بباركة الذرية « وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَءَاتَيْنَاهُ أَجْرَهُو فِي الدُّنْيَا » أى بإيتاء الولد والذرية الطيبة واستمرار النبوة فيهم وانباء أهل الملك إليه والثناء إلى آخر الدهر والصلاة عليه « وَإِنَّهُو فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ مَآ أَنكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ » أى الفعلة المتناهية في القبح « مَآ سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ » أى لتحاشى الطباع عنها. ثم فصلها بعد الإجمال، لزيادة تنفير النفوس منها « أَيْنَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقَاطِعُونَ السَّبِيلَ » أى سبيل النسل بإتيان ما ليس بحرث.

أو بعمل قطاع الطريق من قتل الأنفس وأخذ الأموال « وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ الْمُنْكَرَ » أى
مالا يليق من الأقوال والأفعال « فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتِنَّا بِعَذَابِ
اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ » :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ)

[٣١] (وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ
الْقَرْيَةِ ، إِنْ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ)

[٣٢] (قَالَ إِنْ فِيهَا لُوطًا ، قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا ، لَنَنْجِيَنَّهٗ وَأَهْلَهُ
إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ وَكَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ)

[٣٣] (وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ
وَلَا تَحْزَنْ ، إِنَّا مُنْجِيكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أُمَّرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ)

« قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ » أى الذين يفسدون كل برهان عقلى ونقلى ،
وكل حكمة إلهية « وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى » أى بالبخارة بالولد والنافلة ،
وهم الملائكة . بعثوا لنصر لوط وتبشير بهلاك قومه « قَالُوا » أى لإبراهيم عليه السلام
« إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ » أى قرية سدوم « إِنْ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ » أى
بتزليلهم الرجال منزلة النساء ، وقطع السبل ، وفعل المنكر وترك المعروف « قَالَ إِنْ فِيهَا لُوطًا
قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهٗ وَأَهْلَهُ » إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ وَكَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ « أى الباقين
فى العذاب أو القرية « وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا » أى المذكورون بعد مفارقتهم لإبراهيم عليه
السلام « لُوطًا سِيءَ بِهِمْ » أى اعترته الساء بسببهم مخافة أن يقصدوهم « وَضَاقَ بِهِمْ

ذَرَعًا» أى ضاق بشأنهم ذرعه ، أى طاقته « وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُونَكَ وَأَهْلَكَ » أى مما يصيبهم من العذاب « إِلَّا أَمْرًا نَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَيْبِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ)

[٣٥] (وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً كَبِيرَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

[٣٦] (وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَلْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ

وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)

[٣٧] (فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ)

[٣٨] (وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِّن مَّسْكِنِهِمْ ، وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ

أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ)

« إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ » أى عذابا عظيما من جهتها

« بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ » * ولقد تركنا منها آية كبرى بيينة لقوم يعقلون « يعنى قصتها العجيبة ،

أو آثارها الحربة » (وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَلْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ »

أى توقعوه ، وما سيقع فيه من فنون الأهوال « وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ » أى بالبنى

على أهلها ، كنفص المكيال والميزان ، وقطع الطريق على الناس ، فإن عاقبة ذلك الدمار « فَكَذَّبُوهُ

فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ » أى الصيحة التى هى منشأ الزلزلة الشديدة « فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ » أى بلدهم

أو منازلهم « جِثِيمِينَ » أى هلكى ميتين « وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِّن مَّسْكِنِهِمْ

وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ » أى عقلاء

متمكنين من النظر والافتكار بواسطة الرسل عليهم السلام ، فإنهم أوضحوا السبل ، فلم يكن

لهم فى ذلك عذر ، ولكنهم لم يفعلوا ، عنادا وكبرا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (وَقَرُونِ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ ، وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَسْتَكْبَرُوا

فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ)

[٤٠] (فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ ، فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّن

أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَن أَغْرَقْنَا ،

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

« وَقَرُونِ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ

وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ » أى فأتين الله سبحانه. بل لحقهم عذابه فدمروهم تدميراً. ولذا قال « فَكَلَّا

أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا » أى ريحاً عاصفاً، فيها حصباء، وهم قوم

لوط « وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ » كعدين وثمود « وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ »

كقارون « وَمِنْهُمْ مَن أَغْرَقْنَا » كقوم نوح وفرعون وقومه « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ

وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » أى بفعل ما يوجب ذلك ، من البغى والفساد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ ، اتَّخَذَتْ

يَتًّا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْيَبُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

[٤٢] (إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[٤٣] (وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ)

[٤٤] (خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ)

« مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ يَتًّا » أى

تعتمد على قوته وتظنه محيطاً بها، دافعاً عنها الحرّ والبرد « وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ » أى أضعفها « لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ » أى لأنه لا يحتمل مسّ أدنى الحيوانات وأضعف الرياح . ولا يدفع شيئاً من الحرّ والبرد . وهذا مثلهم «لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ» أى شيئاً ما . أو إن أولياءهم أوهى من ذلك ثم الغرض من التشبيه هو تقرير وهن دينهم ، وإنه بلغ الغاية فيه ، وهو إما تشبيه مركب من الهيئة المنزعة، فدار قطب التمثيل على أن أولياءهم بمنزلة نسج العنكبوت في ضعف الحال وعدم الصلاحية للاعتماد . وعلى هذا فقوله (وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ) تذييل يعرف الغرض من التشبيه . وقوله (لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) إيغال في تجهيلهم . لأنهم لا يعلمونه مع وضوحه لدى من له أدنى مسكة . وإما أن يكون من تشبيه المفرد، لأن المقصود بيان حال العابد والمعبود . وفي الآية لطائف بيانية ذكرت في المطولات . وقوله «إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ» بالياء والتاء في (تدعون) قراءتان . و (ما) إما استفهامية منصوبة بـ (يدعون) و (من) الثانية للتبيين . أو نافية و (من) مزيدة . و (شئ) مفعول (تدعون) أو مصدرية بمعنى الدعوة و (شئ) مصدر بمعناه أيضاً . أو موصولة مفعول (يعلم) ومفعول (يدعون) عائدة المحذوف . والكلام على الأولين تجهيل لهم وتوكيد للمثل . وعلى الآخرين وعيد لهم . أفاده القاضي « وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ » يعنى هذا المثل ونظائره في التنزيل « نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ » أى ليقرب ما بعد من أفهامهم . فإن الأمثال والتشبيهات طرق تبرز فيها المعانى المحتجبة للأفهام « وَمَا يَعْقِلُهَا » أى يدرك حسنها وفوائدها « إِلَّا الْعَالِمُونَ » أى الراسخون في العلم الكاملون فيه . وعن عمرو بن مرة قال: ما مررت بأية من كتاب الله لا أعرفها، إلا أحزنتني . لأنى سمعت الله تعالى يقول (وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ) « خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ » أى محققاً مراعيّاً للحكم والمصالح، مقدساً عن أن يقصد به باطلا . فالباء للملابسة ، والجار والمجرور حال . وهذا كقوله تعالى (١) (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ) « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (أُنزِلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ، إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ

عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ، وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ)

[٤٦] (وَلَا تَجِدُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا

مِنْهُمْ ، وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ

وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)

«أُنزِلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ» أى تقر بالى الله تعالى بقراءته، وتحفظاً لألفاظه،

واستكثاراً لما فى تضاعيفه من المعانى. فإن القارى المتأمل قد ينكشف له بالتكرار ما لم ينكشف

له أول ما قرع سمعه. وتذكيراً للناس، وجملاً لهم على العمل بما فيه، من الأحكام ومحاسن

الآداب ومكارم الأخلاق « وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ » أى

تكون سبباً للاتهام عن ذلك. فمفيه تجوز فى الإسناد. فإن قلت: كم من مصلٍ يرتكب ولا

تمناه صلاته ! قلت: الصلاة التى هى الصلاة عند الله، المستحق بها الثواب، أن يدخل فيها

مقدماً للتوبة النصوح متقياً، لقوله تعالى (إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ) ويصلبها خاشعاً

بالقلب والجوارح. ثم يحوطها بعد أن يصلبها، فلا يحبطها، فهى الصلاة التى تنهى عن

الفحشاء والمنكر. وعن ابن عباس رضى الله عنهما: من لم تأمره صلاته بالمعروف، وتنهى

عن المنكر، لم يزد بصلاته من الله إلا بعداً.

عن الحسن رحمه الله: من لم تنهى صلاته عن الفحشاء والمنكر، فليست صلاته بصلاة،

وهى وبالعليه. أفاده الزمخشري. وقوله تعالى «وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ»

قال الزمخشري: أى: وللصلاة أكبر من غيرها من الطاعات، وسماها بذكر الله، كما قال (١)

(١) [٦٢ / الجمعة / ٩] .

(فَأَسْمِعُوا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ) وإنما قال (ولذکر الله) ليستقل بالتعليل. كأنه قال: وللصلاة أكبر، لأنها ذكر الله. أو: ولذکر الله عند الفحشاء والمنكر، وذکر نبيه عنهما ووعيده عليهما، أكبر. فكان أولى بأن ينهي من اللطف الذي في الصلاة. وعن ابن عباس رضى الله عنهما، ولذکر الله إياكم برحمته، أكبر من ذکرکم إياه بطاعته. انتهى. (فذکر) على الأولين مصدر مضاف للمفعول. وعلى ما بعدها مضاف للفاعل، والمفعول محذوف. والمفضل عليه في الأولين غيره من الطاعات. وفي الأخير قوله (من ذکرکم).

وقال الرازى: لما ذكر تعالى أمرين، وهما تلاوة الكتاب وإقامة الصلاة، بين ما يوجب أن يكون الإتيان بهما على أبلغ وجوه التعظيم، فقال (وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ) وأتم إذا ذكركم آباءكم بما فيهم من الصفات الحسنة، تنبشون لذلك وتذكرونهم بعلء أفواهكم وقلوبكم. لكن ذكر الله أكبر، فينبغي أن يكون على أبلغ وجه التعظيم. وأما الصلاة فكذلك. لأن الله يعلم ما تصنعون. وهذا أحسن صنعكم. فينبغي أن يكون على وجه التعظيم. وفي قوله (وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ) مع حذف بيان ما هو أكبر منه، لطيفة. وهى أن الله لم يقل: أكبر من ذكر فلان، لأن ما نسب إلى غيره بالكبر فله إليه نسبة. إذ لا يقال الجبل أكبر من خردلة وإنما يقال: هذا الجبل أكبر من هذا الجبل. فأسقط المنسوب كأنه قال (ولذکر الله له الكبر لا غيره) وهذا كما يقال في الصلاة (الله أكبر) أى له الكبر لا غيره. انتهى.

ولما بين تعالى طريقة إرشاد المشركين، ونفع من انتفع، وحصول اليأس ممن امتنع، بين طريقة إرشاد أهل الكتاب بقوله «وَلَا تُجَدِّلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ» أى بالخصلة التى هى أحسن. وهى اللين والأناة «إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ» أى بالاعتداء، بأن أخشوا في المقال وأقدعوا في الجدال، فلا حرج في مقابلتهم بالعنف، لتكبيهم عن جادة اللطف. وهذا كما قال تعالى^(١) «لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَاءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلِمَ» وهذه الآية أصل في آداب المناظرة والجدل «وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ

(١) [٤ / النساء / ١٤٨].

وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ» أى مطيعون له خاصة . وفيه تعريض باتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله .

قال ابن كثير : يعنى إذا أخبروا بما لا يعلم صدقه ولا كذبه ، فهذا لا يقدم على تكذيبه ، لأنه قد يكون حقا . ولا على تصديقه ، فاعلمه أن يكون باطلا . ولكن يؤمن به إيمانا مجملا معلقا على شرط . وهو أن يكون منزلا ، لا مبدلا مؤولا . وروى البخارى^(١) عن أبي هريرة قال : كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام . فقال رسول الله ﷺ : لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم . وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون . وهذا الحديث تفرد به البخارى .

وروى الإمام أحمد^(٢) عن أبي نعمة الأنصارى مرفوعا : إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم . وقولوا آمنا بالله وكتبه ورسله . فإن كان حقا لم تكذبوهم ، وإن كان باطلا لم تصدقوهم . ثم ليعلم أن أكثر ما يتحدثون به غالبه كذب وبهتان . لأنه قد دخله تحريف وتبديل وتغيير وتأويل . وما أقل الصدق فيه . ثم ما أقل فائدة كثير منه ، لو كان صحيحا .

روى البخارى^(٣) عن ابن عباس قال : كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء ، وكتابكم الذى أنزل إليكم على رسول الله ﷺ أحدث . تقرؤونه محضا لم يشب . وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا وغيروا ، وكتبوا بأيديهم الكتاب ، وقالوا : هذا من عند الله ليشتروا

(١) أخرجه فى : ٩٦ - كتاب الاعتصام ، ٢٥ - باب قول النبي ﷺ : لا تسألوا أهل

الكتاب عن شيء ، حديث ١٩٦٦

(٢) أخرجه بالصفحة رقم ١٣٦ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

(٣) أخرجه فى : ٥٢ - كتاب الشهادات ، ٢٩ - باب لا يسأل أهل الشرك عن الشهادة

وغيرها ، حديث رقم ١٣٠٠

به ثمناً قليلاً . ألا إنها كم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم ؟ لا ، والله ! ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذي أنزل عليكم .

وقال البخاري^(١) : وقال أبو اليمان : أخبرنا شعيب عن الزهري . أخبرني حميد بن عبد الرحمن أنه سمع معاوية يحدث رهطاً من قريش بالمدينة . وذكر كعب الأخبار فقال : إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب . وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب . معناه أنه يقع منه الكذب من غير قصد . لأنه يحدث عن صحف هو يحسن بها الظن ، وفيها أشياء موضوعة ومكذوبة . لأنهم لم يكن في ملتهم حفاظ متقنون كهذه الأمة العظيمة . ومع ذلك ، وقرب العهد ، وضعت أحاديث كثيرة في هذه الأمة ، لا يعلمها إلا الله عز وجل . ومن منحه الله علماً بذلك . كل بحسبه . والله الحمد والمنة . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ ، فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ

بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ، وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ)

[٤٨] (وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ وَبِمِيمِنِكَ ، إِذَا

لَارْتَابَ الْمُبِطُونَ)

« وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ » أي : مثل ذلك الإنزال ، أنزلنا إليك الكتاب .

أي أنزلناه مصداقاً لسائر الكتب السماوية « فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ » أي العرب « مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ * وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ وَبِمِيمِنِكَ » أي فإن ظهر هذا الكتاب الجامع لما

(١) أخرجه في : ٩٦ - كتاب الاعتصام ، ٢٥ - باب قول النبي ﷺ : لا تسألوا أهل

الكتاب عن شيء ، حديث ٢٥٩٥

يكفل سعادة الدارين في شرائعه وقضاياه ، على أمي لم يعرف بالقراءة والتعلم ، خارق للعادة .
 وذكر اليمين زيادة تصوير للمنفى ، ونفى للتجاوز في الإسناد « إِذَا لَأَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ » أى
 لو كنت ممن يخط ويقرأ ، لقالوا : لعله تعلمه أو كتبه بيده ، من كتب مأثورة عن الأنبياء .
تنبيه :

قال السيوطي في (الإكليل) : في هذه الآية دليل على أنه ﷺ كان أميا لا يقرأ ولا
 يكتب . وفيها ردّ على من زعم أنه كتب . انتهى .

وقال ابن كثير : وهذه صفته في الكتب المتقدمة . كما قال تعالى (١) (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ
 الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ « الآية .
 وهكذا كان رسول الله ﷺ داعما لا يحسن الكتابة ولا يخط سطرًا ولا حرفًا بيده . بل كان له كتابٌ
 يكتبون بين يديه الوحي والرسائل إلى الأقاليم . ومن زعم ، من متأخري الفقهاء ، كالقاضي ابن
 الوليد الباجي ومن تابعه ، أنه عليه السلام كتب يوم الحديبية : هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد
 الله . فإما حمله على ذلك رواية (٢) في صحيح البخاري (ثم أخذ فكتب) وهذه محمولة على
 الرواية الأخرى (ثم أمر فكتب) ولهذا اشتد الفكير من فقهاء المشرق والمغرب على من
 قال بقول الباجي ، وتبرأوا منه وأنشدوا في ذلك أقوالا وخطبوا به في محافلهم . وإنما أراد الرجل أعنى
 الباجي فيما يظهر عنه . أنه كتب ذلك على وجه المعجزة . لأنه كان يحسن الكتابة . وما أورده بعضهم
 من الحديث ؛ أنه لم يمت ﷺ حتى تعلم الكتابة ، فضعيف لا أصل له . انتهى .

وقال الشهاب : وممن ذهب إلى أنه كان يحسن الكتابة ، أبو ذرّ الهروي وأبو الفتح
 النيسابوري وأبو الوليد الباجي من المغاربة . وصنف فيه كتابا ، وسبقه إليه ابن منبه . ولما
 قال أبو الوليد ذلك ، طعن فيه ورمى بالزندقة وسب على المنابر ، ثم عقد له مجلس فأقام الحجة

(١) [٧ / الأعراف / ١٥٧] .

(٢) أخرجه في : ٥٤ - كتاب الشروط ، ١٥ - باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع

أهل الحرب ، وكتابة الشروط ، حديث ٨٨١ و٨٨٢ عن المسور بن مخرمة ومروان .

على مدعاه وكتب به إلى علماء الأطراف . فأجابوا بما يوافقه . وأن معرفة الكتابة بعد أميته
لاتنافى المعجزة . بل هي معجزة أخرى ، لكونها من غير تعليم . ورد الإمام محمد بن مفضل
كتاب الباجي لما في الحديث الصحيح^(١) (إنا أمة أمية لانكتب ولا نحسب) وقال : كل
ماورد في الحديث من قوله (كتب) فعناه أمر بالكتابة . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (بَلْ هُوَ آيَةٌ بَيِّنَةٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ، وَمَا يَجْحَدُ
بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ)

[٥٠] (وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ، قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ
وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ)

« بَلْ هُوَ » أي القرآن « آيَةٌ بَيِّنَةٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ » أي العلماء به
وحفاظه . وها من خصائص القرآن كون آياته بينات الإعجاز ، وكونه محفوظا في الصدور ،
يتلوه أكثر الأمة ظاهرا . بخلاف سائر الكتب . فإنها لم تكن معجزات ، وما كانت تقرأ
إلا من المصاحف . ومنه ما جاء في صفة هذه الأمة (صدورهم أناجيلهم) . كذا في الكشف .
« وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ * وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ » يعنون
ما كانوا يقترحونه في تعنتهم « قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ » أي هو يملك إنزالها ، ولو شاء
لفعل « وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ » أي ليس من شأني إلا الإنذار وإبانتته ، لا الإتيان بما تقترحونه .
ثم أشار إلى أن في آية تنزيل الكتاب ، غنية عن كل آية مقترحة . لما أن الدور انقلب من
الآيات الآفاقية ، إلى الآيات العلمية ، وفاقا لسنة الترقى ، بقوله سبحانه :

(١) أخرجه البخاري في : ٣٠ - كتاب الصوم ، ١٣ - باب قول النبي ﷺ : لانكتب

ولا نحسب ، حديث ٩٦٨ ، عن ابن عمر

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥١] (أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

[٥٢] (قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ يَدِّي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ، يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

[٥٣] (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ ، وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

[٥٤] (يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ)

[٥٥] (يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُو قُوَّةٍ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

[٥٦] (يَٰعِبَادِیَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَاعْبُدُونِ)

« أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ » أي آية مغنية عما اقترحوه « أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ » أي وفيه نفسه من الآيات والمعجزات ما لا يرتاب معه إلا من سفه نفسه ، وكابر حسه « إِنَّ فِي ذَٰلِكَ » أي الكتاب الذي هو آية مستمرة وحجة بالغة ظاهرة « لَرَحْمَةً » أي لنعمة عظيمة في هدايته إلى الحق وإلى صراط مستقيم « وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » أي تذكرة لقوم ، همهم الإيمان دون التعنت « قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ يَدِّي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا » أي إني قد بلغتكم ما أرسلت به إليكم وأنذرتكم ، وإنكم قابلتموني بالجحد والتكذيب . يعني . كفي علمه بذلك . وجوز أن يكون المعنى شهيدا بصدق بالتأييد والحفظ ، أي هو شاهد على ماجئت به ، مصدق له تصديق الشاهد لدعوى المدعى .

قال ابن كثير : أى فلو كنت غير محقّ ، لا نتقم منى ، كما قال تعالى (١) (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * إِلَّا خَدْنَا مِنْهُ بِأُلْمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ) وإنما أنا صادق عليه فيما أخبرتكم به . ولهذا أيدنى بالمعجزات الواضحات والدلائل القاطعات . انتهى « يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى فلا يخفى عليه حالى وحالكهم « وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ * وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ » أى استهزاء « وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى » أى لكل عذاب أو قوم ، وهو وقته المعين له فيهما « لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ » أى عاجلا « وَكَيْلًا بَيْنَهُمْ بَعْتَهُ » أى فجأة فى الدنيا . كوقعة بدر . فقد كانوا انزعاجهم لا يتوقعون غلبة المسلمين . أو فى الآخرة عند نزول الموت بهم (يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ » أى استحيط بهم . أى يستعجلونك بالعذاب وهو واقع بهم لا محالة . أو هى كالمحيطه بهم . لأن كل آت قريب . « يَوْمَ يَعْشَمُهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمَنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُفْتُمْ تَعْمَلُونَ » أى جزاءه « يَعْبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعِبُدُونِ » هذا خطاب لمن لم تمكنه عبادته تعالى وحده فى أرضه ، لإيذائه فى الله واضطهاده فى جانبه ، أن يهاجر عنها إلى بلد ما ، يقدر أنه فيه أسلم قلبا ، وأصح دينا ، وآمن نفسا . وأن يتجنب المقام فى بلده على تلك الحالة ، كيلا يفتنه الكافرون . أو يعرض نفسه للتهلكة ، وقد جعل له منها مخرج . وكون أرض الله واسعة ، مذكور للدلالة على المقدر . وهو كالتوسط لما بعده . لأنها مع سمعتها ، وإمكان التفسح فيها ، لا يبنى الإقامة بأرض لا يتيسر بها للمرء ما يريد . كما قيل : * وكل مكان ينبت العزطيب * . وقال آخر :

إذا كان أصلى من ترابٍ فسكّها بلادى ، وكلّ العالمين أقاربي

(١) [٦٩ / الحاقة / ٤٤ - ٤٧] .

وقد روى الإمام (١) أحمد عن الزبير: قال: قال رسول الله ﷺ: البلاد بلاد الله، والعباد عباد الله . فخيماً أصبت خيراً فأقم . ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم، خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة ليأمنوا على دينهم هناك فوجدوا خير نزل بها، عند ملكها النجاشي رحمه الله . ثم بعد ذلك هاجر رسول الله ﷺ وأصحابه الباقون إلى المدينة المنورة ، عملاً بالآية الكريمة . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ)

[٥٨] (وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، نِعَمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ)

[٥٩] (الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)

[٦٠] (وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

[٦١] (وَلَن سَأَلْتَهُم مِّنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاَسْخَرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ ، فَاَنىٰ يُوَفَّقُونَ)

« كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ » تحريض على العبادة وإخلاص الدين بتذكير الموت والرجوع . أو تسلية للمهاجر إلى الله ، وتشجيع له ، بأن لا يثبطه عن هجرته خوف الموت بسببها . فلا المقام بأرضه يدفعه ، ولا هجرته عنه تمنعه . وفيه استعارة بديعة لتشبيهه

(١) أخرجه في مسنده بالصفحة ١٦٦ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ١٤٢٠

(طبعة المعارف) .

الموت بأمر كرهه الطعم، مره « وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * الَّذِينَ صَبَرُوا » أى على مفارقة الأوطان والهجرة لأجل الدين. وعلى أذى المشركين وعلى الحن والمصائب « وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » ثم أشار تعالى إلى كفالته لمن هاجر إليه، من الفقر والضيعة، بقوله سبحانه « وَكَأَيِّنْ » أى: وكم « مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا » أى لا تطيق أن تحمله لضعفها عن حمله « اللَّهُ يُرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ » أى يقيض لها رزقها على ضعفها، ويرزقكم مع قوتكم واجتهادكم. فهو اليسر والمسهل لكل مخلوق من رزقه ما يصاحبه . فلا يختص رزقه ببقعة دون أخرى، بل خيره عام وفضله شامل لخلقه ، حيث كانوا وأنى وجدوا. وقد ظهر مصداق كفالته تعالى لأولئك المهاجرين ، بما وسع عليهم وبسط لهم من طيب الرزق ورغد العيش وسيادة البلاد فى سائر الأمصار. وهذا معنى ماورد من فوعا (سافروا تصحوا وتغنموا) رواه البيهقي « وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ » يعنى هؤلاء المشركين الذين يعبدون معه غيره « مِّنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ » أى اعترافا بأنه المنفرد بخلقها « فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ » أى فكيف مع هذا الاعتراف يصرفون عن عبادته وحده، ويشركون بها ما لا يضر ولا ينفع . وكثيرا ما يقرر تعالى مقام الإلهية بالاعتراف بتوحيد الربوبية . وقد كان المشركون يعترفون بذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٦٢] (اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

[٦٣] (وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مِّن نَّزَلٍ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا

لَيَقُولَنَّ اللَّهُ، قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ)

[٦٤] (وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ، وَإِنَّ الْأُخْرَةَ لَهِيَ

الْحَيَاةُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

«اللَّهُ يُبْسِطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» أى فيفعل بعلمه ، ما تقتضيه حكمته . « وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مِّن نَّزَلٍ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِّن بَعْدِ مَوْتِهَا لِيَقُولَنَّ اللَّهُ ، قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ » أى على أن جعل الحق بحيث لا يجترأ المبطلون على جحوده . وأنه أظهر حججك عليهم . والمعنى : حمد الله عند جوابهم المذكور على إلزامهم وظهور نعم لا تحصى « بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ » أى فلذلك يتناقضون حيث ينسبون النعمة إليه ، ويعبدون غيره . وقوله « وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ » إشارة إلى ازدياد الدنيا وتحقير شأنها ، وكونها في سرعة زوالها ، وتقضى أمرها ، كما يلهى ويلعب به الصبيان ، ثم يتفرقون عنه . ولا ثمرة إلا التعب . ففي الحصر تشبيهه بليغ « وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ » أى دار الحياة الخالدة . ففيه مضاف مقدر . و(الحيوان) مصدر سمي به ذو الحياة ، في غير هذا المحل . وإيثاره على (الحياة) لما فيه من المبالغة . لأن (فعلان) بالفتح في المصادر الدالة على الحركة « لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » أى لم يؤثر وأعلما الدنيا التي حياتها عارضة . وهذا جواب الشرط المقدر ، لعلمه من السياق . وكونها للتمنى بعيد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ)

[٦٦] (لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)

[٦٧] (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ،

أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ)

« فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ » أى الدعاء . لعلمهم أنه لا ينجيهم من الفرق سواه « فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ » أى من

نعمة النجاة وريح التجارة « فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ » أى عاقبة ذلك حين يعاقبون « أَوَلَمْ يَرَوْا »
 أى أهل مكة « أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا » أى لا يُغزى أهله، ولا يغار عليهم، مع قلتهم وكثرة
 العرب « وَيَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ » أى يختلسون قتلا ونهبا وسبيا « أَفَبِمَا لَبِطُوا
 يَوْمِنُوعًا وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ » أى: أفبعد هذه النعمة الظاهرة وغيرها من النعم، التى لا يقدر
 عليها إلا الله تعالى ، يكفرون خيره ، ويشركون معه غيره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ،

أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ)

[٦٩] (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ، وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

« وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا » بأن زعم أن له شريكا « أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ
 لَمَّا جَاءَهُ » يعنى الرسول أو الكتاب « أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ » أى موضع
 إقامة ، جزاء افتراءهم وكفرهم . بلى « وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا » أى جاهدوا النفس
 والشيطان والهوى وأعداء الدين ، من أجلنا ولوجهنا « لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا » أى سبل السير
 إلينا والوصول إلى جنابنا . وذلك بالطاعات والمجاهدات « وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ » أى:
 أعمالهم بالنصر والمعونة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٠ - سُورَةُ الرَّوْمِ

قال المهايي : سميت بها لاشتمال قصتها على معجزة تفيد للمؤمنين فرحا عظيما ، بعد طرح يسير . فتبطل شماتة أعدائهم . وتدل على أن عاقبة الأمر لهم . وهذا من أعظم مقاصد القرآن .
وهي مكية . وآياتها ستون آية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

- [١] (الْمَ)
- [٢] (غَلَبَتِ الرُّومُ)
- [٣] (فِي آدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ)
- [٤] (فِي بَضْعِ سِنِينَ ، لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ، وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ)
- [٥] (بِنَصْرِ اللَّهِ ، يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)
- [٦] (وَعَدَّ اللَّهُ ، لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)
- « الْمَ غَلَبَتِ الرُّومُ * فِي آدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بَضْعِ سِنِينَ » اتفق المؤرخون من المسلمين وأهل الكتاب على أن ملك فارس كان غزا بلاد الشام وفتح دمشق وبيت المقدس ، الأولى سنة ٦١٣ ، والثانية سنة ٦١٤ . أى قبل الهجرة النبوية بسبع سنين - فحدث أن بلغ الخبر مكة . ففرح المشركون وشتتوا بالمسلمين ، وقالوا : أنتم والنصارى أهل كتاب . ونحن وفارس وثنيون . وقد ظهر إخواننا على إخوانكم . ولنظهن عليكم . فنزلت الآية ، فتليت على المشركين . فأحال وقوع ذلك بعضهم . وتراهن مع الصديق رضى الله عنه على مائة قلوص ، إن وقع مصداقها . فلم يعض من البضع - وهو ما بين الثلاث إلى التسع - سبع سنين إلا وقد نظم هرقل جنود الروم وغزا بهم بلاد فارس سنة ٦٢١ . أى قبل الهجرة بسنة . فدوخوا ، واضطر ملكها للهرب . وعاد هرقل بالغنائم الوافرة . ولا ريب أن ذلك أعظم معجزات القرآن . أعنى إخباره عن غيب وقع مصداقه ،

واستبان للجاحدين من نوره إشراقه . وفي ضمنه، أن سائر غيوبه كذلك من ظهور الإسلام على الدين كله ، وزهوق الباطل ، وعلو الحق ، وجعل المستضعفين أئمة ، وإيراثهم أرض عدوهم، إلى غير ذلك . وما أطف ما قال الزبير الكلابي : رأيت غلبة فارس الروم . ثم رأيت غلبة الروم فارس . ثم رأيت غلبة المسلمين فارس والروم . كل ذلك في خمس عشرة سنة - من أواخر غلبة فارس إلى أوائل غلبة المسلمين - والأرض (كما قال الزمخشري) أرض العرب . لأن الأرض اليهودية عند العرب أرضهم . والمعنى : غلبوا في أذن أرض العرب أي أقربها منهم ، وهي أطراف الشام « لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ » أي من قبل غلبة فارس على الروم « وَمِنْ بَعْدُ » أي من بعد غلبة الروم على فارس . ويقال : لله العلم والقدرة والمشيئة من قبل إبداء الخلق ، ومن بعد إفناء الخلق . والمعنى : أن كلا من كونهم مغلوبين أولاً ، وغالبين آخراً ، ليس إلا بأمره وقضائه ، وعلمه ومشئته . كما قال تعالى ^(١) « وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ » « وَيَوْمَ يَنْصُرُ اللَّهُ » أي تغلبه من له كتاب ، على من لا كتاب له . وغیظ من شئت بهم من كفار مكة . ويقال : نصر الله هو إظهار صدق المؤمنين فيما أخبروا به المشركين « يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ » أي من عباده على عدوه « وَهُوَ الْعَزِيزُ » أي القاهر الغالب على أمره ، لا يعجزه من شاء نصره « الرَّحِيمُ » أي في نصره وتغلبه من يشاء « وَعَدَّ اللَّهُ ، لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » أي بحكمته تعالى ، في كونه وأفعاله المحسمة ، الجارية على وفق العدل ، لجهلهم وعدم تفكرهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ)

(١) [٣ / آل عمران / ١٤٠] .

[٨] (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ، مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى، وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِي رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ) « يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » وهو ما يوافق شهواتهم وأهواءهم « وَهُمْ عَنَ الْآخِرَةِ » أى التى هى المطلب الأعلى « هُمْ غَافِلُونَ » أى لا يُحْطِرُونَهَا بِبَالِهِمْ . فهم جاهلون بها تاركون لعملها .

لطائف :

قال الزمخشريّ : قوله تعالى (يعلمون) بدل من قوله (لا يعلمون) وفى هذا الإبدال من النكتة ، أنه أبده منه وجعله بحيث يقوم مقامه ويسدّ مسدّه ، ليمالك أنه لافرق بين عدم العلم الذى هو الجهل ، وبين وجود العلم الذى لا يتجاوز الدنيا . وقوله (ظَهْرًا) يفيد أن للدنيا ظاهراً وباطناً . فظاهرها ما يعرفه الجهال من التمتع بزخارفها والتنعم بملاذها . وباطنها وحقيقتها أنها مجاز إلى الآخرة ، يتزود منها إليها بالطاعة والأعمال الصالحة . انتهى . وناقش الكرخيّ فى إبدال (يَعْلَمُونَ) قال : إن الصناعة لاتساعد عليه . لأن بدل فعل مثبت، من فعل منفى لا يصح . واستظهر قول الحوفيّ؛ أن (يَعْلَمُونَ) استثناء فى المعنى . وأشار الناصر إلى جوابه بأن فى تنكير (ظَهْرًا) تقليلاً لمعلومهم . وتقليله يقربه من النفي . فيطابق المبدل منه .

أقول : التقليل هو الوحدة المشار لها بقول الزمخشريّ (وفى تفكير الظاهر أنهم لا يعلمون إلا ظاهراً واحداً ، من جملة الظواهر) .

وأما قول أبي السعود : وتنكير (ظَهْرًا) للتحقير والتخصيس دون الوحدة كما توهم ، ففغلة عن مشاركتها للتعليل الذى به يطابق المبدل المبدل منه . فافهم .

ثم أنكر عليهم قصر نظرهم على ما ذكر من ظاهر الحياة الدنيا ، مع الغفلة عن الآخرة بقوله (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ) أى يحدثوا التفكير فى أنفسهم ، الفارغة من الفكر

والتفكير . فالجور ظرف للتفكير ، وذكره لزيادة التصوير . إذ الفكر لا يكون إلا في النفس . والتفكير لا متعلق له ، لتزيله منزلة اللازم . وجوز كون الجور مفعول (يتفكروا) لأنه يتعدى بـ(في) أى : أو لم يتفكروا في أمر أنفسهم . فلعنى حشهم على النظر في ذواتهم وما اشتملت عليه من بديع الصنع ، وقوله تعالى « مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ » متعلق بقول أو علم ، يدل عليه السياق . أى : ألم يتفكروا فيقولوا أو فعملوا . وقال السمين : (ما) نافية . وفي هذه الجملة وجهان : أحدهما - أنها مستأنفة لاتعلق لها بما قبلها . والثاني - أنها معلقة للتفكير . فيكون في محل نصب على إسقاط الخافض . انتهى . والباء في قوله (بِالْحَقِّ) للملابسة . أى ما خلقها باطلا ولا عبثا بغير حكمة بالغة ، ولا لتبقى خالدة . وإنما خلقها مقرونة بالحق ، مصحوبة بالحق «وَأَجَلٍ مُّسَمًّى» أى وبتقدير أجل مسمى ، لا بد لها من أن تنتهى إليه . وهو قيام الساعة ووقت الحساب والثواب والعقاب . ولذا عطف عليه قوله « وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِي رَبِّهِمْ لَكٰفِرُونَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ، كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ، فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

[١٠] (ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ آسَآؤُا السُّوْآىَ أَن كَذَّبُوا بِآيٰتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ)

[١١] (اللَّهُ يَبْدُوْا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيْدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

[١٢] (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ)

« أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ » أى قلبوها للزراعة واستخراج المعادن وغيرها ، مما كانوا أرقى فيه من أهل مكة « وَعَمَرُواهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا » أى بالأبنية المشيدة . والصناعات الفريدة ، ووفرة العدد والعدد ، وتنظيم الجيوش والتزين بزخارف أعجبوا بها ، واستطالوا بأبتهتها . فسدت ملكاتهم ، وطفت شهواتهم ، حتى اقتضت حكمته تعالى إنذارهم بأنبيائهم ، كما قال « وَجَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ » أى الآيات الواضحات على حقية ما يدعونهم إليه « فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ » أى فسكذبوهم فأهلكهم . فما كان الله ليهلكهم من غير جرم منهم « وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا » أى عملوا السيئات « السَّوْءَى » أى العقوبة التى هى أسوأ العقوبات فى الآخرة ، وهى جهنم . و(السَّوْءَى) تأنيث (الأسوأ) ، وهو الأقيح . كما أن (الحسنى) تأنيث (الأحسن) ثم علل سوء عاقبتهم بقوله تعالى « أَنْ » أى لأن « كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ * اللَّهُ يُبَدِّلُ الْخَلْقَ » أى ينشئهم « ثُمَّ يُعِيدُهُمْ » أى بئد الموت بالبعث « ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » أى إلى موقف الحساب والجزاء « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ » أى يسكتون متحيرين يائسين . يقال (أبلس) إذا سكت وانقطعت حجته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءٌ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ)

[١٤] (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُؤْمِنُونَ)

[١٥] (فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ)

[١٦] (وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي

الْعَذَابِ مُخَضَّرُونَ)

[١٧] (فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ)

[١٨] (وَ لَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ)

«وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ» أي يجبرونهم من عذاب الله كما كانوا يزعمون «وَكَانُوا بِشُرُكِيَّائِهِمْ كَافِرِينَ» أي بالالهياتهم وشركتهم لله تعالى، حيث وقفوا على كنه أمرهم «وَيَوْمَ يَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِرُونَ» أي يتميز المؤمنون والكافرون في الحال والأحوال «فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ» أي يسرون «وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَآلَمَائِنَا وَالْآخِرَةَ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ» أي لا يغيبون عنه ولا يخفف عنهم «فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ» * وَ لَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ » لما ذكر الوعد والوعيد ، تأثره بما هو وسيلة للفوز والنجاة ، من تزييه تعالى عما لا يليق به ، والثناء عليه بصفاته الجميلة ، وأداء حق العبودية . (و الفاء) للتفريع فكانه قيل : إذا صحّ واتضح عاقبة المطيعين والمعاصين ، فقولوا : نسبح سبحان الخ . والمعنى فسبحوه تسبيحا دائما . و (سبحان) خبر في معنى الأمر بتزييه الله تعالى وحده . أي الثناء عليه في هذه الأوقات التي تظهر فيها قدرته ، وتتجدد فيها نعمته . وقوله تعالى (وَعَشِيًّا) معطوف على (حِينَ) وتقديمه على (حِينَ تُظْهِرُونَ) لمراعاة الفواصل . وقوله (وَ لَهُ الْحَمْدُ) معترض بينهما . والمراد بثبوت حمده فيهما ، استحقاقه الحمد لمن له تمييز من أهلها . قال أبو السعود : والإخبار بثبوت الحمد له ووجوبه على المميزين من أهل السموات والأرض ، في معنى الأمر به على أبلغ وجه وآكده . وتوسطه بين أوقات التسبيح ، للاعتناء بشأنه ، والإشعار بأن حقهما أن يجمع بينهما . كما ينبي عنه قوله تعالى (١) (وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ) وقوله تعالى (٢) (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ) وقد روى عن ابن عباس رضي الله عنهما ؛ أن الآية جامعة للصلوات الخمس : (تمسون) صلاة المغرب والعشاء . و(تصبحون)

(١) [٢ / البقرة / ٣٠] . (٢) [١٥ / الحجر / ٩٨] .

صلاة الفجر . و(عشيا) صلاة العصر و(نظهرون) صلاة الظهر . فإن قيل : لم غيّر الأسلوب في (عشيا) ؟ أجب (كما قال أبو السعود) بأن تغير الأسلوب لما أنه لا يجي منه الفعل بمعنى الدخول في العشي . كالمساء والصبح والظهيرة . ولعل السرّ في ذلك أنه ليس من الأوقات التي تختلف فيها أحوال الناس ، وتغير تغيرا ظاهرا مصححا لوصفهم بالخروج عما قبلها ، والدخول فيها ، كالأوقات المذكورة . فإن كلا منها وقت تتغير فيه الأحوال تغيرا ظاهرا . أما في المساء والصبح فظاهر . وأما في الظهيرة فلأنها وقت يعتاد فيه التجرد عن الثياب للقبولة . كما مرّ في سورة النور . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ)

[٢٠] (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا آتَأْتُمُ بَشَرًا تَنْشُرُونَ)

[٢١] (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا

وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُتَفَكَّرُونَ)

« يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ » أي كالإنسان من النطفة، والطائر من البيضة « وَيُخْرِجُ

« الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ » كالنطفة والبيضة من الحيوان « وَيُحْيِي الْأَرْضَ » أي بالنبات

« بَعْدَ مَوْتِهَا » أي يسما « وَكَذَلِكَ » أي : ومثل ذلك الإخراج « تُخْرَجُونَ » أي

من قبوركم .

وقال المهايي : أي : بالصلاة عن موت القلب إلى حياته ، ومن حياة النفس إلى موتها .

ويحيي أرضها بنبات الهيئات الفاضلة ، بعد موتها بالهيئات الرديئة . وبالعكس بتركها . أه

وآثر هذا المعنى ، على بعده ، مراعاة لسياق الآية ، من طريق الإشارة « وَمِنْ آيَاتِهِ » أي

الباهرة الدالة على قدرته على البعث « أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ » أى يعنى أصلكم آدم عليه السلام . أو النطفة والمادة . أو على تقدير مضاف . أى ولا مناسبة بين التراب وبين ما أنتم عليه فى ذاتكم وصفاتكم « ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ » أى فى الأرض انتشاراً ملاً البسيطة وشمل الكرة . فأخذتم فى بناء المدائن والحصون ، والسفر فى أقطار الأقاليم ، وركوب متن البحار ، والدوران حول كرة الأرض ، وكسب الأموال وجمعها ، مع فكرة ودهاء، ومكر وعلم، واتساع فى أمور الدنيا والآخرة . كل بحسبه . فسبحان من خلقهم وسيّرهم، وصرّفهم فى فنون المعاش وفوت بينهم فى العلوم والمعارف، والحسن والتبجح، والغنى والفقر، والسعادة والشقاوة « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا » أى تأنسوا بها . فإن المجانسة من دواعى التضام والتعارف « وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً » أى توادداً وتراحماً بمصمة الزواج ، بعد أن لم يكن لقاء ولا سبب يوجب التعاطف من قرابة أرحم « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » أى فى بدائع هذه الأفاعيل المتينة المبنية على الحكم البالغة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوَالِدَاتُ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ)

[٢٣] (وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِّن فَضْلِهِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ)

[٢٤] (وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

[۲۵] (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ، ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذْ أَأْتَمْتُمْ تَخْرُجُونَ)

« وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ السِّنِّكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ » أى أولى العلم كقال (۱) (وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ) « وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ » أى لاستراحة القوى ورد ما فقدته « وَأَبْتِغَاؤُكُمْ مِّن فَضْلِهِ » أى بالسعى فى الأسباب، والأخذ فى فضل الاكتساب « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ » أى سماع تفهم واستبصار « وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا » أى من الصاعقة « وَطَمَعًا » أى فى الغيث والرحمة . أو لتخافوا من قهر سلطانه، وتطمعوا فى عظيم إحسانه « وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ » أى بالنبات « بَعْدَ مَوْتِهَا » أى يبسها « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ » أى إرادته لقيامهما . قال أبو السعود: والتعبير عنها بالأمر، للدلالة على كمال القدرة، والغنى عن المبادئ والأسباب. وليس المراد بإقامتهما إنشاؤها. لأنه قد بين حاله بقوله تعالى (۲) « وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » ولا إقامتهما بغير مقيم محسوس، كما قيل. فإن ذلك من تبات إنشائهما، وإن لم يصرح به، تعويلا على ما ذكر فى غير موضع من قوله تعالى (۳) (خَلَقَ السَّمَوَاتِ بغيرِ عَمْدٍ تَرَوْنَهَا) الآية . بل قيامهما واستمرارهما على ماها عليه ، إلى أجلهما الذى نطق به قوله تعالى فيما قبل (۴) (مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى) وحيث كانت هذه الآية متأخرة عن سائر الآيات المدودة، متصلة بالبعث فى الوجود، أخرت عنهن وجعلت متصلة به فى الذكر أيضا، فقيل : « ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذْ أَأْتَمْتُمْ تَخْرُجُونَ » فإنه كلام مسوق للإخبار بوقوع البعث ووجوده، بعد انقضاء أجل قيامهما،

(۱) [۲۹ / المنكبوت / ۴۳] . (۲) [۳۰ / الروم / ۲۲] .

(۳) [۳۱ / لقمان / ۱۰] . (۴) [۳۰ / الروم / ۸] .

مرتب على تعداد آياته الدالة عليه ، غير منتظم في سلكها كما قيل . كأنه قيل : ومن آياته قيام السموات والأرض على هياتهما بأمره تعالى ، إلى أجل مسمى قدره الله تعالى لقيامهما . ثم إذا دعاكم ، أى بعد انقضاء الأجل من الأرض وأنتم في قبوركم ، دعوة واحدة ، بأن قال : أيها الموتى ! اخرجوا ، فاجأتم الخروج منها ، وذلك قوله تعالى ^(١) (يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ) انتهى .

لطائف :

الأولى - الدعاء . إما على حقيقته ، أو الكلام تمثيل . شبهه سرعة ترقب حصول ذلك ، على تعلق إرادته بلا توقف ، واحتياج إلى تحشم عمل ، بسرعة ترقب إجابة الداعي المطاع على دعائه . أو هو ممكنة وتخيلية ، بتشبيه الموتى بقوم يريدون الذهاب إلى محل ملك عظيم يهينون لذلك ، وإثبات الدعوة لهم قريبتها .

الثانية - قوله تعالى (مِنَ الْأَرْضِ) متعلق بـ (دعا) كقوله : دعوته من أسفل الوادى فطلع إلى ، لا بد (تخرجون) لأن ما بعد (إذا) لا يعمل فيما قبله .
الثالثة - قال الكرخي : قال هنا (إِذْ آأَنْتُمْ نَخْرُجُونَ) وقال في خلق الإنسان ^(٢) (ثُمَّ إِذَا آأَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ) لأنه هناك يكون خلق وتقدير وتدرج ، حتى يصير التراب قابلاً للحياة فنفخ فيه الروح ، فإذا هو بشر . وأما في الإعادة فلا يكون تدرج . بل يكون بدء وخروج . فلم يقل هنا : (ثم) . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، كُلٌّ لَّهُ قَاتِلُونَ)

[٢٧] (وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ، وَلَهُ الْمَثَلُ

الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(١) [٢٠ / طه / ١٠٨] . (٢) [٣٠ / الروم / ٢٠] .

«وَلَهُ وَمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» أى خلقاً وملكاً وتصرفاً «كُلُّ لَّهُ وَقَتُونَ» أى منقادون لتصرفه ، لا يتأبون عليه « وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ» أى من البدء. أى بالقياس إلى ما يقتضيه معقول المخاطبين. لأن من أعاد منهم صنعة شئء، كانت أسهل عليه وأهون من إنشائها. وإلا فهما عليه سبحانه سواء في السهولة. لطائف :

الأولى - تذكير الضمير ، مع رجوعه إلى الإعادة ، لما أنها مؤولة بـ (أن يعيد) .
الثانية - قال الزمخشري : فإن قلت : لمَ أخرت الصلة في قوله (وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ) وقدمت في قوله (هُوَ عَلَى هَيْنٍ) ؟ قلت : هناك قصد الاختصاص ، وهو محزه . فقيل (هُوَ عَلَى هَيْنٍ) وإن كان مستصعباً عندكم أن يولد بين همّ وعافر . وأما ههنا ، فلامعنى للاختصاص كيف؟ والأمر مبني على ما يعقلون ، من أن الإعادة أسهل من الابتداء . فلو قدمت الصلة ، لتغير المعنى . اهـ .

قال الناصر : كلام نفيس يستحق أن يكتب بدوب القبر ، لابلجر . وإنما يلقي الاختصاص من تقديم ما حقه أن يؤخر .

الثالثة - قال الزمخشري : فإن قلت ما بال الإعادة استعظمت في قوله (ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ) حتى كأنها فضلت على قيام السموات والأرض بأمره ، ثم هونت بعد ذلك ؟ قلت : الإعادة في نفسها عظيمة . لكنها هونت بالقياس إلى الإنشاء . انتهى .

قال الناصر : وإنما يلقي في السؤال تعظيم الإعادة من عطفها بـ (ثم) إيذاناً بتغاير مرتبتها وعلو شأنها . وقوله (في الجواب) : إنها هونت بالنسبة إلى الإنشاء ، لا يخلص . فإن الإعادة ذكرت ههنا عقيب قيام السموات والأرض بأمره . وقيامهما ابتداء وإنشاء أعظم من الإعادة . فيلزم

(٣) [١٩ / مريم / ٩ و ٢١] . (٢) [٣٠ / الروم / ٢٥] .

تعظيم الإعادة بالنسبة إلى ما عطف عليه من الإنشاء. ويعود الإشكال . والمخلص، والله أعلم، جعل (ثم) على بابها لتراخي الزمان لا لتراخي المراتب . وإن سلم أنها لتراخي المراتب ، فعلى أن تكون مرتبة المعطوف عليه العليا ، ومرتبة المعطوف هي الدنيا . وذلك نادر في بحيثها لتراخي المراتب . فإن المعطوف حينئذ في أكثر المواضع ، أرفع درجة من المعطوف عليه ، والله أعلم . انتهى .

وفي حواشي القاضى : إن (ثم) إما لتراخي زمان المعطوف فتكون على حقيقتها . أو لعظم ما في المعطوف من إحياء الموتى ، فتكون للفتاوت في الرتبة لا للتراخي الزماني . والمراد عظمه في نفسه وبالنسبة إلى المعطوف عليه . فلا ينافى قوله (وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ) وكونه أعظم من قيام السماء والأرض ، لأنه المقصود من الإيجاد والإنشاء، وبه استقرار السعداء والأشقياء في الدرجات والدركات . وهو المقصود من خلق الأرض والسموات . فاندفع اعتراض الناصر بأنه ، على تسليمه ، مرتبة المعطوف عليه هنا هي العليا ، مع أن كون المعطوف في مثله أرفع درجة ، أكثرى لا كلى . كما صرح به الطيبي هنا . فلا امتناع فيما منعه . وهي فائدة نفيسة . ويجوز جملة على مطلق البعد الشامل للزماني والرتبي . كما في (شرح الكشاف) وقوله تعالى « وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى الوصف الأعلى الذى ليس لغيره ما يدانيه فهما . كالقدرة العامة والحكمة التامة . وذلك لأنه لما جعل ما ذكر أهون عليه على طريق التمثيل ، عقبه بهذا . فكأنه قيل هذا ، لتفهم العقول القاصرة أن صفاته مجيبة وقدرته عامة وحكمته تامة . فكل شيء بدء أو إعادة وإيجاد وإعدام ، عنده على حد سواء ، ولا مثل له ولا ند . وقال الزجاج: المراد بالمثل قوله (وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ) فاللام فيه للعهد . فحمل المثل على ظاهره . وعلى ما ذكر أولا ، هو مجاز عن الوصف العجيب . فيشمل القول وغيره مما هو جار على السنة الدلائل ولسان كل قائل . اهـ (وَهُوَ الْعَزِيزُ) أى الغالب على أمره ، الذى لا يعجزه بدء يمكن وإعادته « الْحَكِيمُ » الذى يجرى أفعاله على سنن الحكمة والمصلحة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنْفُسِكُمْ ، هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ
مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ
أَنْفُسَكُمْ ، كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

[٢٩] (بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ،
وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ)

« ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا » أى يتبين به بطلان الشرك « مِّنْ أَنْفُسِكُمْ » أى منتزعا من أحوالها . وهى أقرب الأمور إليكم وأظهر كشفا « هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » أى من العبيد والإماء « مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ » أى من الأموال وغيرها « فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ » أى متساوون فى التصرف فيما ذكر من غير مزية « تَخَافُونَهُمْ » أى تهابون أن تستبدوا بالتصرف فيه بدون رأيهم . وهو خبر آخر (أنتم) « كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ » أى كما يخاف بعضهم بعضا من الأحرار المساهمين لكم فيما ذكر . والمعنى نفى مضمون ما فصل من الجملة الاستفهامية . أى : لا ترضون بأن يشارككم فيما هو معار لكم مما ليكم ، وهم أمثالكم فى البشرية ، غير مخلوقين لكم ، بل لله تعالى . فكيف تشركون به سبحانه فى العبودية ، التى هى من خصائصه الذاتية ، مخلوقه بل مصنوع مخلوقه ، حيث تصنعونه بأيديكم ثم تعبدونه؟ أفاده أبو السعود « كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ » أى مثل ذلك التفصيل الواضح ، توضح الآيات « لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ » أى يقين وبرهان « فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ » أى سبب صرف اختياره إلى كسبه . أى : لا يقدر على هدايته أحد « وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ » أى ينصرونهم من الله ، إذا أراد بهم عذابا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ، فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، لَا تَبْدِيلَ

لِخَلْقِ اللَّهِ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

[٣١] (مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

[٣٢] (مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا ، كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ)

« فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ » أى فقومه له، واجعله مستقيماً متوجهاً له. وفي النظم الكريم

استعارة تمثيلية ، بتشبيه الأمور بالتمسك بالدين ورعاية حقوقه وعدم مجاوزة حدوده والاهتمام بأمره ، بمن أمر بالنظر إلى أمر ، وعقد طرفه به ، وتسديد نظره وتوجيه وجهه له ، لمراعاته

والاهتمام بحفظه «حَنِيفًا» أى مائلاً عن كل ماسواه، إليه. قال المهايى: ولا يعسر الرجوع إليه

لكونه « فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا » أى لأن عقل كل واحد يدل على أنه حادث

يفتقر إلى محدث . ولا دلالة على الافتقار إلى متعدد أبداً. فالقول بتعمده تغيير للفطرة. لكن

« لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ » أى لا تغيير لأمر العقل الذى خلقه الله للاستدلال «ذَلِكَ» أى الدين

المأمور بإقامة الوجه له ، أو الفطرة «الدِّينُ الْقَيِّمُ» أى المستقيم الذى لا عوج فيه. قال المهايى:

وإن لم يقم عند المبدلين دليل على استحالة التعدد، فهذا هو مقتضى الفطرة «وَلَكِنَّ أَكْثَرَ

النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» أى أنه مقتضى الفطرة. وهى أقطع قاطع وأحسم حاسم لشغب المشاغب.

لأنها من الأمور التى لا تدخل تحت الكسب والاختيار. وقوله تعالى « مُنِيبِينَ إِلَيْهِ » أى

راجعين إليه بالتوبة والإنابة^(١) (وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ) وهو حال من فاعل (الزموا)

المقدر ناصباً للفطرة) أو من فاعل (أقم) على المعنى. إذ لم يرد به واحد بعينه. أولأن الخطاب

له ﷺ ولأتمته. أو على أنه على حذف المعطوف عليه. أى: أقم أنت وأمتك. والحال من الجميع

(١) [٣ / آل عمران / ١٣٥] .

« وَأَتَقَوْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَقُوا دِينَهُمْ » أى جعلوه أدياناً مختلفة، لاختلاف أهوائهم «وَكَانُوا شِعْمًا» أى فرقا «كُلُّ حِزْبٍ مِمَّا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ» أى كل حزب منهم فرح بمذهبه ، مسرور ، يحسب باطله حقا .

قال القاشانى: يعنى المفارقين الدين الحقيقى ، المتفرقين شيعاً مختلفة ، كل حزب عند تكدر الفطرة، وتكاثف الحجاب، يفرح بما يقتضيه استعداده من الحجاب ، لكونه مقتضى طبيعة حجابيه . فيناسب حاله من الاستعداد العارضى ، وإن لم يلائم الحقيقة بحسب الاستعداد . ولهذا يجب به التعذيب عند زوال العارض . اهـ .

ثم احتج عليهم برجوعهم إليه عند الشدائد ، مما يحمل أن يرجع إليه بعبادته دائماً ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا آذَانَهُمْ مِنْهُ رَحِمَهُ

إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ)

[٣٤] (لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

[٣٥] (أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يَشْرِكُونَ)

[٣٦] (وَإِذَا آذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا ، وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ مِمَّا قَدَّمَتْ

أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ)

« وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ » أى شدة « دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ » أى راجعين إليه وحده دون شركائهم « ثُمَّ إِذَا آذَقْنَا رَحْمَةً » أى خلاصاً من تلك الشدة « إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ » أى بالسبب الذى آتيناهم الرحمة من أجله ، وهو الإنابة . واللام للعاقبة . وقيل : للأمر التهديدى كقوله تعالى « فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ

تَعْلَمُونَ « أى عاقبة تتممكم ووباله « أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا » أى حجة واضحة قاهرة « فَهَوَ يَتَكَلَّمُ » أى تسكلم دلالة . كما فى قوله (١) تعالى (هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ) « بِمَا كَانُوا بِهِ يَشْرِكُونَ » أى بإسراكهم . وهذا استفهام إنكار . أى : لم يكن شىء من ذلك « وَإِذْ آذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً » أى نعمة من صحة وسعة « فَرِحُوا بِهَا » أى بطراً ونحراً ، لاحمدا وشكرا « وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ » أى شدة « بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ » أى من المعاصى والآثام « إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ » أى ييأسون من روح الله . قال : هذا إنكار على الإنسان من حيث هو ، إلا من عصمه الله تعالى ووفقه . فإن الإنسان إذا أصابته نعمة بطر وقال (٢) (ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ) أى يفرح فى نفسه ، يفرح على غيره . وإذا أصابته شدة قنط وأيس أن يحصل بعد ذلك خير بالسكينة . قال الله تعالى (٣) (إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) أى : صبروا فى الضراء وعملوا الصالحات فى الرخاء . كما ثبت فى الصحيح (٤) : عجبا للمؤمن ، لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيرا له . إن أصابته سراء شكر ، فكان خيرا له . وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيرا له .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

«أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» قال الزمخشري : أنكر عليهم بأنهم قد علموا أنه هو الباسط القابض . فالهم

(١) [٤٥ / الجاثية / ٢٩] . (٢) [١١ / هود / ١٠] . (٣) [١١ / هود / ١١] .

(٤) أخرجه مسلم فى : ٥٣ - كتاب الزهد والرفائق ، حديث رقم ٦٤ (طبعتنا)

يقنطون من رحمته ، ومالمهم لا يرجعون إليه تائبين من المعاصي التي عوقبوا بالشدة من أجلها ، حتى يعيد إليهم رحمته ؟

ولما بين تعالى أن السيئة أصابتهم بما قدمت أيديهم ، أتبعه ذكر ما يجب أن يفعل ، وما يجب أن يترك ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ، ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

[٣٩] (وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لَّيْرَبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَبُّوا عِنْدَ اللَّهِ ، وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ)

« فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ » أي من البر والصلة . واستدل به أبو حنيفة رحمه الله على

وجوب النفقة للمحارم إذا كانوا محتاجين عاجزين عن الكسب . لأن (آت) أمر للوجوب .

والظاهر من (الحق) بقرينة ما قبله أنه مالى ، وهو استدلال متين « وَالْمِسْكِينَ » وهو الذى لا شيء

له ينفق عليه . أو له شيء لا يقوم بكفايته « وَابْنَ السَّبِيلِ » أى السائل فيه ، الذى انقطع

به . وحقهما هو نصيبهما من الصدقة والمواساة « ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ »

أى النظر إليه يوم القيامة . وهو الغاية القصوى . أو يريدون ذاته بمعرفتهم لارياء ولا سمعة ،

ولا مكافأة يد . كما قال تعالى ^(١) (الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ وَيَتَزَكَّى * وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِن

نِعْمَةٍ تُجْزَى * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى) « وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » أى فى الدنيا

والآخرة « وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا » أى مال ترابون فيه « لَّيْرَبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ » أى ليزيد

فى أموالهم ، إذ تأخذون فيه أكثر منه « فَلَا يَرَبُّوا عِنْدَ اللَّهِ » أى لا يزكو ولا ينفو

(١) [٩٢ / الليل / ١٨ - ٢٠] .

ولا يبارك فيه . بل يحققه بحق ما لا عاقبة له عنده إلا الوبال والنكال . وذكر في تفسيرها معنى آخر ، وهو أن يهب الرجل للرجل ، أو يهدى له ليعوضه أكثر مما وهب أو أهدى . فليست تلك الزيادة بمحرام . وتسميتها ربا مجاز ، لأنها سبب الزيادة .

قال ابن كثير : وهذا الصنيع مباح وإن كان لاثواب فيه . إلا أنه نهى عنه رسول الله ﷺ خاصة ، قال الضحاك ، واستدل بقوله تعالى (١) (وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ) أي لا تعط العطاء ، تريد أكثر منه . وقال ابن عباس : الربا ربا ان ، فرباً لا يصح ، بمعنى ربا البيع ، وربا لا بأس به ، وهو هدية الرجل ، يريد فضلها وإضعافها . انتهى .

وأقول : في ذلك كله نظر من وجوه :

الأول - أن هذه الآية شبيهة بآية (٢) (يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي بِئْسَ لِقَاءِ الرِّبَا أَلْفَاكًا) وهي في ربا البيع الذي كان فاشيا في أهل مكة حتى صار ملكة راسخة فيهم ، امتصوا بها ثروة كثير من البؤساء ، مما خرج عن طور الرحمة والشفقة والكمال البشري . فنعى عليهم حالهم ، طلباً لتركيبتهم بتقوتهم منه . ثم أكد ذلك في مثل هذه الآية . مبالغة في الزجر .

الثاني - أن الربا ، على ما ذكر ، مجاز . والأصل في الإطلاق الحقيقة ، إلا لصارف يرشد إليه دليل الشرع ، أو العقل . ولا واحد منهما هنا ، إذ لا موجب له .

الثالث - دعوى أن الهبة المذكورة مباحة ، لا بأس بها بعد كونها هي المرادة من الآية - بعيدة غاية البعد . لأن في أسلوبها من الترهيب والتحذير ما يجعلها في مصاف المحرمات . ودلالة الأسلوب من أدلة التنزيل القوية ، كما تقرر في موضعه .

الرابع - زعم أن النهي عنه هو الحضرة النبوية خاصة ، لا دليل عليه إلا ظاهر الخطاب . وليس قاطعاً .

لأن اختصاص الخطاب لا يوجب اختصاص الحكم على التحقيق . لا يقال الأصل وجوب

(١) [٧٤ / المدثر / ٦] . (٢) [٢ / البقرة / ٢٧٦] .

حمل اللفظ على حقيقته ، وحمله على المجاز لا يكون إلا بدليل ، وكذا ما يقال إن ثبوت الحكم في غير محل الخطاب يفتقر إلى دليل - لآنا نقول: الأصل في التشريعات العموم ، إلا ما قام الدليل القاطع على التخصيص بالتخصيص ، وليس منه شيء هنا . وقد عهد في التنزيل تخصيص مراد به التعميم إجماعاً . كآية^(١) (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ) وأمثالها .

الخامس - أن في هذا النهي عنه من إصعاد المرء إلى ذروة المحسنين الأعفاء ، الذين لا يتبعون قلوبهم نفقتهم ، ما يبين أنه شامل لسائرهم . لما فيه من تربية إرادتهم وتهذيب أخلاقهم . بل لو قيل إن الخطاب له صلوات الله عليه ، والمراد غيره ، كما قالوه في كثير من الآي - لم يبعد . لما تقرر من عصمته ونزاهته عن هذا الخلق ، في سيرته الزكية . وحينئذ فالوجه في الآية هو الأول ، وعليه المعول . والله أعلم . « وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ » أى مال تزكون به من رجس الشح وذنس البخل « تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ » أى ذوو الأضعاف من الثواب . جمع (مضعف) اسم فاعل (من أضعف) إذا صار ذا ضعف ، (بكسر فسكون) بأن يضاعف له ثواب ما أعطاه . (كأقوى وأيسر) إذا صار ذا قوة ويسار . فهو لصيرورة الفاعل ذا أصله . أو الذين ضعفوا ثوابهم وأموالهم ببركة ما أنفقوا . على أنه من (أضعف) والهمزة للتعدي ، ومفعوله محذوف ، وهو ما ذكر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُعْيِيكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ، هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ كُمْ مِنْ شَيْءٍ ، سُبْحٰنَهُ وَتَعَالٰى عَمَّا يُشْرِكُونَ)
 « اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُعْيِيكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ كُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحٰنَهُ وَتَعَالٰى عَمَّا يُشْرِكُونَ » قال القاضي : أثبت له

(١) [٣٣ / الأحزاب / ١] .

تعالى لوازم الألوهية ، ونفاها رأساً عما اتخذوه شركاء له من الأصنام وغيرها . مؤكداً بالإنكار على ما دل عليه البرهان والعيان ، ووقع عليه الوفاق . ثم استنتج من ذلك تقدسه عن أن يكون له شركاء . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[٤٢] (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ ، كَانُوا أَكْثَرُكُمْ مُشْرِكِينَ)

[٤٣] (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَدِيمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ ، يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ)

«ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ» أي كثرة المضار والمعاصي على وجه الأرض وعلى ظهر السفن في لجاج البحر «بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ» أي من الآثام والموبقات ففسد الفساد وانتشرت عدواه وتوارثه جيل عن جيل أيما حلوا وحيثما ساروا «لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» اللام للعاقبة . أي ظهور الشرور بسببهم ، مما استوجبوا به أن يذيقهم الله وبال أعمالهم ، إرادة الرجوع . وقيل اللام للعلة ، على معنى أن ظهور الجذب والتحط والفرق بسبب شؤم معاصيهم ، ليذيقهم وبال بعض أعمالهم في الدنيا ، قبل أن يعاقبهم بجميعها في الآخرة ، لعلمهم يرجون عمامهم عليه . كقوله تعالى (١) (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ) «قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانُوا

(١) [٤٢ / الشورى / ٣٠] .

أَكْثَرَهُمْ مُشْرِكِينَ « أى فأذاقهم سبحانه سوء العاقبة ، لشرِكهم المستتبع لكل إثم وعصيان « فَأَقْرِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَدِيمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ وَ «أى لا يقدر أحد على رده . وقوله « مِنْ اللَّهِ » متعلق بـ(يأتى) أو بـ(مرد) لأنه مصدر على معنى لا يردده تعالى ، لتعلق إرادته بـمجيئه . وفيه انتفاء رد غيره بطريق برهاني . وقيل عليه ، لو كان كذلك لزم تنوينه لشابهته للمضاف . وأجيب بأن الشبيه بالمضاف قد يحمل في ترك تنوينه . كما في الحديث (لا مانع لما أعطيت) « يَوْمَئِذٍ يَصْدَعُونَ » أى يتفرون كالفراس المبهوث ، أو فريق في الجنة وفريق في السعير كقوله^(١) (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِئِذٍ يَنْفِرُ قَوْمٌ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُمْ يَمْهَدُونَ)
 [٤٥] (لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ)
 « مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ » أى وبال كفره . قال الزمخشري : كلمة جامعة ، لما لا غاية وراءه من المضار . لأن من كان ضارّه كفره ، فقد أحاطت به كل مضرة « وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُمْ يَمْهَدُونَ » أى يسوون منزلا فى الجنة . أى يوطنونه توطئة الفراس لمن يريد الراحة عليه « لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ لِيَجْزِيَ الْفُلُكَ بِأَمْرِهِ وَ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)
 [٤٧] (وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنْتَقَمْنَا مِنْ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ، وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

(١) [٣٠ / الروم / ١٤] .

«وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ» أي بالمطر «وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ»
وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ «أي في البحر عندهبوبها» «وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ» أي بتجارة
البحر «وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» أي ولتشكروا نعمة الله فيما ذكر «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ
قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنفَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا
نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ» هذه تسليمة له ﷺ بن قبله على وجهه يتضمن الوعد له والوعيد لمن عصاه.
قال الزمخشري: في قوله تعالى (وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ) تعظيم للمؤمنين ،
ورفع من شأنهم، وتأهيل لكرامة سنية، وإظهار لفضل سابقة ومزية. حيث جعلهم مستحقين
على الله أن ينصرهم ، مستوجبين عليه أن يظهرهم ويظفرهم .

القول في تاويل قوله تعالى :

[۴۸] (اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُبْرِئُ سَحَابًا فَيَسْطُرُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ
يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ، فَإِذَا أَصَابَ
بِهِ مِنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ)

[۴۹] (وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ)

[۵۰] (فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُغِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ،
إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتَى ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

«اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُبْرِئُ سَحَابًا فَيَسْطُرُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ» إماسا
وواقفا ، مطبقا وغير مطبق ، من جانب دون جانب ، إلى غير ذلك «وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا» أي
قطعا تارة أخرى «فَتَرَى الْوَدْقَ» أي المطر «يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ» فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مِنْ
يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ* وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ «أي المطر

«مَنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ» أى لايسين. قال الزمخشري: من قبله، من باب التكرير والتوكيد، كقوله تعالى (١) «فَسَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَتَّهَمًا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا» ومعنى التوكيد فيه، الدلالة على أن عهدهم بالمطر قد تجاوز وبعد، فاستحكمت بأسهم وتمادى إبلاسه. فكان الاستبشار على قدر اغتمامهم بذلك . انتهى .

وعكسه ابن عطية رحمه الله فقال : إنه يدل على سرعة تقلب القلوب البشرية من الإبلان إلى الاستبشار .

قال الشهاب : وما ذكره ابن عطية أقرب . لأن المتبادر من القبليّة الاتصال . وتأكيده دال على شدة اتصاله «فَأَنْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ» أى أثر الغيث من النبات والأشجار والحبوب والثمار «كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ» أى العظيم الشأن الذى ذكر بعض شؤونه «لَمَحْيَى الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» .

القول فى تأويل قوله تعالى :

- [٥١] (وَلَيْنَ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ)
 [٥٢] (فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمِعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ)
 [٥٣] (وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ، إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ)

«وَلَيْنَ أَرْسَلْنَا رِيحًا» على الزرع «فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا» أى من تأثير هافيه «لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ» أى من بعد اصفراره يجحدون ما تقدم إليهم من النعم ، أو يقنطون ولا يصبرون على بلائه . وفيه من ذمهم وعدم تدبرهم وسرعة تزلزلهم لعدم تفكرهم وسوء رأيهم - ما لا يخفى .

(١) [٥٩ / الحشر / ١٧] .

ثم أشار تعالى إلى أن من أنكر قدرته على إحياء الزرع بعد اصفراره ، وقد رأى قدرته على إحياء الأرض بعد موتها ، فهو ميت لا يمكن إسماعه خبر إحياء الموتى ، بقوله سبحانه « فَأِنَّكَ لَآتُسمِعُ الْمَوْتَىٰ » أي لما أن هؤلاء مثلهم ، لانسداد مشاعرهم عن الحق « وَلَا تَسْمِعُ الْأصْمَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ » قال أبو السعود: تقييد الحكم بما ذكر، لبيان كمال سوء حال الكفرة والتنبيه على أنهم جامعون لخصلتي السوء ، نبوَّ أسمعهم عن الحق ، وإعراضهم عن الإصغاء إليه. ولو كان فيهم إحداهما ، لكفاهم ذلك. فكيف وقد جمعوهما؟ « وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعَمَىٰ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمِعُ » أي ما تسمع « إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ » أي منقادون لما تأمرهم به من الحق .

تنبيه :

قال ابن كثير : وقد استدلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بهذه الآية ^(١) (فَأِنَّكَ لَآتُسمِعُ الْمَوْتَىٰ) على توهيم ^(٢) عبد الله بن عمر في رواية مخاطبة النبي ﷺ القتلى الذين ألقوا في قليب بدر ، بعد ثلاثة أيام ، ومعاينته إياهم وتقريبه لهم . حتى قال له عمر : يا رسول الله ! ما تخاطب من قوم قد جيفوا؟ فقال : والذي نفسي بيده ! ما أتم بأسمع لما أقول ، منهم . ولكن لا يجيبون . وتأولته عائشة على أنه قال : إنهم الآن يعلمون أن ما كنت أقول لهم حق . وقال قتادة : أحياهم الله له حتى سمعوا مقاتلته ، تقريرا وتوبيخا ونقمة .

ثم قال ابن كثير: والصحيح عند العلماء رواية عبد الله بن عمر، لما لها من الشواهد على صحتها من وجوه كثيرة . من أشهر ذلك ، ما رواه ابن عبد البر مصححا له عن ابن عباس مرفوعا (ما من أحد يمر بقبر أخيه المسلم ، كان يعرفه في الدنيا ، فيسلم عليه إلا ردَّ الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام) . انتهى .

وقال ابن الهمام : أكثر مشايخنا على أن الميت لا يسمع استدلالا بهذه الآية ونحوها .

(١) [٣٠ / الروم / ٥٢] . (٢) الحديثان أخرجهما البخاري في : ٢٣ - كتاب

الجنائز ، ٨٧ - باب ما جاء في عذاب القبر ، حديث ٧٢٦ و٧٢٧

ولذا لم يقولوا : يتلقين القبر . وقالوا : لو حلف لا يكلم فلانا ، فكلمه ميتاً لا يحنث . وأورد عليهم قوله ﷺ في أهل القليب (ما أنتم بأسمع منهم) وأجيب تارة بأنه روى عن عائشة رضی الله عنها أنها أنكرته . وأخرى بأنه من خصوصياته ﷺ معجزة له . أو أنه تمثيل . كما روى عن علي كرم الله وجهه . وأورد عليه ما في مسلم^(١) من أن الميت يسمع قرع نعالمه إذا انصرفوا . إلا أن يخص بأول الوضع في القبر ، مقدمة للسؤال ، جمعاً بينه وبين ما في القرآن . نقله الشهاب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ

مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ)

[٥٥] (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ، كَذَلِكَ

كَانُوا يُؤْفَكُونَ)

« اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ » قرئ بفتح الضاد وضمها . أى من أصل ضعيف هو النطفة « ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ » يعنى حال الطفولة والنشء « قُوَّةً » يعنى حال البلوغ والشبيبة إلى الاكتمال وبلوغ الأشد « ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً » أى بالشيخوخة والهرم « يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ » أى من الأشياء . ومنها هذه الأطوار التى يتقلب بها الإنسان « وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ » أى الواسع العلم والقدرة . كيف؟ وهذا التردد فى الأحوال المختلفة والتغير من صفة إلى صفة ، أظهر دليل على علم الصانع سبحانه وقدرته ، المستتبع انقراده بالألوهية « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ » أى فى الدنيا أو القبور . وإنما يقدر وقت لبثهم بذلك على وجه استقصارهم له . أو ينسون أو يكذبون أو يظنون « كَذَلِكَ كَانَ أُولَئِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ » أى مثل ذلك الذى كانوا يصرفون عن الصدق والتحقيق فى الدنيا . وهكذا كانوا يتنون أمرهم على خلاف الحق . كذا فى الكشاف .

(١) أخرجه فى : ٥١ - كتاب الجفة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث رقم ٧١ (طبعتنا).

وقال ابن كثير : يخبر تعالى عن جهل الكفار في الدنيا والآخرة. ففي الدنيا فعلوا ما فعلوا من عبادة الأوثان . وفي الآخرة يكون منهم جهل عظيم أيضاً. فنه إقسامهم بالله أنهم ما لبثوا غير ساعة واحدة في الدنيا . ومقصودهم بذلك عدم قيام الحججة عليهم ، وأنهم لم ينظروا حتى يعذر إليهم . انتهى .

وقال الشهاب : المراد من قوله ^(١) (كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ) تشابه حالهم في الكذب وعدم الرجوع إلى مقتضى العلم . لأن مدار أمرهم على الجهل والباطل . والغرض من سوق الآية وصف المجرمين بالتمادى في الباطل ، والكذب الذى ألفوه . انتهى .
وقيل : كان قسمهم استقلالاً لأجل الدنيا ، لما عابنوا الآخرة ، تأسفاً على ما أضعوا في الدنيا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ

الْبَعْثِ ، فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[٥٧] (فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ)

« وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ » ردًا لما حلفوا عليه ، وإطلاعا لهم على الحقيقة « لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ » أى فيما كتبه الله وأوجهه بحكمته « إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » أى أنه حق ، لتفريطكم فى طلب الحق واتباعه « فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا » أى بالشرك ، أو إنكار الربوبية ، أو الرسالة ، أو شىء مما يجب الإيمان به « مَعذِرَتُهُمْ » أى بأنهم كفروا عن جهل . لأنه إنما كان عن تقصيرهم فى إزالته ، أو عن عناد « وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ » أى ولا يطلب منهم الإعتاب . أى إزالة

(١) [٣٠ / الروم / ٥٥] .

العتب بالتوبة والطاعة . لأنهما ، وإن كانتا ماحيتين للكفر والمعاصي ، فإنما كان لهما ذلك في مدة الحياة الدنيا ، لا غير .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ، وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ)

[٥٩] (كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

[٦٠] (فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، وَلَا يَسْتَخْفَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْقِنُونَ)

« وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ » أى من كل وصف يوضح الحق ويزيل اللبس . أو من كل دليل على الأمور الأخروية . والحق يجرى مجرى المثل في الظهور « وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ » أى مما اقتضوه أو غيرها « لَيَقُولُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ » أى لا يؤمنون بها . ويعتقدون أنها سحر وباطل « كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ » أى لا يطلبون العلم ولا يتحرون الحق . بل يصرون على خرافات اعتقدوها وترهات ابتدعوها . فإن الجهل المركب يمنع إدراك الحق ، ويوجب تكذيب الحق . قاله أبو السعود « فَأَصْبِرْ » أى على ما تشاهد منهم ، من الأقوال الباطلة والأفعال السيئة « إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ » أى في قوله ^(١) (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ) « وَلَا يَسْتَخْفَنَّ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ » أى لا يحملنك على الخفة والقلق « الَّذِينَ لَا يُؤْقِنُونَ » أى بما تتلو عليهم من الآيات البينة ، بتكذيبهم إياها ومكرهم فيها . فإنه تعالى منجز لك ما وعدك من نصرك عليهم ، وجعله العاقبة لك ، ولمن اعتصم بما جئت به من المؤمنين .

(١) [٣٧ / الصفات / ١٧١ - ١٧٣] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣١ - سُورَةُ لُقْمَانَ

سميت به لاشتمالها على قصته التي تضمنت فضيلة الحكمة وسر معرفة الله تعالى وصفاته ،
وذم الشرك والأمر بالأخلاق والأفعال الحميدة . والنهي عن الذميمة . وهي معظمت مقاصد
القرآن . قاله المهايى . وهي مكية . ويقال : إلا قوله تعالى ^(١) (وَكَوَّأْنَا فِي الْأَرْضِ مِنْ
شَجَرَةٍ . . .) الآيتين . وآياتها أربع وثلاثون آية . وسيأتى الكلام على لقمان والخلاف فيه .

(١) [٣١ / لقمان / ٢٧ و ٢٨] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

- [١] (الْم) *
 [٢] (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ) *
 [٣] (هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ) *
 [٤] (الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ) *
 [٥] (أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ، وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) *
 [٦] (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ، أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ) *
 « الْم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ » أى ذى الحكمة الناطق بها « هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ » بيان لإحسانهم ، يعنى ماعلموه من الحسنات . أو تخصيص لهذه الثلاثة من شعبه ، لإظهار فضلها وإنافتها على غيرها . والمراد بالزكاة ، على أنها مكية ، هى مطلق إخراج المال تقربا بالتصدق منه ، وتركية للنفس بإيتائه ، من وصمة البخل والشح الردى لها . لأنصباؤها المعروفة . فإنها إنما بينت بالمدينة « أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ » تعريض بالمشركين . وأنهم يستبدلون بهذا الكتاب المفيد الهدى والرحمة والحكمة ، ما يئاهى من الحديث عن ذلك الكتاب العظيم . ليضلوا أتباعهم عن الدين الحق . قال الزمخشري : و(اللهو) كل باطل ألهى عن الخير ، وعمما يعنى . وهو الحديث نحو

السمر بالأساطير ، والأحاديث التي لأصل لها ، والتحدث بالخرافات والمضاحيك وفضول الكلام . وما لا ينبغي، مما كانوا يؤفكون به عن استماع حكم التنزيل وأحكامه . ويؤثرونه على حديث الحق . وقوله تعالى « **بَغَيْرِ عِلْمٍ** » أى بما هى الكلمات ومنافعها ، والنقائص ومضارها « **وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا** » الضمير للسبيل ، وهو مما يذكر ويؤث . « **أَوْ لَوْلَا أَنَّهُمْ** **عَذَابٌ مُّهِينٌ** » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَإِذَا تُلِيٰ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا وَلِيٰ مُّسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ، فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

[٨] (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ)

[٩] (خَالِدِينَ فِيهَا ، وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[١٠] (خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ، وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسِي أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ، وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ)

«وَإِذَا تُلِيٰ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا وَلِيٰ» أى عرض عنها «مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا» أى ثقلا مانعا من السماع «فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ * خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا» الضمير للسماوات . وهو استشهاد برؤيتهم لها غير معمودة على قوله (بِغَيْرِ عَمَدٍ) كما تقول لصاحبك : أنا بلا سيف ولا رمح ترانى . والجملة لاجل لها لأنها مستأنفة . أو فى محل الجر، صفة للعمد . أو بغير عمد مرثية . يعنى أنه عمدها بعمد لا ترى

وهي إمساكها، بقدرته. كذا في (الكشاف) «وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ» أي جبالاً ثوابت «أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ» أي تميل بكم فتهلككم لما في جوفها من قوة الجيشان «وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ» أي من كل نوع من أنواعها «وَأَنْزَلْنَا» أي لحفظكم وحفظ دوابكم، وللرفق بكم وبدوابكم «مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ» أي صنف من الأغذية والأدوية «كَرِيمٍ» أي كثير المنافع.

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ، بَلِ الْأَظْلِمُونَ

فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)

[١٢] (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ ، وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا

يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ)

« هَذَا » أي ما ذكر من السموات والأرض، وما تعلق بهما من الأمور المعدادة « خَلْقُ اللَّهِ » أي مخلوقه « فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ » أي مما اتخذتموه شركاء له سبحانه في العبادة « بَلِ الْأَظْلِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ » إضراب عن تبكيهم بما ذكر، إلى التسجيل عليهم بالضلال البين المستدعى للإعراض عن مخاطبتهم بالمقدمات المعقولة الحقة، لاستحالة أن يفهموا منها شيئاً، فيهدوا به إلى العلم ببطلان ما هم عليه. أو يتأثروا من الإلزام والتبكي فينجزوا عنه. ووضع الظاهر موضع ضميرهم، للدلالة على أنهم بإشراكهم واضعون للشيء في غير موضعه. ومتعدون عن الحدود. وظالمون لأنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد. أفاده أبو السعود ثم أشار تعالى إلى أن بطلان الشرك مقول على لسان ذوى الحكمة. كيف لا؟ والتوحيد أساس الحكمة، بقوله سبحانه «وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ» يعنى استكمال النفس بالعلوم النظرية، وملسكة الأفعال الفاضلة بقدر الطاقة البشرية، أمرين له على لسان نبي أو بطريق

الإلهام (على قول الجمهور أنه حكيم) أو الوحي (على قول عكرمة أنه نبي) « أَنْ أُشْكِرُ لِلَّهِ » أي على ما أعطاك من نعمه ، من أوتيتها فقد أوتى خيراً كثيراً . كذا قاله المهاجمي . والأظهر أن (أن) مفسرة . فإن إيتاء الحكمة في معنى القول . والشكر كلمة تجمع ما تدور عليه سعادة الدنيا والآخرة . لأنه صرف العبد جميع ما أنعم الله عليه إلى ما خلق لأجله « وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ » لِعَوْدِ ثمرات شكره عليه « وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ » أي غنى عن كل شيء . فلا يحتاج إلى الشكر . وحقيق بالحمد . بل نطق بحمده كل موجود .

تنبيه :

قال ابن كثير : اختلف السلف في لقمان . هل كان نبياً أو عبداً صالحاً من غير نبوة ، على قولين : الأكثرون على الثاني . ويقال إنه كان قاضياً على بنى إسرائيل ، في زمن داود عليه السلام . وما روى من كونه عبداً مسه الرق ، وينافي كونه نبياً . لأن الرسل كانت تبعث في أحساب قومها . ولهذا كان جمهور السلف على أنه لم يكن نبياً ، وإنما يُنقل كونه نبياً عن عكرمة ، إن صح السند إليه . فإنه ^(١) رواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث وكيع عن إسرائيل عن جابر عن عكرمة . قال : كان لقمان نبياً . وجابر هذا هو ابن يزيد الجعفي . وهو ضعيف . والله أعلم . انتهى .

وزعم بعضهم أن لقمان هو بلعام المذكور في التوراة ، وكان حكيم شعب وثني . وكان منبأ عن الله تعالى . وأغرب في تقريبه ، بأن الفعل العربي وهو (لقم) معناه بالعبري بلع . والله أعلم .

وقد نظم السيوطي من اختلف في نبوته ، فقال :

واختلفت في خضر أهل النقول قيل نبي أو ولي أو رسول
لقمان ، ذى القرنين ، حوا ، مريم والوقف في الجميع رأى المعظم

(١) انظر الصفحة رقم ٦٨ من الجزء الحادي والعشرين (طبعة الحلبي الثانية)

ثم قرن لقمان، بوصيته إياه بعبادة الله وحده، البرّ بالوالدين، كما قال تعالى (١) (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) وكثيرا ما يقرن تعالى بين ذلك في القرآن الكريم . وقال ههنا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَإِذْ قَالَ لَقْمَنٌ لِّابْنِهِ ۖ وَهُوَ يَعِظُهُ وَيَبْنِي لَاتُشْرِكُ بِاللَّهِ ، إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)

[١٤] (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصْلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ)

«وَإِذْ قَالَ لَقْمَنٌ لِّابْنِهِ ۖ وَهُوَ يَعِظُهُ وَيَبْنِي لَاتُشْرِكُ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ * وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ ۖ أَى بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمَا ، لَاسِيَا الْوَالِدَةَ . لِأَنَّهُ « حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنًا عَلَىٰ وَهْنٍ » أَى ضَعْفًا فَوْقَ ضَعْفٍ إِلَى الْوَالِدَةِ . وَ(وَهْنًا) حَالٌ مِنْ (أُمِّهِ) أَى ذَاتِ وَهْنٍ . أَوْ مَصْدَرٌ مُؤَكَّدٌ لِفِعْلِ هُوَ الْحَالُ . أَى : تَهِنٌ وَهْنًا . وَقَوْلُهُ (عَلَىٰ وَهْنٍ) صِفَةٌ لِلْمَصْدَرِ . أَى كَانْنَا عَلَىٰ وَهْنٍ . أَى تَضَعْفُ ضَعْفًا فَوْقَ ضَعْفٍ . فَإِنَّهَا لَا تَزَالُ يَتْرَايِدُ ضَعْفَهَا . لِأَنَّ الْحَمْلَ كَمَا عَظَّمَ زَادَتْ ثِقَلًا وَضَعْفًا « وَفِصْلَهُ » أَى فَطَامَهُ « فِي عَامَيْنِ » ثُمَّ فَسَّرَ الْوَصِيَّةَ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ « أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ » أَى بِأَنَّ تَعْرِفَ نِعْمَةَ الْإِحْسَانِ وَتَقْدِرُهُ قَدْرَهُ . قَالَ فِي (الْبَصَائِرِ) : الشُّكْرُ مَبْنِي عَلَىٰ خَمْسِ قَوَاعِدَ : خُضُوعِ الشَّاكِرِ لِلْمَشْكُورِ . وَجِبِّهِ لَهُ . وَاعْتِرَافِهِ بِنِعْمَتِهِ . وَالتَّنَاءُ عَلَيْهِ بِهَا . وَأَنْ لَا يَسْتَعْمِلَهَا فِيمَا يَكْرَهُ . هَذِهِ الْخَمْسَةُ هِيَ أَسَاسُ الشُّكْرِ وَبِنَاوِهِ عَلَيْهَا . فَإِنْ عَدِمَ مِنْهَا وَاحِدَةً ، اخْتَلَّتْ قَاعِدَةٌ مِنَ قَوَاعِدِ الشُّكْرِ . وَكُلٌّ مِنْ تَكْلِمٍ فِي الشُّكْرِ ، فَإِنْ كَلَّمَهَا إِلَيْهَا يَرْجِعُ وَعَلَيْهَا يَدُورُ . انْتَهَى .

(١) [١٧ / الإِمْرَاءُ / ٢٣] .

وقوله تعالى «إِلَى الْمَصِيرِ» تعليل لوجوب الامتثال . أى إلى الرجوع ، لا إلى غيرى ، فأجازيك على ما صدر عنك من الشكر والكفر .

تنبيهات

الأول - قال الزمخشريّ: فإن قلت: قوله تعالى (حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَمَاقِ الْمُدُنِ) كيف اعترض به بين المفسر والمفسر؟ قلت: لما وصى بالوالدين، ذكر ما تكابده الأم وتعانیه من المشاق والمتاعب في حملها وفسالها هذه المدة المتطاولة، إيجاباً للتوصية بالوالدة خصوصاً، وتذكيراً بحمقها العظيم مفرداً. ومن ثم قال رسول الله ﷺ (١) (لمن قال له من أبر؟) : أمك ثم أمك ثم أمك . ثم قال بعد ذلك : ثم أباك . وعن بعض العرب (٢) أنه حمل أمه إلى الحج على ظهره وهو يقول في حدائه بنفسه .

أَحْمِلُ أُمَّيْ وَهِيَ الْحَمَّالَةُ * تَرْضِعُنِي الدَّرَّةَ وَالْعَلَّالَةَ * وَلَا يُجَازِي وَالِدٌ فَعَالَهُ
الثاني - قال الحفاظ ابن كثير: وقوله تعالى (وَفِصَالُهُ فِي عَمَاقِ الْمُدُنِ) كقوله (٣) (وَأَلْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَمَا مَلَائِنَ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ) ومن ههنا استنبط ابن عباس وغيره من الأئمة، أن أقل مدة الحمل ستة أشهر. لأنه قال في الآية الأخرى (٤) (وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا) وإنما يذكر تعالى تربية الوالدة وتعبها ومشقتها في سهرها ليلاً ونهاراً، ليدرك الولد بإحسانها المتقدم إليه . كما قال تعالى (٥) (وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا) .

(١) أخرجه البخاريّ في : ٧٨ - كتاب الأدب ، ٢ - باب من أحق الناس بحسن الصحبة ، حديث رقم ٢٣٠٩ ، عن أبي هريرة .

(٢) انظر الكامل للمبرد ، الصفحة ٢٩٢ من الجزء الأول (طبعة الحلبيّ) .

(٣) [٢ / البقرة / ٢٣٣] . (٤) [٤٦ / الأحقاف / ١٥] . (٥) [١٧ / الإسراء / ٢٤] .

الثالث - قال الزمخشري : فإن قلت : ما معنى توقيت الفصال بالعامين ؟ قلت : المعنى في توقيته بهذه المدة ، أنها الغاية التي لا تتجاوز . والأمر فيما دون العامين موكول إلى اجتهاد الأم ، إن علمت أنه يقوى على الفطام ، فلها أن تفضمه . ويدل عليه قوله تعالى (١) «وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ» .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ، وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ، ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

«وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا» أى فى إشراك

ما لا تعلمه مستحقا للعبادة ، تقليدا لها .

وقال الزمخشري : أراد بنفى العلم به نفيه ، أى لا تشرك بى ما ليس بشىء ، يريد الأصنام .

كقوله (٢) «مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ» .

قال فى (الكشف) : ليس هذا من قبيل نفى العلم لنى وجوده . كما مر فى القصص .

وإلا لقال ما ليس بوجود . بل أراد أنه بولغ فى نفيه حتى جعل كلا شىء . ثم بولغ فى سلك

المجهول المطلق .

قال الشهاب : وهذا تقرير حسن ، فيه مبالغة عظيمة « وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا »

أى صحابا معروفا يرتضيه الشرع وبقضيه الكرم .

قال السيوطى فى (الإكمال) : فى الآية أن الوالد لا يطاع فى الكفر . ومع ذلك يصحب

معروفا « وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ » أى بالتوحيد والإخلاص فى الطاعات ، وعمى

(١) [٢ / البقرة / ٢٣٣] . (٢) [٢٩ / العنكبوت / ٤٢] .

الصالحات « ثُمَّ إِلَىٰ مَرَجٍ مُّجُومٍ فَأَنْبِئِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ » كناية عن الجزاء ، كما تقدم نظائره .

قال القاضي : والآيتان ، يعني (وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ إِلَىٰ قَوْلِهِ - تَعْمَلُونَ) معترضان في تضاعيف وصية لقمان ، تأكيد لما فيها من النهي عن الشرك . كأنه قال : وقد وصينا بمثل ما وصى به ، وذكر الوالدين للمبالغة في ذلك . فإنهما ، مع أنهما تلو الباري تعالى في استحقاق التعظيم والطاعة ، لا يجوز أن يطاعا في الإشراك . فما ظنك بغيرها ؟ انتهى .
ثم بين تعالى بقية وصايا لقمان ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (يٰبَنِي إِسْرَائِيلَ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي

السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ)

[١٧] (يٰبَنِي إِسْرَائِيلَ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ

مَا أَصَابَكَ ، إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)

« يٰبَنِي إِسْرَائِيلَ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ » أي إن الخصلة من الإساءة أو الإحسان ، إن تك مثلاً في الصغر كحبة الخردل « فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ » أي فتكن مع كونها في أقصى غايات الصغر ، في أخفى مكان وأحرزه ، كجوف الصخرة . أو حيث كانت في العالم العلوي أو السفلي « يَأْتِ بِهَا اللَّهُ » أي يحضرها ويحاسب عليها « إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ » أي ينفذ عمله وقدرته في كل شيء « خَبِيرٌ » أي يعلم كنه الأشياء ، فلا يعسر عليه . والآية هذه كقوله تعالى (١) (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ

(١) [٢١ / الأنبياء / ٤٧] .

شَيْئًا) الآية ، وقوله (١) (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) .

لطيفة :

قوله تعالى (فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ) الآية، من البديع الذي يسمى التتميم . فإنه تم خفاءها في نفسها بخفاء مكانها من الصخرة . وهو من وادى قولها (٢) (كأنه علم في رأسه نار) . « يَدِينِي أَقِمِ الصَّلَاةَ » أى بحدودها وفروضها وأوقاتها، لتكميل نفسك بمبادء ربك « وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ » لتكميل غيرك « وَأَصْبِرْ عَلَيَّ مَا أَصَابَكَ » أى من المحن والبلايا . أو فيما أمرت به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأن الداعي إلى الحق معرض لإيصال الأذى إليه . وهو أظهر . ويطابقه آية (٣) (وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) « إِنَّ ذَلِكَ » إشارة إلى الصبر . أو إلى كل ما أمر به « مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ » أى مما عزمه الله من الأمور . أى قطعه قطع إيجاب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (وَلَا تَصْعِرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْسُ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ)

(١) [٩٩ / الزلزلة / ٧ و ٨] .

(٢) قائلته الخنساء ، ترى أخاها صخرًا . ومطلع القصيدة :

ما هاج حزنك أم بالعين عوارُ أم ذرقت ، أم خلت من أهلها الدارُ

وصدر البيت :

* أَعْرَأْبَلِجُ تَأْتَمُّ الْهَدَاةُ بِهِ *

(٣) [١٠٣ / العصر / ٣] .

[١٩] (وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ ، إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ)

«وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ» أى لا تعرض بوجهك عنهم ، إذا كلمتهم أو كلموك ، احتقارا منك لهم ، واستكبارا عليهم . ولكن أَلِنْ جَانِبَكَ ، وابسط وجهك إليهم . كما جاء في الحديث^(١) (ولو أن تلقى أخاك ووجهك منبسط) «وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا» أى خيلاء متكبيرا «إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ» أى معجب فى نفسه «فَخُورٍ» أى على غيره «وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ» أى توسط بين الديب والإسراع «وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ» أى انقص من رفعه ، وأقصر ، فإنه يقبح بالرفع حتى ينكره الناس ، إنكارهم على صوت الحمير . كما قال «إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ» معللا للأمر على أبلغ وجه وآكده و(أنكر) بمعنى أوحش . من قولك (شئ أنكر) إذا أنكرته النفوس واستوحشت منه ونفرت . كما يقال فى العرف للقبیح (وحش) وأصله ضد الأئس والألفة . فهو إما مجاز أو كناية .

قال الزمخشري : الحمار مثل فى الذم البليغ والشتيمة وكذلك نهاقه . ومن استفحاشهم لذكركه مجردا ، وتقاديبهم من اسمه ، أنهم يكونون عنه ويرغبون عن التصريح به . فيقولون (الطويل الأذنين) كما يكنى عن الأشياء المستذرة . وقد عدت فى مساوى الآداب ، أن يجرى ذكر الحمار فى مجلس قوم من أولى المروءة . ومن العرب من لا يركب الحمار استنكافا ، وإن بلغت منه الرحلة . فتشبيهه الرافعين أصواتهم بالحمير ، وتمثيل أصواتهم بالهاق ، ثم إخلاء الكلام من لفظ التشبيه ، وإخراجه مخرج الاستعارة ، وأن جعلوا حميرا ، وصوتهم نهاقا - مبالغة

(١) أخرجه الترمذى فى : ٢٥ - كتاب البر والصلة ، ٤٥ - باب ما جاء فى طلاقة الوجه وحسن البشر ، ونصه : كل معروف صدقة . وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق ، وأن تفرغ من دلوك فى إناء أخيك ، عن جابر بن عبد الله .

شديدة في الذم والتهجين . وإفراط في التشييط عن رفع الصوت والترغيب عنه . وتنبه على أنه من كراهة الله بمكان . انتهى .

تنبيه :

جاء ذكر لقمان في أحاديث مرفوعة . منها ما رواه الإمام أحمد^(١) عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : إن لقمان الحكيم كان يقول : إن الله إذا استودع شيئاً حفظه . وروى ابن أبي حاتم عن القاسم بن خيمرة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : قال لقمان الحكيم لابنه وهو يعظه : يا بني إياك والتقنع ، فإنه مخوفة بالليل ، مذمة بالنهار .

ومن الآثار فيه ما رواه ابن أبي حاتم عن السري بن يحيى قال : قال لقمان لابنه : يا بني إن الحكمة أجلسست المساكين مجالس الملوك .

وعن عون بن عبد الله قال : قال لقمان لابنه : يا بني ! إذا أتيت نادى قوم فارمهم بسهم الإسلام (يعنى السلام) ثم اجلس في ناحيتهم ، فلا تنطق حتى تراهم قد نطقوا . فإن أفاضوا في ذكر الله فأجل سهمك معهم . وإن أفاضوا في غير ذلك فتحول عنهم إلى غيرهم . نقله ابن كثير رحمه الله .

ثم نبه تعالى خلقه على نعمه الوافرة المستتعبة انقراده بالألوهية ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (الْمَ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ، وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ)

(١) أخرجه بالصفحة رقم ٨٧ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي)

[٢١] (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ
ءِ آبَاءَنَا، أَوْ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ)

« أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » أى من النجوم
والشمس والقمر ، التى ينتفعون من ضيائها وما تؤثره فى الحيوان والنبات والجماد بقدرته تعالى .
وكذا من الأمطار والسحب والكواكن العلوية التى خلقها تعالى لنفع من سخرت له .
وكذا ما وجد فى الأرض من قرار وأشجار وأنهار وزروع وثمار ، ليستعملها من سخرت له
فما فيه حياته وراحته وسعادته « وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ وَظَهَرَ وَبَاطِنَةً » أى محسوسة
ومعقولة . كإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، وإزاحة الشبه والعلل « وَمِنَ النَّاسِ » يعنى
الجاحدين نعمته تعالى « مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ » أى فى توحيدهِ وإرساله الرسل « بغير علمٍ »
أى برهان قاطع مستفاد من عقل « وَلَا هُدًى » أى دليل مأثور عن نبيّ « وَلَا كِتَابٍ
مُنِيرٍ » أى منزل من لدنه تعالى ، بل لمجرد التقليد . و (المنير) بمعنى المنقذ من ظلمة الجهل
والضلال « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ » أى لمن يجادل . والجمع باعتبار المعنى « اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ
قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ »
أى يدعوا آباءهم إلى اعتقادات وأعمال ، هى أسباب العذاب . كأنه يدعوهم إلى عين العذاب .
فهم متوجهون إليه حسب دعوته . ومن كان كذلك فأنى يتبع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ
وَإِلَى اللَّهِ عَصِيْبَةُ الْأُمُورِ)

[٢٣] (وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُمْ ، إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ،
إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

- [٢٤] (نَمَتَهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضَّطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ)
- [٢٥] (وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَن خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ، قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)
- [٢٦] (لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)
- [٢٧] (وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)
- [٢٨] (مَا خَلَقْنَاكُمْ وَلَا نَبْعَثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)
- [٢٩] (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)
- «وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ» أى فى أعماله «فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ» أى تعلق بأوثق ما يتعلق به من الأسباب . وهو تمثيل لحال المؤمن المخلص المحسن ، بحال من أراد رقى شاق ، فتمسك بأوثق عرى الجبل التدلّى منه « وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ * وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ وَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا » أى من الأعمال للظاهرة والباطنة «إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * نَمَتَهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضَّطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ * وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَن خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ » أى على أن جعل دلائل التوحيد بحيث لا يكاد ينكرها المكابرون أيضا « بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » أى شيئًا ما . فذلك لا يعملون بمقتضى اعترافهم « لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى فلا يستحق العبادة فيهما غيره « إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ » أى عن العالمين ، وهم فقراء إليه جميعا « الْحَمِيدُ » أى الحمود فيخلق وشرع ، بلسان الحال والمقال « وَلَوْ أَنَّمَا

فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمُ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ « أى من بعد نفاذه » سَبْعَةٌ أَبْحُرٍ مَا نَفَدَتْ كَلِمَتُ اللَّهِ « أى التى أوجد بها الكائنات، وسيوجد بها مالا غاية لحصره ومنتهاه. والسبعة ، إنما ذكرت ، على سبيل المبالغة لا الحصر . « إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَتَفْسٍ وَاحِدَةٍ « أى إلا كخلقها وبعثها فى سهولته « إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى « أى أمد قدره الله تعالى لجريرهما، وهو يوم القيامة « وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ » أى لأن من شاهد مثل ذلك الصنع الرائق، والتدبير الفائق ، لا يكاد يغفل عن كون صانعه عز وجل محيطا بما يأتى ويذر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[۳۰] (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَطْلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ)

[۳۱] (أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)

[۳۲] (وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ ، وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ)

« ذَلِكَ » إشارة إلى ما ذكر من سعة العلم وشمول القدرة وعجائب الصنع واختصاص البارى بها « بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ » أى بسبب أنه الحق ، وجوده وإلهيته « وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَطْلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ » أى بإحسانه فى تهيئة أسبابه « لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ » إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ

صَبَّارٍ « أى عظيم الصبر على البأساء والضراء » شَكُورٍ « أى كثير الشكر للنعم ، بالقيام بحقتها » وَإِذَا غَشِيَهُمْ « أى علاهم وأحاط بهمهم » مَوْجٌ كَأُلْظَلَلٍ « أى كالسحب والحجب » دَعَاؤُا اللَّهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ « أى التجئوا إليه تعالى وحده ، لزوال ما ينافع الفطرة من الهوى والتقليد، بما دهاهم من الضر « فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ « قال ابن كثير: قال مجاهد : أى كافر . كأنه فسر (المقتصد) ههنا بالجاحد كما قال تعالى (١) « فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ » وقال ابن زيد : هو المتوسط فى العمل . وهذا الذى قاله ابن زيد هو المراد فى قوله (٢) تعالى (فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ) الآية ، فالمقتصد ههنا هو المتوسط فى العمل . ويحتمل ، أن يكون مراداً هنا أيضا ، ويكون من باب الإنكار على من شاهد تلك الأهوال والأمور العظام ، والآيات الباهرات فى البحر . ثم من بعد ما أنعم الله عليه بالخلاص ، كان ينبغى أن يقابل ذلك بالعمل التام ، والدؤوب فى العبادة ، والمبادرة إلى الخيرات . فمن اقتصد بعد ذلك ، كان مقصرا والحالة هذه . والله أعلم . انتهى « وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كَأَكْثُ خِتَارٍ « أى غدار ، ناقض للعهد الفطرى ولعقد العزيمة وقت الهول البحرى « كَفُورٍ « أى مبالغ فى كفران نعمته تعالى . لا يقضى حقوقها ، ولا يستعملها فى محابته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ)

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا » أى ليس بمن أحدهما عن الآخر شيئا ، لانقطاع الوصل فى

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٦٥] . (٢) [٣٥ / فاطر / ٣٢] .

ذلك اليوم الرهيب . قال أبو السعود : وتغيير النظم - في الثانية - للدلالة على أن المولود أولى بأن لا يجزى . وقطع طمع من توقع من المؤمنين أن ينفع أباه الكافر في الآخرة « إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ » أي بالثواب والعقاب . لا يمكن إخلافه « فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ » أي الشيطان .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)

« إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ » أي علم وقت قيامها « وَيُنزِلُ الْغَيْثَ » أي في وقته الذي قدره ، وإلى محله الذي عينه في علمه « وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ » أي من ذكر أو أنثى ، سعيد أو شقي « وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا » أي من خير أو شر « وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ » أي في بلدها أو غيره . لاستئثار الله تعالى بعلم ذلك . وقد جاء في الخبر تسمية هذه الخمس ، مفاتيح الغيب « إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ » أي بما كان ويكون ، وبظواهر الأشياء وبواطنها ، لا إله إلا هو .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٢ - سُورَةُ السَّجْدَةِ

سميت بها ، لأن آية السجدة منها ، تدل على أن آيات القرآن من العظمة بحيث تخرو وجوه الكل ، لسماع مواعظها ، وتنزه منزلها عن أن يعارض في كلامه . وبشكره على كمال هدايته . وهذا أعظم مقاصد القرآن ، أفاده المهامبي . وهي مكية ، وآيها ثلاثون .

روى البخاري^(١) في (كتاب الجمعة) عن أبي هريرة قال : كان النبي ﷺ يقرأ في الفجر ، يوم الجمعة ، آلم * تنزيل السجدة ، وهل أتى على الإنسان . ورواه مسلم^(٢) أيضا .

وروى الإمام أحمد عن جابر قال : كان النبي ﷺ لا ينام حتى يقرأ الم . تنزيل السجدة ، وتبارك الذي بيده الملك .

قال ابن كثير : تفرد به أحمد رحمه الله تعالى .

(١) أخرجه البخاري في : ١١ - كتاب الجمعة ، ١٠ - باب ما يقرأ في صلاة الفجر يوم الجمعة ، حديث ٥٢٢ .

(٢) أخرجه في : ٧ - كتاب الجمعة ، حديث رقم ٦٥ و٦٦ (طبعتنا)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (الْم)

[٢] (تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَارَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

[٣] (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ

مِّنْ نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ)

« الْم » تقدم أن هذه الفواخ أسماء للسور « تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَارَيْبَ فِيهِ » أى فى كونه منزلا « مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ » أى اختلقه من تلقاء نفسه « بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ » أى ينبعون الحق . وذلك أن قريشا لم يبعث إليهم رسول ، قبله ﷺ . فلفظ تعالى بهم وبعث فيهم رسولا منهم ﷺ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ

عَلَى الْعَرْشِ ، مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ، أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ)

[٥] (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ

مِقْدَارُهُ مِائَتَ أَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ)

« اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى

الْعَرْشِ «تقدم الكلام في ذلك» مَا لَكُمْ مِّنْ دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ «أى ما لكم عنده ناصر ولا شفيع من الخلق» أَفَلَا تَعَدَّ كُرُوفَ «أى تعظون بالقرآن فتؤمنوا» يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ «أى يدبر أمر الدنيا بأسباب سماوية ، من الملائكة وغيرها ، نازلة آثارها وأحكامها إلى الأرض» ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ «أى يصعد إليه، أى مع الملك للعرض عليه» فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ «أى مقدار صعوده على غير الملك، ألف سنة من سنى الدنيا .

قال ابن كثير : أى ينزل أمره من أعلى السموات إلى أقصى تخوم الأرضين . كما قال تعالى (١) (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ) الآية . وترفع الأعمال إلى ديوانها فوق السماء . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (ذَلِكَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

[٧] (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِن طِينٍ)

[٨] (ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ)

[٩] (ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ

وَالْأَفْئِدَةَ ، قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ)

« ذَلِكَ » أى المدبر « عِلْمُ الْغَيْبِ » أى ما غاب عن العباد وما يكون « وَالشَّهَادَةِ »

أى ما علمه العباد وما كان « الْعَزِيزُ » أى الغالب على أمره « الرَّحِيمُ » أى بالعباد فى تدبره

« الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ » أى أحكم خلق كل شىء . لأنه ما من شىء خلقه إلا وهو

مرتب على ما اقتضته الحكمة « وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ » يعنى آدم « مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ

(١) [٦٥ / الطلاق / ١٢] .

نَسَلَهُ « أَي ذريته » مِنْ سُلَالَةٍ « أَي من نطفة » مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ « أَي ضعيف متمهن .
والسلالة الخلاصة . وأصلها مايسلّ ويخلص بالتصفية » ثُمَّ سَوَّاهُ « أَي قومه في بطن أمه
» وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ « أَي جعل الروح فيه ، وأضافه إلى نفسه تشریفاً له » وَجَعَلَ لَكُمْ
السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ « أَي خلق لكم هذه المشاعر ، لتدركوا بها الحق والهدى
» قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ « أَي بأن تصرفوها إلى ما خلقت له .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَقَالُوا أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ، بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ

كَفِرُونَ)

[١١] (قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ)

[١٢] (وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا

وَسَمِعْنَا فَأَرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ)

» وَقَالُوا « أَي كفار مكة » أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ « أَي صرنا ترابا مخلوطا بتراب

الأرض لا تتميز منه ، أو غبنا فيها » أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ « أَي نجدد بعد الموت » بَلْ

هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ « أَي بالبعث بعد الموت للجزاء والحساب » كَفِرُونَ « أَي جاحدون .

قال أبو السعود : إضراب وانتقال من بيان كفرهم بالبعث ، إلى بيان ما هو أبلغ وأشنع منه ،

وهو كفرهم بالوصول إلى العاقبة ، وما يلقونه فيها من الأحوال والأهوال جميعاً » قُلْ « أَي

بيانا للحق ورداً على زعمهم الباطل » يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ « أَي يقبض

أرواحكم » ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ « أَي بالبعث للحساب والجزاء .

فائدة :

قال ابن أبي الحديد في (شرح نهج البلاغة) في هذه الآية : مذهب جمهور أصحابنا

أن الروح جسم لطيف بخارى يتسكون من أطف أجزاء الأعذية ، ينفذ في العروق ، حالة فيها . وكذلك للقلب ، وكذلك للكبد .

وعندهم أن لملك الموت أعوانا تقبض الأرواح بحكم النياية عنه . لولا ذلك لتعذر عليه وهو جسم أن يقبض روحين في وقت واحد في المشرق والمغرب ، لأن الجسم الواحد لا يكون في مكانين . في وقت واحد .

قال أصحابنا : ولا يبعد أن يكون الحفظة الكاتبون هم القابضون للأرواح عند انقضاء الأجل .

قالوا : وكيفية القبض ، ولوج الملك من الفم إلى القلب ، لأنه جسم لطيف هوائى ، لا يتعذر عليه النفوذ في المخارق الضيقة ، فيخالط الروح ، التي هي كالشبيهة بها ، لأنها بخارى . ثم يخرج من حيث دخل ، وهي معه .

وإنما يكون ذلك في الوقت الذى يأذن الله تعالى له فيه وهو حضور الأجل .

فألزموا على ذلك أن يغوص الملك في الماء مع الغريق ليقبض روحه تحت الماء . فالتزموا ذلك ، وقالوا : ليس بمستحيل أن يتخلل الملك الماء في مسام الماء ، فإن فيه مسام ومنافذ وفي كل جسم . على قاعدتهم في إثبات المسام في الأجسام .

قالوا : ولو فرضنا أنه لا مسام فيه ، لم يبعد أن يلججه الملك فيوسع لنفسه مكانا ، كما يلججه الحجر والسمك ، وغيرها . وكالريح الشديدة التي تفرع ظاهرا البحر فتقره وتحفره . وقوة الملك أشد من قوة الريح . انتهى .

والأولى الوقوف ، فيما لم تعلم كيفيةته ، عند متلوّه وعدم مجاوزته ، أدباً عن التهجم على الغيب وتورعاً عن محاولة ما لا يبلغ كنهه ، وأسوة بما مضى عليه من لم يخض فيه ، وهم الخيرة والأسوة ، والله أعلم .

«وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ» وهم القائلون تلك المقالة الشنعاء «نَا كِسُورًا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ» أى مطأطؤها من الحياء والخزى ، لما قدمت أيديهم «رَبَّنَا» أى يقولون ربنا «أَبْصَرْنَا

وَسَمِعْنَا « أى علمنا ما لم نعلم ، وأيقنا بما لم نكن به موقنين « فَأَرْجِعْنَا » أى إلى الدنيا
« نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ » أى مقرون بك وبكتابك ورسولك والجزاء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ

جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)

[١٤] (فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ

الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

« وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى » أى تقواها « وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي » أى

فى القضاء السابق « لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » أى سبق القول حيث

قلت لإبليس ، عند قوله ^(١) (لَأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ) ^(٢) (فَالْحَقُّ

وَالْحَقُّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ) أى فبموجب ذلك القول

لم نشأ إعطاء الهدى على العموم . بل منعناه من أتباع إبليس الذين هؤلاء من جملتهم حيث

صرفوا اختيارهم إلى الغي والفساد . ومشيتته تعالى لأفعال العباد منوطة باختيارهم إياها .

فلما لم يختاروا الهدى ، واختاروا الضلالة ، لم يشأ إعطاء لهم . وإنما آتاه الذين اختاروه من

النفوس البرية ، وهم المعنيون بما سياتى من قوله تعالى ^(٣) (إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا) الآية . فيكون

مناط عدم مشيئة إعطاء الهدى ، فى الحقيقة ، سوء اختيارهم ، لا تحقق القول . أفاده

أبو السعود . « فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا » أى تركتم الإقرار به ، والإيمان

بصدق موعوده ، وعاماتموه معاملة النسي المهجور « إِنَّا نَسِينَاكُمْ » أى جازيناكم جزاء

(١) [١٥ / الحجر / ٣٩ و ٤٠] . (٢) [٣٨ / ص / ٨٤ و ٨٥] .

(٣) [٣٢ / السجدة / ١٥] .

نسيانكم . أو تركناكم في العذاب ترك النسي « وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » أى من الموبقات . والتكرير للتأكيد والتشديد . وتعيين الفعل المطوى، للذوق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ

رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ)

[١٦] (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ

يُنْفِقُونَ)

« إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا » أى وعظوا « خَرُّوا سُجَّدًا » لسرعة

قبولهم لها بصفاء فطرتهم ، وذلك تواضعاً لله وخشوعاً وشكراً على ما رزقهم من الإسلام

« وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ » أى عن الانقياد لها ، كما يفعله الجهلة

من الكفرة الفجرة . قال تعالى ^(١) (إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ

دَاخِرِينَ) « تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ » أى ترتفع وتنحى عن الفرش ومواضع

النوم . والجملة مستأنفة لبيان بقية محاسنهم ، وهم المتعبدون بالليل « يَدْعُونَ رَبَّهُمْ » أى

داعين له « خَوْفًا » من عذابه « وَطَمَعًا » فى رحمته « وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ » أى من المال

« يُنْفِقُونَ » أى فى وجوه البرِّ والحسنات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِّمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[١٨] (أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ، لَا يَسْتَوُونَ)

(١) [٤٠ / غافر / ٦٠] .

[١٩] (أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[٢٠] (وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ، كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْكَدِبُونَ)

« فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ » أى ما ذكر وأعد أى لهؤلاء الذين عدت مناقبهم « مِنْ قَرَّةٍ أَعْيَنٍ » أى مما تقر به عينهم من طيبة النفس والثواب والكرامة فى الجنة « جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » أى فى الدنيا من الأعمال الصالحة « أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا » أى كافر اجحدا « لَا يَسْتَوُونَ » أى فى الآخرة بالثواب والكرامة. كما لم يستووا فى الدنيا بالطاعة والعبادة. ثم فصل مراتب الفريقين بقوله « أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا » أى ثوابا « بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا » وكقوله (١) تعالى (كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا) كناية عن دوام عذابهم واستمراره « وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْكَدِبُونَ » أى يقال لهم ذلك ، تشديداً عليهم وزيادة فى غيظهم ، وتقريعا وتوبيخا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَلَنذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلَدِ نِى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[٢٢] (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ، إِنَّا مِنَ

الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ)

(١) [٢٢ / الحج / ٢٢] .

« وَلَنذِيقَنَّهُمْ » أى أهل مكة « مِّنَ الْعَذَابِ الْأَذْنَىٰ » أى عذاب الدنيا والجذب والقتل والأسر « دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ » يعنى عذاب الآخرة « لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » أى يتوبون عن الكفر أى يرجعون إلى الله عند تصفية فطرتهم بشدة العذاب الأدنى، قبل الرين بكثافة الحجاب «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا» أى جحدها وكفر بها « إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ » أى بالعذاب ، وإظهار المتقين عليهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ ، وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ)

[٢٤] (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا، وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ)

«وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ» أى التوراة «فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ» أى لقاء الكتاب الذى هو القرآن . وعود الضمير إلى الكتاب المتقدم ، والمراد غيره على طريق الاستخدام ، أو إرادة العهد ، أو تقدير مضاف ، أى تلقى مثله ، أى فلا تكن فى مرية من كونه؛ وحيًا متلقى من لدنه تعالى . والمعنى : إنا آتينا موسى مثل ما آتيناك من الكتاب . ولقيناه من الوحي مثل ما لقيناك . فلا تكن فى شك من أنك لقيت مثله . ونهيه ﷺ عن الشك ، المقصود به نهى أمته . والتعريض بمن صدر منه مثله « وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ » أى من الضلالة « وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا » أى قادة بالخير يدعون الخلق إلى أمرنا وشرعنا « لَمَّا صَبَرُوا » أى على العمل به والاعتصام بأمره « وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ » أى يصدقون أشد التصديق وأبلغه . والمعنى : كذلك لنجعلن الكتاب الذى آتيناك، هدى لأمتك، ولنجعلن منهم أئمة يهدون مثل تلك الهداية . ويؤخذ من فحوى الآية، أن بنى إسرائيل لما نبذوا الاعتصام بالكتاب، ونبذوا الصبر على الأمر بالمعروف والنهى

عن المنكر ، وفقدوا الاستيقان بحقمة الإيمان ، فغيروا وبدلوا ، سلبوا ذلك المقام ، وأدبيل عليهم انتقاما منهم . وتلك سنته تعالى (١) (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ) ففي طي هذا الترغيب ، ترهيب وأى ترهيب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

[٢٦] (أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ ، أَفَلَا يَسْمَعُونَ)

[٢٧] (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنعْمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ، أَفَلَا يُبْصِرُونَ)

« إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ » أى يقضى « بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » أى فيميز الحق من الباطل ، بتمييز الحق من المبطل « أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ » أى يتبين لكفار مكة « كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ » أى الماضية بعذاب الاستئصال « يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ » أى منازلهم . كمنازل قوم شعيب وهود وصالح ولوط عليهم السلام . فلا يرون فيها أحدا ممن كان يعمرها ويسكنها . ذهبوا كأن لم يَغْنَوْا فيها . كما قال (٢) (فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِبَةٌ بِمَا ظَلَمُوا) « إِنَّ فِي ذَلِكَ » أى فبما فعلنا بهم « لَآيَاتٍ » أى عبرا ومواعظ ودلائل متناظرة « أَفَلَا يَسْمَعُونَ » أى أخبار من تقدم ، كيف صار أمرهم بسبب تكذيبهم الرسل ، وبغيتهم الفساد في الأرض ، فيحملهم ذلك على الإيمان « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ » وهى التى جزر نباتها ، أى قطع « فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنعْمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ » يعنى العشب والثمار والبقول « أَفَلَا يُبْصِرُونَ » أى فيستدلون به على كمال قدرته ووجوب

(١) [١٣ / الرعد / ١١] . (٢) [٢٧ / النمل / ٥٢] .

انقراؤه بالإلهية . وهذا كآية^(١) (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ * أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا) الآية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

[٢٩] (قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ)

« وَيَقُولُونَ » أى كفار مكة « مَتَىٰ هَذَا الْفَتْحُ » أى الانتصار علينا . استعجال لوقوع البأس الربانى عليهم ، الذى وعدوا به ، واستبعاد له « إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ » لخلول ما يغشى الأبصار ويعمى البصائر . وظهور منار الإيمان وزهوق الفريق الكافر .

قال ابن كثير : أى إذا حل بكم بأس الله وسخطه وغضبه فى الدنيا والأخرى ، لا ينفع الذين كفروا بإيمانهم ولا هم ينظرون ، كما قال تعالى^(٢) (فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمٌ رُسُلَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِّنَ الْعِلْمِ) الآيتين . ومن زعم أن المراد من هذا الفتح فتح مكة ، فقد أبعد النجمة ، وأخطأ فأخس ، فإن يوم الفتح ، قد قبل رسول الله ﷺ إسلام الطلقاء وقد كانوا قريبا من ألفين . ولو كان المراد فتح مكة ، لما قبل إسلامهم لقوله تعالى^(٣) (قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ) وإنما المراد الفتح الذى هو القضاء والفصل كقوله^(٤) (فَأَفْتَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا) وكقوله^(٥) (قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ) الآية وقال تعالى^(٦) (وَأَسْتَفْتِحُكُمْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ) وقال تعالى^(٧) (إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَ كُفْرًا فَتْحًا) .

(١) [٨٠ / عبس / ٢٤ و ٢٥] . (٢) [٤٠ / غافر / ٨٣] .

(٣) [٣٢ / السجدة / ٢٩] . (٤) [٢٦ / الشعراء / ١١٨] .

(٥) [٣٤ / سبأ / ٢٦] . (٦) [١٤ / إبراهيم / ١٥] .

(٧) [٨ / الأنفال / ١٩] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَأَنْتَظِرُ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ)

« فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ » أى عن المشركين ، ولا تنال بهم ، وبلغ ما أنزل إليك من ربك « وَأَنْتَظِرُ » أى النصرة عليهم . فإن الله سينجز لك ما وعدك ، إنه لا يخلف الميعاد « إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ » أى ما فى نفوسهم . كقوله تعالى (١) (أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّبَرَّأْ بِهٖ رَيْبَ الْمُؤْمِنِينَ) (٢) (وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمْ الدَّوَابُّ) أى وسيجدون مغبة انتظارهم من وبيل عقابه تعالى وأليم عذابه بهم .

(١) [٥٢ / الطور / ٣٠] . (٢) [٩ / التوبة / ٩٨] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٣ - سُورَةُ الْأَحْزَابِ

سميت بها ، لأن قصتها معجزة لرسول ﷺ . متضمنة لنصره بالريح والملائكة . بحيث كفى الله المؤمنين القتال . وقد ميز بهم بين المؤمنين والمنافقين . وهذا من أعظم مقاصد القرآن . أفاده المهايى .

وهي مدنية . وآياتها ثلاث وسبعون آية . وروى الإمام أحمد عن أبي بن كعب قال : لقد رأيتها وإنما تعادل سورة البقرة . ولقد قرأنا فيها (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم) .

قال ابن كثير : وهو يقتضى أنه قد كان فيها قرآن ثم نسخ لفظه وحكمه أيضاً . والله أعلم . انتهى .

قلت : كان يصح هذا الاقتضاء ، لو كان هذا الأثر صحيحاً . أما ولم يخرج أرباب الصحاح ، فهو من الضعف بمكان .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا)

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ » نودي صلوات الله عليه بوصفه دون اسمه ، تعظيماً له . وباب المخاطبة يعدل فيها عن النداء بالاسم تسكريماً للمخاطب . ولا كذلك باب الأخبار فقد يصرح فيها بالاسم ، والتعظيم باق كآية (٢) (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ) لتعليم الناس بأنه رسول الله وتلقيهم أن يسموه بذلك ويدعوه به . وأمره عليه السلام بالتقوى تفخياً وتعظيماً للتقوى نفسها ، حيث أمر بها مثله . فإن مراتبها لا تنتهي . مع أن المقصود الدوام والثبات عليهما . ولم يجعل الأمر لأتمته كما في نظائره ، لأن سياق ما بعده لأمر يخصه . كقصة زيد رضي الله عنه « وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ » أي لا توافقهم على أمر . ولا تقبل لهم رأياً ولا مشورة ، وجانبهم واحترس منهم . فإنهم أعداء الله وأعداء المؤمنين . لا يريدون إلا المضارّة والمضادّة « إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا » أي فهو أحق بأن تتبع أوامره ويطاع ، لأنه العليم بمواقب الأمور وبالمصالح من المفسد . والحكيم الذي لا يفعل شيئاً ، ولا يأمر به ، إلا بداعي الحكمة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا)

(١) [٤٨ / الفتح / ٢٩] .

[٣] (وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا)

[٤] (مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ، وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ
الَّتِي تَظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ، وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ،
ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ ، وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ)

«وَأَتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِيَّاكَ مِنْ رَبِّكَ» أى فى ترك طاعة الكافرين والمنافقين وغير ذلك
«إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا» *وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً» أى أسند
أمرك إليه ، وكله إلى تدبيره . فكنى به حافظاً موكولاً إليه كل أمر «مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ
مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ الَّتِي تَظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ
أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ» قال الزمخشري: أى ما جمع الله قلبين فى جوف ، ولا زوجية وأمومة فى امرأة ،
ولا بنوّة ودعوة فى رجل . والمعنى : إن الله سبحانه ، كما لم ير فى حكمته أن يجعل للإنسان
قلبين ، لأنه لا يخلو إما أن يفعل بأحدهما مثل ما يفعل بالأخر من أفعال القلوب ، فأحدهما
فضلة غير محتاج إليها - وإما أن يفعل بهذا غير ما يفعل بذاك ، فذلك يؤدى إلى اتصاف الجملة
بكونه مريداً كارها ، عالماً ظانناً ، موقناً شاكاً ، فى حالة واحدة - لم ير أيضاً أن تكون المرأة
الواحدة أمّاً لِرَجُلٍ زواجه . لأن الأم مخدومة ، مخفوض لها جناح الذل ، والزوجة مستخدمة
متصرف فيها بالاستفراش وغيره ، كالملوكة . وهما حالتان متنافيتان . وأن يكون الرجل الواحد
دعيّاً لرجل ، وابنّاً له . لأن البنوّة أصالة فى النسب ، وعراقفة فيه . والدعوة إصاق عارض
بالتسمية لا غير . ولا يجتمع فى الشيء الواحد أن يكون أصيلاً غير أصيل . وهذا مثل ضربه
الله فى (زيد بن حارثة) وهو رجل من كلب سبى صغيراً . وكانت العرب فى جاهليتها يتغاورون
ويدسأبون . فاشترى حكيم بن حزام لعمته خديجة . فلما تزوجها رسول الله ﷺ وهبته له .
وطلبه أبوه وعمه فخبر . فاختار رسول الله ﷺ فأعتقه . وكانوا يقولون (زيد بن محمد) فأنزل الله

هذه الآية . وقوله (١) (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ) .

والتمسكيري (رجل) وإدخال (من) الاستغراقية على (قلبين) تأكيداً لكيدانٍ لما قصد من المعنى .

كأنه قال : ما جعل الله لأمة الرجال ، ولا لواحد منهم ، قلبين البتة في جوفه .

وفائدة ذكر (الجوف) كالفائدة في قوله (٢) (الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) وذلك ما يحصل للسامع

من زيادة التصوّر والتجلي المدلول عليه . لأنه إذا سمع به ، صور لنفسه جوفاً يشتمل على قلبين

فكان أسرع إلى الإنكار . ومعنى (ظاهر من امرأته) قال لها : أنت عليّ كظهر أمي . وكان

الظاهر طلاقاً عند أهل الجاهلية . فكانوا يتجنبون المرأة المظاهر منها ، كما يتجنبون المطلقة .

وهو في الإسلام يقتضى الطلاق والحرمة إلى أداء الكفارة .

قال الأزهريّ : وخصوا (الظَّهْرَ) ، لأنه محل الركوب . والمرأة تركب إذا غشيت . فهو كناية

تلويحية ، انتقل من الظهر إلى الركوب ، ومنه إلى المغشى . والمعنى : أنت محرمة عليّ لا تركبين ،

كما لا تركب الأم . كذا في (الكشف) .

وقوله تعالى « ذٰلِكُمْ » إشارة إلى كل ما ذكر . أي من كونه ليس لأحد قلبان ، وليست

الأزواج أمهات ، ولا الأدمعاء أبناء . أو إلى الأخير فقط وهو الدعوة « قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ »

أي لاحقيقة له فلا يقتضى دعواكم ذلك ، أن يكون ابناً حقيقياً . فإنه مخلوق من صلب رجل آخر

فلا يمكن أن يكون له أبوان ، كما لا يمكن أن يكون لبشر واحد قلبان « وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ »

أي الثابت المحقق في نفس الأمر « وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ » أي سبيل الحق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ، فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٤٠] . (٢) [٢٢ / الحج / ٤٦] .

فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ، وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ ، وَلَكِنْ
مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا)

« ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ » أى انسبواهم إليهم . وهو أفراد للمتصود من أقواله تعالى الحقّة
« هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ » أى أعدل وأحكم .

قال ابن كثير: هذا الأمر ناسخ لما كان في ابتداء الإسلام، من جواز ادعاء الأبناء الأجانب
وهم الأدمياء . فأمر تبارك وتعالى بردّ نسبهم إلى آبائهم في الحقيقة . وأن هذا هو العدل والتوسط
والبر . روى البخارى^(١) عن ابن عمر قال: إن زيد بن حارثة رضى الله عنه، مولى رسول الله ﷺ،
ما كنا ندعوه إلا (زيد بن محمد) حتى نزل القرآن (ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ) وأخرجه
مسلم^(٢) وغيره . وقد كانوا يعاملونهم معاملة الأبناء من كل وجه، في الخلوة بالمحارم وغير ذلك .
ولهذا قالت سهلة^(٣) بنت سهيل ، امرأة أبى حذيفة رضى الله عنها: يارسول الله! إنا ندعوسالما
ابنا . وإن الله قد أنزل ما أنزل . وإنه كان يدخل على . وإنى أجد فى نفس أبى حذيفة من ذلك
شيئا . فقال ﷺ: أرضعنيه تحرمى عليه . الحديث . ولهذا لما نسخ هذا الحكم، أباح تبارك وتعالى
زوجة الدعوى . وتزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش، مطلقة زيد بن حارثة رضى الله عنه .
وقال عزوجل^(٤) (لَكَى لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِى أَزْوَاجٍ أَدْعِيَاءِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ
وَطَرًا) وقال تبارك وتعالى^(٥) فى آية التحريم (وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ)
احترازاً عن زوجة الدعوى، فإنه ليس من الصلب .

(١) أخرجه فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٣٣ - سورة الأحزاب ، ٢ - باب ادعوم

لأبائهم، حديث ٢٠٣٠

(٢) أخرجه فى : ٤٤ - كتاب فضائل الصحابة ، حديث رقم ٦٢ (طبعتنا)

(٣) أخرجه مسلم فى : ١٧ - كتاب الرضاع ، حديث رقم ٢٦ (طبعتنا)

(٤) [٣٣ / الأحزاب / ٣٧] . (٥) [٤ / النساء / ٢٣] .

فأما الابن من الرضاعة ، فنزل منزلة ابن الصلب شرعاً ، بقوله ﷺ في الصحيحين^(١) :
 حرموا من الرضاعة ما يحرم من النسب .

فأما دعوة الغير ابناً ، على سبيل التكريم والتعجيل ، فليس مما نهى عنه في هذه الآية ،
 بدليل ما رواه الإمام أحمد وأهل السنن . إلا - الترمذى - عن ابن عباس رضى الله عنهما^(٢) :
 قال : قدّمنا رسول الله ﷺ أغيلةً بنى عبد المطلب على جرات لنا من (جَمْع) فجعل يلطح
 أخذنا ويقول : أُبْنَيْ ! لا ترموا الجرة حتى تطلع الشمس .
 قال أبو عبيدة وغيره (أُبْنَيْ) تصغير (ابن) وهذا ظاهر الدلالة . فإن هذا في حجة الوداع
 سنة عشر .

وفي مسلم^(٣) عن أنس قال : قال لى رسول الله ﷺ : يا بنى . ورواه أبو داود
 والترمذى . انتهى كلام ابن كثير . وفي ذهابه إلى أن الأمر في الآية ناسخ - نظر ، لأن الناسخ لا بد
 أن يرفع خطاباً متقدماً . وأما ما لا خطاب فيه سابقاً ، بل ورد حكماً مبتدأ رفع البراءة الأصلية ،
 فلا يسمّى نسخاً اصطلاحاً . فاحفظه . فإنه مهم ومفيد في عدة مواضع .

(١) أخرجه البخارىّ في : ٥٢ - كتاب الشهادات ، ٧ - باب الشهادة على الأنساب

والرضاع ، حديث رقم ١٢٨٥ عن عائشة

وأخرجه مسلم في : ١٧ - كتاب الرضاع ، حديث رقم ١ (طبعتنا)

(٢) أخرجه النسائىّ في : ٢٤ - كتاب المناسك ، ٢٢٢ - باب النهى عن رمى جرة

العقبة قبل طلوع الشمس

وأخرجه ابن ماجة في : ٢٥ - كتاب المناسك ، ٦٢ - باب من تقدم من جمع إلى

منى لرمى الجمار ، حديث رقم ٣٠٢٥ (طبعتنا)

(٣) أخرجه في : ٣٨ - كتاب الآداب حديث رقم ٣١ (طبعتنا)

ولما أمر تعالى برد أنساب الأديعاء إلى آبائهم، إن عرفوا، أشار إلى دعوتهم بالأخوة والمولوية إن لم يعرفوا، بقوله سبحانه « فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ » أى فتنسبوا إليهم « فَأَخْوَانُكُمْ » أى فهم إخوانكم « فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ » أى أولياؤكم فيه. أى فقولوا: هذا أخى، وهذا مولاي. وبأخى ويا مولاي « وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ » أى إثم « فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ » أى فيما فعلتموه من نسبة بعضهم إلى غير أبيه فى الحقيقة، مخطئين بالسهو أو النسيان. أوسبق للسان، لأن الله تعالى قد وضع الحرج فى الخطأ ورفع إثمه « وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ » أى ففیه الجناح، لأن من تعمد الباطل كان آمناً « وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا » أى لعفوه عن الخطي.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ، وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ، وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا ، كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا)

«النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ» أى فى كل شىء من أمور الدين والدنيا. فيجب عليهم أن يكون أحب إليهم من أنفسهم، وحكمه أتخذ عليهم من حكمها، وحقه أثر لديهم من حقوقها ، وشفقتهم عليه أقدم من شفقتهم عليها . وأن يبدلوا دونها ، ويجعلوها فداءه إذا أعضل خطب ، ووفاءه إذا لقت حرب. وأن لا يتبعوا ما تدعواهم إليه نفوسهم، ولا ماتصرفهم عنه . ويتبعوا كل ما دعاهم إليه رسول الله ﷺ وصرفهم عنه . لأن كل مادعا إليه فهو إرشاد لهم إلى نيل النجاة والظفر بسعادة الدارين. وما صرفهم عنه، فأخذ بحجزهم لثلاثياتها فتوا فيما يرى بهم إلى الشقاوة وعذاب النار . أفاده الزمخشري .

وهذا كما قال تعالى (١) (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ

(١) [٤ / النساء / ٦٥] .

لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) وفي الصحيح: والذي نفسى بيده! لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين « وَأَزْوَاجُهُ وَأُمَّهَاتُهُمْ » أى فى وجوب تعظيمهن واحترامهن، وتحريم نكاحهن. وفيما عدا ذلك كالأجنبيات، ولذا قال ابن كثير: ولكن لا تجوز الخلوة بهن. ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن وأخواتهن بالإجماع. وإن سمي بعض العلماء بناتهن، أخوات المؤمنين. كما هو منصوص الشافعى رضى الله عنه فى (المختصر) وهو من باب إطلاق العبارة، لإثبات الحكم. وهل يقال لمعاوية وأمثاله، خال المؤمنين، فيه قولان: وعن الشافعى أنه يقال ذلك. وهل يقال له ﷺ: أبو المؤمنين، فيه قولان: فصح عن عائشة المنع، وهو أصح الوجهين للشافعية لقوله تعالى (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ) وروى عن أبى بن كعب وابن عباس رضى الله عنهما، أنهما قرآ: النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم. وروى نحو هذا عن معاوية ومجاهد وعكرمة والحسن. واستأنسوا عليه بالحديث الذى رواه أبو داود^(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إنما أنا لكم بمنزلة الوالد، أعلمكم. فإذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة ولا يستدبرها ولا يستطيب يمينه. أفاده ابن كثير.

«وَأُولُوا الْأَرْحَامِ» أى ذوو القربات «بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ» أى فيما فرضه، أو فيما أوحاه إلى نبيه عليه السلام «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ» بيان لأولى الأرحام، أو صلة (أولى) «إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ» أى إخوانكم المؤمنين والمهاجرين غير الرحم «مَعْرُوفًا» أى من صدقة ومواساة وهدية ووصية. فإن بسط اليد فى المعروف مما حث الله عباده عليه، ويشارك فيه مع ذوى القربى غيرهم.

(١) أخرجه فى : ١ - كتاب الطهارة ٤ - باب كراهية استقبال القبلة عند قضاء الحاجة،

تنبيه :

قال في (الإكليل) : استدل بقوله تعالى (وَأُولُوا الْأَرْحَامِ) الآية ، من ورث ذوى الأرحام . انتهى .

وهو استدلال متين . وليس مع المخالف ما يقاومه . بل فهم كثيرون أن المعنى بها ، أن القربات أولى بالتوارث من المهاجرين والأنصار ، وأنها ناسخة لما كان قبلها من التوارث بالهلف والمؤاخاة ، التي كانت بينهم . ذهابا إلى ما روى عن الزبير وأبن عباس : أن المهاجرى كان يرث الأنصارى ، دون قراباته وذوى رحمه . للأخوة التي آخى بينهما رسول الله ﷺ . حتى أنزل الله الآية . فرجعنا إلى مواردنا .

إلا أن الاستدلال بذلك هو من عموم الأولوية . لا أنها خاصة بالمدعى فيها ، كما أسلفنا بيانه مرارا « كَانَ ذَلِكَ فِي السِّكِّتِ مَسْطُورًا » أى فى القرآن . أو فى قضائه وحكمه وما كتبه وفرضه ، مقررًا لا يعتره تبديل ولا تغيير .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا)

«وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ» أى أخذنا عهودهم بتبليغ الرسالة والدعاء إلى الحق والتعاون والتناصر والاتفاق وإقامة الدين وعدم التفرق فيه . كما قال تعالى (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَآءَ آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَتَتَنَصَّرُنَّهُ وَقَالَ أَعْقَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَفَرَرْنَا قَالَ فَوَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ) . قال أبو السعود : وتخصيصهم بالذكر ، يعنى قوله (وَمِنْكَ) الخ مع اندراجهم

في النبيين ، للإيدان بمزيد مزيتهم وفضلهم وكونهم من مشاهير أرباب الشرائع وأساطين أولى العزم . وتقديماً نبينا عليهم ، عليهم الصلاة والسلام ، لإبانة خطره الجليل . انتهى .

وقال في (الانتصاف) : وليس التقديم في الذكر بمقتضى لذلك . ألا ترى إلى قوله :

بِهَالِيلٍ مِنْهُمْ جَعْفَرٌ وَابْنُ أُمِّهِ عَلِيٌّ وَمِنْهُمْ أَحْمَدُ الْمُتَخَيَّرُ
فَأَخَّرَ ذِكْرَ النَّبِيِّ ﷺ لِيُخْتَمَ بِهِ تَشْرِيفًا لَهُ .

وإذا ثبت أن التفضيل ليس من لوازمه التقديم ، فيظهر ، والله أعلم في سر تقديمه عليه الصلاة والسلام على نوح ومن بعده في الذكر ، أنه هو المخاطب من بينهم ، والمنزل عليه هذا التلو ، فكان تقديمه لذلك .

ثم لما قدم ذكره عليه الصلاة والسلام ، جرى ذكر الأنبياء ، صلوات الله عليهم بعده على ترتيب أزمنة وجودهم . والله أعلم . انتهى .

وقد صرح بأولى العزم هنا وفي آية^(١) (سَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ) . قال ابن كثير : فهذه هي الوصية التي أخذ عليهم الميثاق بها . « وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا » أي عهداً عظيم الشأن . وكيف لا؟ وقد يعترضه من الماكرين والمحادين والمشاقين ، ما تزول منه الجبال ، لولا الاعتصام بالصبر عليه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ ، وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا)

[٩] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ

فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ، وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا)

« لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ » أي فعل الله ذلك ليسأل يوم القيامة الأنبياء . ووضع

(١) [٤٢ / الشورى / ١٣] .

الصادقين موضع ضميرهم، للإيدان من أول الأمر، بأنهم صادقون فيما سئلوا عنه. وإنما السؤال لحكمة تقتضيه . أى ليسأل الأنبياء الذين صدقوا عهدهم عما قالوه لقومهم . أو عن تصديقهم إياهم بتكيتاً لهم . كفى قوله تعالى (١) «يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَأُجِبْتُمْ» أو المصدقين لهم عن تصديقهم . أفاده أبو السعود « وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا » أى لمن كفر من أهمهم عذاباً موجعاً . ونحن - كما قال ابن كثير - نشهد أن الرسل قد بلغوا رسالات ربهم، ونصحوا الأمم، وأفصحوا لهم عن الحق المبين الواضح الجلي، الذى لا لبس فيه ولا شك ولا امتراء. وإن كذبهم من كذبهم من الجهلة والمعاندين والمارقين والفاستقين . فما جاءت به الرسل هو الحق، ومن خالفهم فهو على الضلال . انتهى . « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ » أى ما أنعم به عليكم يوم الأحزاب وهو يوم الخندق « إِذْ جَاءَ تَكُمْ جُنُودٌ » وهم الأحزاب « فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا » وهم الملائكة . أو ما أتى من الرياح من طيور الجوّ وجراثيمه ، المشوشة للقارّ المقلقة للهادىء « وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (إِذْ جَاءَوكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَنَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا)

[١١] (هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا)

[١٢] (وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَاِلاَّ غُرُورًا)

[١٣] (وَإِذْ قَالَتْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ،

(١) [٥ / المائدة / ١٠٩] .

وَيَسْتَعِذْنَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ،
إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا)

« إِذْ جَاءَكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ » أى من أعلى الوادى وأسفله ، بقصد
التحزب على أن يكونوا جملة واحدة على استئصال النبي ﷺ وحجبه « وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ » أى ماتت
عن سننها ومستوى نظرها، حيرة وشخوصاً « وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ » أى منتهى الخلقوم
لأن بالفرع تنتفخ الرئة فترتفع . وبارتفاعها ترتفع القلوب . وذلك من شدة الغم . أو هو مثل
في اضطراب القلوب « وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا » أى أنواع الظنون المختلفة « هُنَالِكَ ابْتُلِيَ
الْمُؤْمِنُونَ » أى اختبروا ليطيرون الثابت من المترزل، والمؤمن من المنافق « وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا
شَدِيدًا » أى أزعجوا أشد الإزعاج من شدة الخوف والفرع ، أو من كثرة الأعداء .

فائدة :

قرأ نافع وابن عامر وأبو بكر (الظنوناً) بإثبات ألف بعد النون، وبعد لام الرسول ، في
قوله ^(١) « وَأَطْعَمْنَا الرُّسُولَا » ولام السبيل، في قوله ^(٢) « فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا » وصلاً ووقفاً، موافقة
للرسم . لأن هذه الثلاثة رسمت في المصحف، كذلك . وأيضاً فإن هذه الألف تشبه هاء السكت لبیان
الحركة : وهاء السكت تثبت وقفاً للحاجة إليها . وقد ثبتت وصلاً إجراءً للوصول مجرى الوقف ،
فكذلك هذه الألف . وقرأ أبو عمرو وحزمة بحذفها في الخالين . لأنها لا أصل لها . وقولهم
(أجريت الفواصل مجرى القوافي) غير معتد به . لأن القوافي يلزم الوقف عليها غالباً . والفواصل
لا يلزم ذلك فيها ، فلا تشبه بها . والباقون بإثباتها وقفاً ، وحذفها وصلاً ، إجراءً للفواصل
مجرى القوافي ، في ثبوت ألف الإطلاق . ولأنها كهاء السكت . وهى تثبت وقفاً ، وتحذف
وصلاً . أفاده السمين .

ثم أشار تعالى إلى ما ظهر من المنافقين في تلك الشدة ، بقوله سبحانه : « وَإِذْ يَقُولُ

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٦٦] . (٢) [٣٣ / الأحزاب / ٦٧] .

الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ « أى شبهة . تفسساً بما يجدونه من الوسواس في نفوسهم ، وفرصة لانطلاق ألسنتهم ، بما تكن صدورهم . لضعف إيمانهم وشدة ما هم فيه من ضيق الحال ، وحصر العدو لهم « مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَ « أى من النصر « إِلَّا غُرُورًا » أى باطلا « وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ « أى المنافقين « يَا أَهْلَ يَثْرِبَ « وهى أرض المدينة « لَا مَقَامَ لَكُمْ « بضم الميم وفتحها ، قراءتان . أى لإقامة لكم بعد اليوم بالمدينة أو نواحيها لغلبة الأعداء « فَأَرْجِعُوا « أى إلى منازلكم من المدينة هارين . أو فارجعوا عن الإسلام كفاراً ليكنكم المقام .

فائدة :

(يثرب) من أسماء المدينة . كما فى الصحيح (١) : أريت فى المقام دار هجرتكم . أرض بين حرتين . فذهب وهلى أنها حجر . فإذا هى يثرب (وفى لفظ : المدينة) .

قال ابن كثير: فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد (٢) عن البراء قال: قال رسول الله ﷺ من سعى المدينة (يثرب) فليستغفر الله تعالى ، إنما هى طابة هى طابة . تفرد به الإلام أحمد ، وفى إسناده ضعف . انتهى : « وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ النَّبِيَّ » أى فى الرجوع « يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ » أى غير حصينة يخشى عليها « وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُلِواُ الْفِتْنَةَ لَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّوْا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا)

(١) أخرجه البخارى فى : ٦١ - كتاب المناقب ، ٢٥ - باب علامات النبوة فى الإسلام ،

حديث رقم ١٧٠٣ .

(٢) أخرجه فى مسنده بالصفحة رقم ٢٨٥ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

[١٥] (وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلِ لَا يُؤْتُونَ الْأَدْبَرَ ، وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا)

[١٦] (قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُنْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا)

« وَلَوْ دَخَلَتْ » أى يثرب « عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا » أى بأن دخل عليهم العدو من سائر جوانبها ، وأخذ في النهب والسلب « ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ » أى الرجعة إلى الكفر « لَأَنْتَوْهَا » أى لفعلوها « وَمَا تَدَبَّرْتُمْ بِهَا إِلَّا يَسِيرًا » أى وما توقفوا بإعطائها إلا ربما يكون السؤال والجواب. أى فهم لا يحافظون على الإيمان ولا يستمسكون به ، مع أدنى خوف وفزع. وهذا منتهى الذم لهم. ثم ذكروهم تعالى بما كانوا عاهدوه من قبل بقوله « وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ » أى من قبل هذا الخوف « لَا يُؤْتُونَ الْأَدْبَرَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا » أى عن الوفاء به « قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ » أى لأنه لا يؤخر آجالهم ولا يطول أعمارهم . بل ربما كان ذلك سبباً في تعجيل أخذهم غرة انتقاماً منهم . ولهذا قال : « وَإِذَا » أى إن فررتم « لَا تُنْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا » أى في الدنيا بعد فراركم . أو لأنهم فقدوا بذلك حظهم الأخرى . فهما تمتعا في الدنيا ، فإنه قليل بجانب نعيم الآخرة للصابرين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ، وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا)

[١٨] (قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هُمْ إِلَيْنَا ، وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا)

[١٩] (أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ، فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ، فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالسِّنَةِ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ، أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ ، وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا)

« قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ » أى يجيركم « مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا » أى هلاكا أو هزيمة « أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا » أى مجيرا ولا مغيثا يدفع عنهم الضر « قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْكُمْ » أى المشيطين عن رسوله الله ﷺ . وهم المنافقون . قال الشهاب : (قد) للتحقيق ، أو لتقليله باعتبار متعلقه ، وبالنسبة لغير معلوماته . انتهى . « وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ » أى من ساكنى المدينة « هَلُمُّوا إِلَيْنَا » أى أقبلوا إلى ما نحن فيه من الظلال والثمار « وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ » أى القتال « إِلَّا قَلِيلًا » أى إلا إتيانا قليلا . لأنهم يتشبثون ما أمكن لهم « أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ » أى بخلاء بالمعونة والنفقة والمودة عليكم ، أو أضناء بكم ظاهرا ، إن لم يحضر خوف « فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ » أى فى أحداقهم « كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ » أى كمنظره أو كدورانه « فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالسِّنَةِ حِدَادٍ » أى بالغوا فيكم بالكلام طعنا وذما . فأحرقوكم وأذوكم . وأصل (السلق) بسط العضو ومدته للقهري . سواء كان يدا أو لسانا . ويجوز أن يشبهه اللسان بالسيف على طريق الاستعارة المكنية ، ويثبت له السلق وهو الضرب تخميلا « أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ » أى على فعله « أَوْ لَأَسِيكٍ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا، وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوْنَ لَوْ أَنَّهَمْ بَادُونَ

فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَاءِكُمْ، وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا)

[٢١] (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ

وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا)

«يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا» أى لم ينهزموا بما أرسل عليهم من الرمح والجنود. وأن لهم عودة إليهم لخورهم واضطرابهم «وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ» أى مرة أخرى «يَوَدُّوْنَ لَوْ أَنَّهَمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ» أى فلا يذهبون إلى قتالهم ، ولا يستقرّون في المدينة ، بل يتمنون أنهم خارجون إلى البدو بين الأعراب ، وإن لحقهم عار جنبهم «يَسْأَلُونَ» أى القادمين «عَنْ أَنْبَاءِكُمْ» أى عما جرى لكم . ثم أشار تعالى إلى أنه لا يضر خروجهم عن المدينة ، لو أتى الأحزاب ، بقوله «وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ» أى في حدوث واقعة ثانية «مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا» أى رياء وخوفاً من التعيير «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ» أى في أخلاقه وأفعاله قدوة حسنة ، إذ كان منها ثباته في الشدائد وهو مطلوب . وصبره على البأساء والضراء وهو مكروب ومحروب . ونفسه في اختلاف الأحوال ساكنة ، لا ينجور في شديدة ولا يستكين لعظيمة أو كبيرة . وقد لقي بمكة من قريش ما يشيب النواصي ، ويهد الصياصي . وهو مع الضعف يصابر صبر المستعلي ، ويثبت ثبات المستولى . ومن صبر على هذه الشدائد في الدعاء إلى الله تعالى ، وهو الرفيع الشأن ، كان غيره أجدر إن كان ممن يتبع بإحسان «لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ» أى رضوان الله ورحمته وثواب اليوم الآخر ونجاته . فإنه يؤثرها على الحياة الدنيا ، فلا يجبن . إذ لا يصح الجبن لمن صح اقتداؤه برسول الله ﷺ ، لغاية قبضه «وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا» أى وقرن بالرجاء ذكره تعالى بكثرة . أى ذكر أمره

ونبيه ووعده ووعيده . فأدرك مواطن السعادة ومهاوى الشقاوة . وعلم أن في الثبات على قتل العدو ، تطهير الأرض من الفساد ، وتزيينها بالحق والصلاح والسداد . مما جزأوه سعادة الدارين ، والفوز بالحسنين . ثم بين تعالى ما كان من المؤمنين المخلصين في تلك الشدة ، بعد بيان ما كان من غيرهم ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا)

[٢٣] (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ، فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ ، وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا)

«وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ» أي لأنه تعالى وعدهم أن يزلزلوا حتى يستغيثوه ويستنصروه ، في قوله ^(١) (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ) وكذلك حدثهم الرسول صلوات الله عليه بالابتلاء والامتحان الذي يعقبه النصر والأمان «وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ» أي ظهر صدقهما فيما وعدانا به «وَمَا زَادَهُمْ» أي هذا الخطب والبلاء ، عند تزلزل المنافقين وبث أراجيفهم «إِلَّا إِيمَانًا» أي بالله ورسوله ومواعيدها «وَتَسْلِيمًا» أي لأمر الله ومقاديره «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ» في الصبر والثبات ، والقيام بما كتب عليهم من القتال ، لإعلاء كلمة الحق ، ومن العمل بالصالحات ، ومجانبة السيئات «فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَجْبَهُ» أي أدى ما التزمه ووفى به ، فقاتل مع الرسول عليه الصلاة والسلام ، صادقاً حتى قتل شهيداً .

(١) [٢ / البقرة / ٢١٤] .

قال الشهاب : أصل معنى (النحْب) النذر . وقضاؤه الوفاء به . وقد كان رجال من الصحابة رضى الله عنهم نذروا أنهم إذا شهدوا معه ﷺ حرباً ، قاتلوا حتى يستشهدوا . وقد استعير (قضاء النحْب) للموت ، لأنه لكونه لا بد منه ، مشبّه بالنذر الذى يجب الوفاء به . فيجوز أن يكون هنا حقيقة ، أو استعارة مع المشاكلة فيه . انتهى .

« وَمِنْهُمْ مَّن يَنْتَظِرُ » أى ما وعد الله به من نصره والشهادة على مامضى عليه أصحابه « وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا » أى ما غيروا شيئاً من العهد ، ولا نقضوه كمنقض المنافقين فى توليهم (وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلُّونَ الْأَدْبَرَ) ^(١) ففيه كناية تعريضية تفهم من تخصيصهم به . والتصريح بالمصدر لإفادة العموم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا)

[٢٥] (وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ، وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ، وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا)

« لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ » أى فى عهودهم « بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا * وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ » أى مع كمال غضبهم بما أرسله من الريح والجنود ، بفضل ورحمته « لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا » أى نصرًا ولا غنيمه « وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ » أى فلم يحوجهم إلى مبارزتهم ليجلوه عن المدينة . بل تولى كفاية ذلك وحده . ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول : لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، فلا شيء بعده « وَكَانَ اللَّهُ »

(١) [٣٣ / الأحزاب / ١٥] .

قَوْرِيًّا « أي فلا يعارض قوته قوة شيء » « عَزِيْرًا » أي غالباً على أمره
(ذكر تفصيل نبأ الأحزاب المسمى بغزوة الخندق)

قال الإمام ابن القَيِّم في (زاد المعاد) : كانت غزوة الخندق في سنة خمس من الهجرة ، في شوال على أصح القولين . إذ لا خلاف أن أُحُدًا كانت في شوال سنة ثلاث ، وواعد المشركون رسول الله ﷺ في العام المقبل وهي سنة أربع . ثم أخلفوه لأجل جذب السنة ، فرجعوا . فلما كانت سنة خمس جاءوا لحربه . هذا قول أهل السير والمغازي . وخالفهم موسى بن عقبة وقال : بل كانت سنة أربع . قال أبو محمد بن حزم : وهذا هو الصحيح الذي لاشك فيه . واحتج عليه بحدِيث ابن عمر في الصحيحين ^(١) أنه عرض على النبي ﷺ يوم أُحُد وهو ابن أربع عشرة سنة فلم يجزه . ثم عرض عليه يوم الخندق وهو ابن خمس عشرة سنة فأجازه . قال : وصح أنه لم يكن بينهما إلا سنة واحدة . وأجيب عن هذا بجوابين : أحدهما - أن ابن عمر أخبر أن النبي ﷺ رده لما استصغره عن القتال ، وأجازه لما وصل إلى السن التي رآه فيها مطيقاً . وليس في هذا ما ينفق تجاوزها بسنة أو نحوها . والثاني - أنه لعلة كان يوم أُحُد في أول الرابع عشرة . ويوم الخندق في آخر الخامس عشرة .

ثم قال ابن القَيِّم رحمه الله : وكان سبب غزوة الخندق ، أن اليهود لما رأوا انتصار المشركين على المسلمين يوم أُحُد ، وعلموا بميعاد أبي سفيان لغزو المسلمين ، فخرج لذلك ثم رجع للعام المقبل ، خرج أشرافهم كسلام بن أبي الحقيق ، وسلام بن مشكم ، وكنانة بن الربيع وغيرهم إلى قريش بمكة . يحرضونهم على غزو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويوالونهم عليه . ووعدهم من أنفسهم بالنصر لهم . فأجابتهم قريش . ثم خرجوا إلى غطفان فدعواهم فاستجابوا لهم . ثم طافوا في قبائل العرب يدعونهم إلى ذلك . فاستجاب لهم من استجاب . فخرجت

(١) أخرجه البخاري في : ٦٤ - كتاب المغازي ، ٢٩ - باب غزوة الخندق ، حديث

رقم ١٢٩٥ وأخرجه مسلم في : ٣٣ - كتاب الإمارة ، حديث رقم ٩١ (طبعنا) .

قريش وقائدهم أبو سفيان في أربعة آلاف . ووافاهم بنو سليم بمرّ الظهران . وخرجت بنو أسد وفزارة وأشجع وبنو مرة . وجاءت غطفان وقائدهم عيينة بن حصن . وكان قد وافى الخندق من الكفار عشرة آلاف . فلما سمع رسول الله ﷺ بمسيرهم إليه ، استشار الصحابة ، فأشار عليه سلمان الفارسيّ بحفر خندق يحول بين العدو وبين المدينة . فأمر به رسول الله ﷺ فبادر إليه المسلمون . وعمل بنفسه فيه وبادروا . وهجم الكفار عليهم . وكان في حفرة من آيات نبوته وأعلام رسالته ما قد تواتر الخبر به . وكان حفر الخندق أمام سلع . وسلع جبل خلف ظهور المسلمين . والخندق بينهم وبين الكفار . وخرج رسول الله ﷺ في ثلاثة آلاف من المسلمين . فتحصن بالجبل من خلفه وبالخندق أمامهم .

وقال ابن إسحاق : خرج في سبعمائة . (وهذا غلط من خروجه يوم أُحد) .

وأمر النبيّ ﷺ بالنساء والذراريّ فجعلوا في آطام المدينة . واستخلف عليها ابن أم مكتوم وانطلق حييّ بن أخطب إلى بني قريظة . فدنا من حصنهم . فأبى كعب بن أسد أن يفتح له . فلم يزل يكلمه حتى فتح له . فلهذا دخل عليه قال : لقد جئتمكم بعزّ الدهر . جئتك بقريش وغطفان وأسد على قادتها ، لحرب محمد . قال : قال كعب : جئتي ، والله ! بذل الدهر وبجهام قد أراق ماءه . فهو رعد وبرق . فلم يزل به حتى نقض العهد الذي بينه وبين رسول الله ﷺ . ودخل مع المشركين في محاربتة ، فسرّ بذلك المشركون . وشرط كعب على حييّ أنه ، إن لم يظفروا بمحمد ، أن يجيء حتى يدخل معه في حصنه ، فيصيبه ما أصابه . فأجابه إلى ذلك ، ووفى له به . وبلغ رسول الله ﷺ خبر بني قريظة ونقضهم للعهد . فبعث إليهم السعديين وخوات ابن جبير وعبد الله بن رواحة ليعرفوه : هل هم على عهدهم أو قد نقضوه . فلهذا دنوا منهم فوجدوهم على أخبث ما يكون ، وجاهروهم بالسب والعداوة ، ونالوا من رسول الله ﷺ . فانصرفوا عنهم ، ولحنوا لرسول الله ﷺ لحنًا يخبرونه أنهم قد نقضوا العهد وغدروا . فعظم ذلك على المسلمين . فقال رسول الله ﷺ عند ذلك : الله أكبر ! أبشروا يا معشر المسلمين .

واشتد البلاء وتجهر الففاق . واستأذن بعض بني حارثة رسول الله ﷺ في الذهاب إلى المدينة وقالوا : بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً . وهم بنو سلمة بالفشل . ثم ثبت الله الطائفتين . وأقام المشركون محاصرين رسول الله ﷺ شهراً . ولم يكن بينهم قتال . لأجل ما حال الله به من الخندق . بينهم وبين المسلمين . إلا أن فوارس من قريش منهم عمرو بن عبدود وجماعة معه ، أقبلوا نحو الخندق . فلما وقفوا عليه قالوا : إن هذه مكيدة ما كانت العرب تعرفها . ثم تيمموا مكاناً ضيقاً من الخندق فاقتحموه . وجالت بهم خيامهم في السبخة بين الخندق ولسع . ودعوا إلى البراز . فانتدب لعمرو علي بن أبي طالب رضى الله عنه . فبارزه فقتله الله على يديه . وكان من شجعان المشركين وأبطالهم . وانهزم الباقون إلى أصحابهم . وكان شعار المسلمين يومئذ (حم لا ينصرون) ولما طالت هذه الحال على المسلمين ، أراد رسول الله ﷺ أن يصلح عُمَيْيَةَ بن حصن والحارث بن عوف ، رئيسي غطفان على ثلث ثمار المدينة ، وينصرفا بقومهما . وجرت المفاوضة على ذلك . فاستشار السعديين في ذلك فقالا : يا رسول الله ! إن كان الله أمرك بهذا ، فسمعاً وطاعة . وإن كان شيء تصنعه لنا ، فلا حاجة لنا فيه . لقد كنا نحن هؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان ، وهم لا يطعمون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرئى أوبيعا . فحين أكرمنا الله بالإسلام ، وهدانا له ، وأعزانا بك ، نعطيهم أموالنا؟ والله ! لا نعطيهم إلا السيف . فصوب رأيهما وقال : إنما هو شيء أصنعه لسكم ، لما رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة .

ثم إن الله عز وجل ، وله الحمد ، صنع أمراً من عنده . خذله بين العدو وهزم جمعهم ، وفلَّ حَدَّهم . فكان مما هيأ من ذلك ، أن رجلاً من غطفان يقال له نعيم بن مسعود بن عامر ، رضى الله عنه ، جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ! إني قد أسلمت . فرنى بما شئت . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما أنت رجل واحد . نخذل عنا ما استطعت : فإن الحرب خدعة . فذهب من فوره ذلك إلى بني قريظة ، وكان عشيراً لهم

في الجاهلية ، فدخل عليهم وهم لا يعلمون بإسلامه فقال: يا بني قريظة! إنكم قد حاربتهم محمداً. وإن قريشا إن أصابوا فرصة انتهزوها ، وإلا انشمروا إلى بلادهم راجعين وتركوكم ومحمداً، فانتقم منكم . قالوا : فما العمل ؟ يا نعيم ! قال : لا تقاتلوا معهم حتى يعطوكم رهائن . قالوا : لقد أشرت بالرأى . ثم مضى على وجهه إلى قريش . قال لهم : تعلمون ودي لكم ونصحي لكم . قالوا : نعم قال : إن يهود قد ندموا على ما كان منهم من نقض عهد محمد وأصحابه . وإنهم قد راسلوه أنهم يأخذون منكم رهائن يدفعونها إليه ثم يوالونه عليكم . فإن سألوكم رهائن فلا تعطوهم . ثم ذهب إلى غطفان فقال لهم مثل ذلك . فلما كان ليلة السبت من شوال ، بعثوا إلى يهود : إنا لسنا بأرض مقام ، وقد هلك الكراع والخف . فانهضوا بناحتي نناجز محمداً فأرسل إليهم اليهود : إن اليوم يوم السبت وقد علمتم ما أصاب من قبلنا حين أحدثوا فيه . ومع هذا ، فإننا لا نقاتل معكم حتى تبعثوا لنا رهائن . فلما جاءتهم رسالهم بذلك ، قالت قريش صدقكم ، والله ! نعيم . فبعثوا إلى يهود : إنا ، والله ! لا نرسل إليكم أحداً . فاخرجوا معنا حتى نناجز محمداً . فقالت قريظة : صدقكم ، والله ! نعيم . فتخاذل الفريقان : وأرسل الله عز وجل على المشركين جنداً من الريح في ليالٍ شاتية باردة شديدة البرد . فجعلت تقوّض خيامهم ، ولا تدع لهم قدراً إلا كفأتها ، ولا طنباً إلا قلعته ، ولا يقر لهم قرار . وجند الله من الملائكة يزلزلونهم ويلقون في قلوبهم الرعب والخوف . وأرسل رسول الله ﷺ حذيفة بن اليمان يأتيه بخبرهم ، فوجدهم على هذه الحال وقد تهيأوا للرحيل . فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرهم برحيل القوم . فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ردّ الله عدوه بغیظه ، لم يبالوا خيراً وكفى الله قتالهم . فصدق وعده . وأعز جنده ونصر عبده . وهزم الأحزاب وحده .

ثم لما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة مؤبداً منصوراً! والمسلمون معه ، ووضعوا السلاح ، وكانت الظهر ، أتى جبريلُ النبي ﷺ فقال : إن الله عز وجل يأمرك بالسير إلى بني قريظة - وهم قبيلة من يهود خيبر - فإنى عامدٌ إليهم فززلُ بهم . فأمر رسول الله ﷺ مؤذناً فأذن في

الناس : من كان سامعا مطيعا ، فلا يصلين العصر إلا ببني قريظة . واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم . وقدم رسول الله ﷺ على بن أبي طالب ، رضوان الله عليه ، برأيته إلى بني قريظة . وابتدرها الناس . فسار على ، حتى إذا دنا من الحصون سمع منها مقالة قبيحة لرسول الله ﷺ . فرجع حتى لقي رسول الله ﷺ بالطريق . فقال : يا رسول الله ! لاعليك أن لاتدنو من هؤلاء الأخابث . قال : لِمَ ؟ أظنك سمعت منهم لى أذى . قال : نعم . يا رسول الله ! قال : لورأوني لم يقولوا من ذلك شيئا . وتلاحق به الناس ، وحاصروهم خمسا وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار ، وقذف الله في قلوبهم الرعب . ثم نزلوا على حكم رسول الله ﷺ ، فتوالت الأوس فقالوا : يا رسول الله ! صلى الله عليك وسلم . إنهم كانوا مواليينا دون الخزرج ، وقد فعلت في موالي إخواننا بالأوس ما قد علمت .

وقد كان رسول الله ﷺ ، قبل بني قريظة ، قد حاصر بني قينقاع وهم شعب من اليهود كانوا بالمدينة ، وكانوا حلفاء الخزرج ، فنزلوا على حكمه ، فسأله إياهم عبد الله بن أبي بن سلول فوهبهم له .

فلما كتبه الأوس قال رسول الله ﷺ : ألا ترضون ، يامعشر الأوس ! أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ قالوا : بلى . قال رسول الله ﷺ : فذاك إلى سعد بن معاذ .

وكان رسول الله ﷺ قد جعل سعد بن معاذ في خيمة لامرأة من أسلم ، يقال لها رُفيدة في مسجده ، كانت تدأوى الجرحى وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين . وكان رسول الله ﷺ قد قال لقومه حين أصابه السهم بالخنندق : اجعلوه في خيمة رُفيدة حتى أعوده من قريب . فلما حكمه رسول الله ﷺ في بني قريظة ، أتاه قومه فحمله على حمار . وكان رجلا جسيما جميلا . ثم أقبلوا معه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، قال صلى الله عليه وسلم : قوموا إلى سيدكم . فقاموا إليه فأنزلوه .

قال ابن كثير : إعظماً وإكراماً ، واحتراماً له ، في محل ولايته ، ليكون أئقذ لحكمه فيهم .

فلما جلس ، قال له رسول الله ﷺ : إن هؤلاء قد نزلوا على حكمك . فاحكم فيهم بما شئت . وصارت تعرض له الأوس أن يحسن إليهم ، وتقول : يا أبا عمرو ! إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم .

فقال رضى الله عنه : عليكم عهد الله وميثاقه ، أن الحكم فيهم لما حكمت . قالوا : نعم . قال : وعلى من ههنا (في الناحية التي فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهو معرض عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إجلالاً له) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم . قال سعد : فإنى أحكم فيهم أن تقتل الرجال ، وتقسّم الأموال ، وتُسبى الذراري والنساء . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد : لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة . وفي رواية : لقد حكمت بحكم الملك (أى لأن هذا جزاء الخائن الغادر) وكان سعد أصيب يوم الخندق . رماه رجل من قريش يقال له ابن العرقعة . رماه في الأكل .

فكواه رسول الله صلى الله عليه وسلم في أكله . وقال سعد : اللهم ! إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً ، فأبقني لها : فإنه لا قوم أحب إلى أن أجاهد ، من قوم آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه . اللهم ! وإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم ، فأجعل لى شهادة ولا تمتنى حتى تفر عيني من بنى قريظة . فاستجاب الله تعالى دعاءه وقدّر عليهم أن نزلوا على حكمه باختيارهم ، طلباً من تلقاء أنفسهم .

ثم لما استنزلوا من حصونهم ، حبسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة في دار . ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سوق المدينة فنخندق بها خنادق ، ثم بعث إليهم فضرب أعناقهم في تلك الخنادق ، يخرج بهم إليه أرسالا ، وفيهم عدو الله حُيِّ بن أخطب وكعب بن أسد رأس القوم . وهم ستمائة أو سبعمائة . وسبى من لم ينبت منهم مع النساء وأموالهم ، وهذا ما ذكره تعالى من أمر بنى قريظة ، إثر أمر الخندق بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَهَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا)

[٢٧] (وَأَوْزَتْكُمْ أَرْضَهُمْ وَدَيْسَرَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوْهَا، وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا)

[٢٨] (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَ لَازَؤْجَكَ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا)

« وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَهَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ » أى عاونوا الأحزاب وساعدوهم على حرب الرسول صلى الله عليه وسلم « مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ » يعنى بنى قريظة . وهم طائفة من اليهود ، كان نزل آبؤهم الحجاز لما فروا من الاضطهاد وتشتتوا كل شتات في أطراف البلاد « مِنْ صَيَاصِيهِمْ » أى حصونهم وآطامهم التى كانوا فيها « وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ » أى الخوف، جزاء وفاقا . قال ابن كثير : لأنهم كانوا مائلوا المشركين على حرب النبي صلى الله عليه وسلم - وليس من يعلم كمن لا يعلم - وأخافوا المسلمين وراموا قتلهم ليعزوا في الدنيا . فانعكس عليهم الحال وانقلب إليهم القتال ، لما انشمر المشركون وراحوا بصفة المغبون . فكما راموا العز ذلوا . وأرادوا استئصال المسلمين فاستؤصلوا . ولهذا قال تعالى « فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا » يعنى قتل الرجال المقاتلة ، وسبي الذراري والنساء .

روى الإمام أحمد^(١) عن عطية القرظي قال : عرضت على النبي صلى الله عليه وسلم يوم قريظة فشكوا في . فأمر بي النبي صلى الله عليه وسلم أن ينظروا : هل أنبت بعد؟ فنظروني فلم يجدوني أنبت . فخلى عني ، وألحقني بالسبي .

(١) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٣١٠ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي)

وكذا رواه أهل السنن كلهم : وقال الترمذى : حسن صحيح « وَأَوْزَأَكُمْ أَرْضَهُمْ
وَدِيَارَهُمْ » حصونهم « وَأَمْوَالَهُمْ » أى نقودهم وأثاثهم ومواشيهم « وَأَرْضاً لَمْ تَطُوهَا »
أى أرضاً لم تقبضوها بعد ، يعنى خيبر ، وقيل مكة . رواه مالك عن زيد بن أسلم . وقيل :
فارس والروم ، وقال ^(١) ابن جرير : يجوز أن يكون الجميع مراداً . قال الزمخشري : ومن بدع التفسير
أنه أراد نساءهم . وبتمام هذه الغزوة أراح الله المسلمين من شر مجاورة اليهود الذين تعودوا
الغدر والخيانة ، ولم يبق إلا بقية من كبارهم بخيبر مع أهلها ، وهم الذين كانوا السبب فى إثارة
الأحزاب . قال بعضهم : يا لله ! ما أسوأ عاقبة الطيش ! فقد تكون الأمة مرآحة البال هادئة
الخواطر ، حتى تقوم جماعة من رؤسائها بعمل غدر يظنون من ورائه النجاح . فيجلب عليهم
الشروع ويستتبعهم من ديارهم . وهذا ما حصل لليهود فى الحجاز . فقد كان بينهم وبين المسلمين
عهد يأمن بها كل منهم الآخر . ولكن اليهود لم يوفوا بتلك العهد حسداً منهم وبغياً .
فتم عليهم ماتم . سنة الله فى المفسدين . فإن الله لا يصلح أعمالهم « وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرًا » أى وقد شاهدتم بعض مقدوراته فاعتبروا بغيرها « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ
إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا » أى السعة والتنعيم فيها « وَزِيْنَتَهَا » أى زخارفها « فَتَعَالَيْنَ
أُمْتَعِكُنَّ وَأَسْرَحِكُنَّ » أى أعطكن المتعة وأطلقكن . والمتعة ما يعطى للمرأة المطلقة على
حسب السعة والإقتار . من ثياب أو دراهم أو أثاث ، تطوعاً ولا جوباً . وقوله تعالى « سَرَّاحًا
جَمِيلاً » أى طلاقاً من غير ضرار ولا بدعة . وقد روى أنهم سألن النبي ﷺ ثياب الزينة
وزيادة النفقة مما ليس عنده . فنزلت الآية . ولما نزلت ، بدأ ﷺ بمائشة رضى الله عنها .
وكانت أحبهن إليه . فخيرها وقرأ عليها القرآن ، فاخترت الله ورسوله والدار الآخرة .
ثم اختار جميعهن اختيارها . قيل : وكان تحته يومئذ تسع نسوة ، خمس من قريش : عائشة
وحفصة وأم حبيبة وسودة وأم سلمة رضى الله عنهن . ثم صفية بنت حُيَيِّ النضرية وميمونة
بنت الحارث الهلالية وزينب بنت جحش الأسدية وجويرية بنت الحارث المطلقية رضى الله عنهن .

(١) انظر الصفحة ١٥٥ من الجزء الحادى والعشرين (طبعة الحلبي الثانية)

لطيفة :

قال الرازي: وجه التعلق، وهو أن مكارم الأخلاق منحصرة في شيئين: التعظيم لأمر الله، والشفقة على خلق الله. وإلى هذا أشار عليه السلام بقوله: الصلاة وما ملكت أيمانكم. ثم إن الله تعالى لما أرشد نبيه إلى ما يتعلق بجانب التعظيم لله، بقوله (١) (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ) ذكر ما يتعلق بجانب الشفقة. وبدأ بالزوجات، فإنهن أولى الناس بالشفقة، ولذا قدمهن في النفقة. انتهى.

القول في تأويل قوله تعالى:

[٢٩] (وَإِنْ كُنْتُمْ تُرَدُّنَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ وَالِدَارَ الْأُخْرَى فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا)

[٣٠] (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبِينَةٍ يُضَعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ، وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا)

«وَإِنْ كُنْتُمْ تُرَدُّنَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ وَالِدَارَ الْأُخْرَى» أي تردن رسوله. قال أبو السعود: وذكر الله عز وجل، للإيدان بجملة محله عليه السلام، عنده تعالى «فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا» أي لا يقدر قدره. ولما خيرهن النبي ﷺ، واختارن الله ورسوله، أدبهن الله وهددهن، للتوق عما يسوء النبي صلى الله عليه وسلم، ويقبح بهن من الفاحشة. وأوعدهن بتضعيف العذاب بقوله تعالى «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبِينَةٍ» أي بين الشرع والعقل قبحها. إن قرى بالفتح. أو مبينة قبحها بنفسها من غير تأمل، إن قرى بالكسر «يُضَعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ» أي ضعفي عذاب غيرهن. قال القاضي: لأن الذنب منهن أقبح. فإن زيادة قبحه تتبع زيادة فضل المذنب والنعمة عليه، ولذلك جعل حدَّ

(١) [٣٣ / الأحزاب / ١].

الحرّ ضعفي حد العبد، وعوتب الأنبياء بما لا يعاتب به غيرهم « وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا »
لعموم قدرته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] (وَمَنْ يَقْتُمْ مِنْكُمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَمَلْ صَالِحًا نُؤْتِيهَا أَجْرَهَا
مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا)

[٣٢] (يٰنِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ ، إِنْ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ
بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقَلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا)

[٣٣] (وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ أَجْهَلِيَّةِ الْأُولَى ، وَأَقِمْنَ
الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ
لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا)

« وَمَنْ يَقْتُمْ » أى يدم مطيعاً « مِنْكُمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ » أى فى إيمان الواجبات وترك
الحرمات والمكروهات « وَتَعَمَلْ صَالِحًا نُؤْتِيهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ » أى مرة على الطاعة
والتقوى، وأخرى على طلبهن رضا رسول الله صلى الله عليه وسلم، بحسن الخلق وطيب المعاشرة
والفناعة « وَأَعْتَدْنَا لَهَا » أى زيادة على أجرها المضاعف فى الجنة ، أو فيها وفى الدنيا « رِزْقًا
كَرِيمًا » أى حسناً مرضياً « يٰنِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ
بِالْقَوْلِ » أى عند مخاطبة الناس . أى فلا تُجِبْنَ بقولكن ليناخشا، مثل كلام المريات والمومسات
« فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ » أى ريبة وفجور « وَقَلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا » أى بعبدا
من طمع المريب بجدّ وخشونة ، من غير تخفّيث . أو قولاً حسناً مع كونه خشناً « وَقَرْنَ فِي
بُيُوتِكُنَّ » أى اسكنن ولا تخرجن منها . من (وقر يقر وقارا) إذا سكن . أو من (قرّ

يقر من باب ضرب) حذف الأولى من رأى (اقرن) ونقلت كسرتها إلى القاف، فاستغنى عن همزة الوصل . ويؤيده قراءة نافع وعاصم بالفتح . من (قررت أقر) من باب علم . وهي لغة قليلة « وَلَا تَبْرَجْنَ تَبْرُجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى » أي تبرج النساء أيام جاهلية الكفر الأولى . إذ لا دين يمنعهم ولا أدب يزعهم . والتبرج ، فسّر بالتبختر والتكسّر في المشى . وبإظهار الزينة وما يستمدعي به شهوة الرجل . ولبس رقيق الثياب التي لا توارى جسدها . وبإبداء محاسن الجيد والقلائد والقرط . وكل ذلك مما يشمله النهي ، لما فيه من المفسدة والتعرض لكبيرة . فائدة - قيل (الأولى) بمعنى القديمة مطلقا من غير تقييد بزمن . فيستدل بذلك لمن قال : إن الأول لا يستلزم ثانيا .

قال في (الإكمال) : وهو الأصح عند العلماء . فلو قال : أول ولد تلدينه فأنت طالق ، لم يحتج إلى أن تلد ثانيا . انتهى .

وقال الزمخشري : الأولى هي القديمة التي يقال لها الجاهلية الجهلاء . من الزمن الذي ولد فيه إبراهيم ، أو ما قبله ، إلى زمن عيسى . والجاهلية الأخرى ما بين عيسى ومحمد صلوات الله عليهما . ويجوز أن تكون الجاهلية الأولى جاهلية الكفر قبل الإسلام ، والجاهلية الأخرى جاهلية الفسوق والفجور في الإسلام . وبعضه ما روى ^(١) أن رسول الله ﷺ قال لأبي ذرّ ، لما عبر رجلا بأمه وكانت أعجمية : إنك امرؤ فيك جاهلية . والمعنى نهيه عن إحداث جاهلية في الإسلام ، تشبه جاهلية الكفر قبله « وَأَقْمِنَ الصَّلَاةَ وَءَاتَيْنَ الزَّكَاةَ وَأَطَعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ » أي موافقة أمرهما ونهيهما . ثم أشار إلى أن مخالفتهم رجس لا يناسب فضل أهل البيت بقوله « إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا » أي ما أمركن ونهاكن ، ووعظكن ، إلا خيفة مقارفة المآثم والحرص على التصون عنها بالتقوى . فالجملة تعليمية لأمرهن ونهيهن على سبيل الاستئناف .

(١) أخرجه البخاري في : ٢ - كتاب الإيمان ، ٢٢ - باب المعاصي من أمر الجاهلية ،

حديث رقم ٢٨ .

قال الزمخشريّ . استعمار للذنوب (الرجس) وللتقوى (الطهر) . لأن عرض المقترف للمقبحات يتلوّث بها ويتدنس كما يتلوّث بدنه بالأرجاس . وأما المحسنات فالعرض معها نقّ مصون كالثوب الطاهر . وفي هذه الاستعارة ما ينفّر أولى الأبواب عما كرهه الله لعباده ونهاهم عنه . ويرغبهم فيما رضيه لهم وأمرهم به . و (أَهْلَ الْبَيْتِ) نصب على النداء أو على المدح . والمراد بهم من حواهم بيت النبيّ صلى الله عليه وسلم .

قال ابن كثير : وهذا نص في دخول أزواج النبيّ ﷺ في أهل البيت ههنا ، لأنهن سبب نزول هذه الآية ، وسبب النزول داخل فيه قولاً واحداً . إما وحده على قول ، أو مع غيره على الصحيح . وأما قول عكرمة ، إنها نزلت في نساء النبيّ ﷺ خاصة ، ومن شاء باهلهته في ذلك ، فإن كان المراد أنهن كنّ سبب النزول دون غيرهن ، فصحيح . وإن أريد أنهن المراد فقط دون غيرهن ، ففي هذا نظر . فإنه قد وردت أحاديث تدل على أن المراد أعم من ذلك . وأنه ﷺ (١) جمع عليّاً وفاطمة والحسن والحسين ، ثم جلّهم بكساء كان عليه . ثم قال : هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس . وقد ساق ابن كثير طرق هذا الحديث ومخرجه . إلا أن الشيخين لم يصححاه ، ولذا لم يخرجاه . وأما ما رواه مسلم (٢) عن حصين بن سبرة ، عن زيد بن أرقم ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما بعد ، أيها الناس ! إنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب . وأنا تارك فيكم ثقلين : أولهما كتاب الله ، فيه الهدى والنور . فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به فحثّ على كتاب الله عز وجل ورغب فيه . ثم قال : وأهل بيتي . أذكركم الله في أهل بيتي . فالها ثلاثاً . فقال له حصين : ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال : نساؤه من أهل بيته . ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده . قال : ومن هم؟ قال : آل عليّ وآل عقیل وآل جعفر وآل عباس رضی الله عنهم -

(١) أخرجه الترمذی في : ٤٦ - كتاب المناقب ، ٦٠ - باب فضل فاطمة بنت محمد ﷺ

(٢) أخرجه في : ٤٤ - كتاب فضائل الصحابة ، حديث رقم ٣٦ (طبعنا)

فإنما مراد زيد، آله الذين حرموا الصدقة. أو أنه ليس المراد بالأهل الأزواج فقط، بل هم مع آله. قال ابن كثير : وهذا الاحتمال أرجح ، جمعا بين القرآن والأحاديث المتقدمة، إن صحّت. فإن في بعض أسانيدنا نظراً. انتهى .

وقال أبو السعود : وهذه كما ترى آية بينة ، وحجة نيرة ، على كون نساء النبي صلى الله عليه وسلم من أهل بيته ، قاضية ببطان رأى الشيعة في تخصيصهم أهلية البيت بفاطمة وعليّ وابنهما رضوان الله عليهم. وأما ما تمسكوا به من حديث الكساء وتلاوته صلى الله عليه وسلم الآية بعده، فإنما يدل على كونهم من أهل البيت، لا على أن من عداهم ليسوا كذلك. ولو فرضت دلالة على ذلك لما اعتدّ بها ، لكونها في مقابلة النص . انتهى .

بقى أن الشيعة ، تمسكوا بالآية أيضاً على عصمة عليّ رضي الله عنه ، وإمامته دون غيره .

قال ابن المطهر الحلي منهم : وفي هذه الآية دلالة على العصمة مع التأكيد بلفظ (إنما) وإدخال اللام في الخبر ، والاختصاص في الخطاب بقوله (وَيُطَهَّرُكُمْ تَطْهِيراً) وغيرهم ليس بمعصوم الخ . وأجاب ابن تيمية رحمه الله في (منهاج السنة) بقوله : ليس في هذا دلالة على عصمتهم ولا إمامتهم. وتحقيق ذلك في مقامين : أحدهما - أن قوله (١) (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً) كقوله (٢) (مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ) وكقوله (٣) (يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ) وكقوله (٤) (يُرِيدُ اللَّهُ لِيُمَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) * وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا) فإن إرادة الله في هذه الآيات متضمنة لمحبة الله لذلك المراد ورضاه به ، وأنه شرعه

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٣٣] . (٢) [٥ / المائدة / ٦] .

(٣) [٢ / البقرة / ١٨٥] . (٤) [٤ / النساء / ٢٦ و ٢٧] .

للمؤمنين وأمرهم به . ليس في ذلك أنه خلق هذا المراد ، ولا أنه قضاه وقدره ، ولأنه يكون لاحالة . والدليل على ذلك ، أن النبي صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية قال (اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا) فطلب من الله لهم إذهاب الرجس والتطهير . فلو كانت الآية تتضمن إخبار الله بأنه قد أذهب عنهم الرجس وطهرهم ، لم يحتج إلى الطلب والدعاء .

وهذا على قول القدرية أظهر . فإن إرادة الله عندهم لا تتضمن وجود المراد ، بل قد يريد مالا يكون ويكون مالا يريد . فليس في كونه تعالى مريداً لذلك ، ما يدل على وقوعه .

وهذا الراضى وأمثاله قدرية ، فكيف يحتجون بقوله (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ) على وقوع المراد ؟ وعندهم أن الله قد أراد إيمان من على وجه الأرض . فلم يقع مراده . وأما على قول أهل الإثبات ، فالتحقيق في ذلك أن الإرادة في كتاب الله نوعان : إرادة شرعية دينية تتضمن محبته ورضاه . وإرادة كونية قدرية تتضمن خلقه وتقديره . الأولى مثل هؤلاء الآيات . والثانية مثل قوله تعالى (١) (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ) وقول نوح (٢) (وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ) وكثير من المثبتة والقدرية يجعل الإرادة نوعا واحدا ، كما يجعلون الإرادة والمحبة شيئا واحدا . ثم القدرية ينفون إراداته لما بين أنه مراد في الآيات التشريعية . فإنه عندهم كل ما قيل إنه مراد . فلا يلزم أن يكون كائنا ، والله قد أخبر أنه يريد أن يتوب على المؤمنين وأن يطهرهم . وفيهم من تاب وفيهم من لم يتب . وفيهم من تطهر وفيهم من لم يتطهر . وإذا كانت الآية دالة على وقوع ما أراده من التطهير وإذهاب الرجس ، لم يلزم بمجرد الآية ثبوت ما ادعاه . وما يبين ذلك ، أن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم مذكورات في الآية . والكلام في الأمر بالتطهير بإيجابه

(١) [٦ / الأنعام / ١٢٥] . (٢) [١١ / هود / ٣٤] .

ووعده الثواب على فعله والعقاب على تركه . قال تعالى (١) (يَسَاءَ النَّبِيُّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَحْشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَعَفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا) إلى قوله (٢) (وَأَطِئِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَإِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) فالخطاب كله لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم ومعهم الأمر والنهي والوعد والوعيد . لكن لما تبين ما في هذا من المنفعة التي تعمهن وتعم غيرهن من أهل البيت ، جاء التطهير بهذا الخطاب وغيره ليس مختصاً بأزواجه . بل هو متناول لأهل البيت كلهم . وعلى وفاطمة والحسن والحسين أخص من غيرهم بذلك . ولذلك خصهم النبي صلى الله عليه وسلم بالدعاء لهم . وهذا كما أن قوله (٣) (لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ) نزلت بسبب (مسجد قباء) لكن الحكم يتناوله ويتناول ما هو أحق منه بذلك ، وهو (مسجد المدينة) وهذا يوجه ما ثبت في الصحيح (٤) عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن المسجد الذي أسس على التقوى فقال : هو مسجدى هذا . وثبت عنه في الصحيح (٥) أنه كان يأتي قباء كل سبت ماشياً وراكباً . فكان يقوم في مسجده يوم الجمعة ويأتي قباء يوم السبت . وكلاهما مؤسس على التقوى . وهكذا أزواجه . وعلى وفاطمة والحسن والحسين رضى الله عنهم أخص بذلك من أزواجه . ولهذا خصهم بالدعاء . وقد تنازع الناس في آل محمد من هم ؟ فقيل : أمته . وهذا قول طائفة من أصحاب محمد ومالك وغيرهم . وقيل : المتقون من أمة . ورووا حديثاً (آل محمد كل مؤمن

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٣٠] . (٢) [٣٣ / الأحزاب / ٣٣] .

(٣) [٩ / التوبة / ١٠٨] .

(٤) أخرجه مسلم في : ١٥ - كتاب الحج ، حديث رقم ٤١٥ (طبعتنا) .

(٥) أخرجه البخارى في : ٢٠ - كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة ، ٣ -

باب من أتى مسجد قباء كل سبت ، حديث ٦٤٧ ، عن ابن عمر .

وأخرجه مسلم في : ١٥ - كتاب الحج ، حديث رقم ٥١٥ (طبعتنا) .

تقوّ) رواه الخلال ، وتما في (الفوائد) له . وقد احتج به طائفة من أصحاب أحمد وغيرهم . وهو حديث موضوع . وبني على ذلك طائفة من الصوفية . أن آل محمد هم خواص الأولياء . كما ذكر الحكيم الترمذيّ . والصحيح أن آل محمد هم أهل بيته . وهذا هو المنقول عن الشافعيّ وأحمد . وهو اختيار الشريف أبي جعفر وغيرهم . لكن هل أزواجه من أهل بيته ؟ على قولين هما روايتان عن أحمد . أحدهما - أنهن لسن من أهل البيت . ويروى هذا عن زيد ابن أرقم . والثاني - وهو الصحيح أن أزواجه من آله . فإنه قد ثبت في الصحيحين^(١) عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه علمهم الصلاة عليه : اللهم صلّ على محمد وأزواجه وذريته . ولأن امرأة إبراهيم من آله وأهل بيته . وامرأة لوط من آله وأهل بيته . بدلالة القرآن . فكيف لا يكون أزواج محمد من آله وأهل بيته ؟ ولأن هذه الآية تدلّ على أنهن من أهل بيته ، وإلا لم يكن لذكر ذلك في الكلام معنى . وأما الأتقياء من أمته فهم أولياؤه . كما ثبت في الصحيح^(٢) أنه قال : إن آل بني فلان ليسوا لي بأولياء ، وإنما ولي الله وصالح المؤمنين . فبين أن أولياءه صالح المؤمنين . وكذلك في حديث آخر : إن أوليائي المتقون حيث كانوا وأين كانوا . وقد قال تعالى^(٣) (وَإِنْ تَظَهَّرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيْلُ وَصَلِّحُ الْمُؤْمِنِينَ) وفي الصحاح^(٤) عنه أنه قال : وددت أني رأيت إخواني . قالوا : أو لسنا إخوانك ؟ قال :

(١) أخرجه البخاريّ في : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ١٠ - باب حدثنا موسى بن إسماعيل

حديث ١٥٩٠ ، عن أبي حميد الساعديّ .

ومسلم في : ٤ - كتاب الصلاة ، حديث رقم ٦٩ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخاريّ في : ٧٨ - كتاب الأدب ، ١٤ - باب يبيلّ الرحم بيلا لها ،

حديث ٢٣١٥ ، عن عمرو بن العاص .

وأخرجه مسلم في ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ٣٦٦ .

(٣) [٦٦ / التحريم / ٤] .

(٤) أخرجه مسلم في : ٢ - كتاب الطهارة ، حديث رقم ٣٩ (طبعتنا) .

بل أنتم أصحابي ، وإخواني قوم يأتون من بعدى يؤمنون بي ولم يروني . وإذا كان كذلك ، فأولياؤه المتقون ، بينه وبينهم قرابة الدين والإيمان والتقوى . وهذه القرابة الدينية أعظم من القرابة الطبيعية . والقرب بين القلوب والأرواح أعظم من القرب بين الأبدان . ولهذا كان أفضل الخلق أولياؤه المتقون . وأما أقرابه ففيمهم المؤمن والكافر والبرّ والفاجر . فإن كان فاضل منهم ، كعلّي رضي الله عنه وجعفر والحسن والحسين ، ففضلهم بما فيهم من الإيمان والتقوى . وهم أولياؤه بهذا الاعتبار لا بمجرد النسب . فأولياؤه أعظم درجة من آله . وإن صلى على آله تبعاً ، لم يقتض ذلك أن يكونوا أفضل من أوليائه . الذين لم يصلّ عليهم . فإن الأنبياء والمرسلين هم من أوليائه . وهم أفضل من أهل بيته . وإن لم يدخلوا في الصلاة معه تبعاً ، فالفضل قد يختص بأمر ولا يلزم أن يكون أفضل من الفضل . ودليل ذلك أن أزواجه هم ممن يصلّي عليه كما ثبت ذلك في الصحيحين . وقد ثبت باتفاق الناس كلهم أن الأنبياء أفضل منهم كلهم . فإن قيل : فهب أن القرآن لا يدل على وقوع ما أريد من التطهير وإذهاب الرجس ، لكن دعاء النبي صلى الله عليه وسلم بذلك يدل على وقوعه . فإن دعاءه مستجاب . قيل : المقصود أن القرآن لا يدل على ما ادعاه بثبوت الطهارة وإذهاب الرجس ، فضلاً عن أن يدل على العصمة والإمامة . وأما الاستدلال بالحديث فذاك مقام آخر . ثم نقول في المقام الثاني : هب أن القرآن دلّ على طهارتهم وعلى ذهاب رجسهم ، كما أن الدعاء المستجاب لا بد أن يستحق معه طهارة المدعو لهم وإذهاب الرجس عنهم . لكن ليس في ذلك ما يدل على العصمة من الخطأ . والدليل عليه أن الله لم يرد بما أمر به أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أن لا يصدر من واحدة منهم خطأ . فإن الخطأ مغفور لمن ولغيرهن . وسياق الآية يقتضي أنه يريد ليذهب عنهم الرجس الذي هو الخبث . كالفواحش ويطهرهم تطهيراً من الفواحش وغيرها من الذنوب . والتطهير من الذنب على وجهين ، كما في قوله ^(١) (وَتَيْبَأُكَ فَطَهِّرْ) وقوله ^(٢) (إِنَّهُمْ

(١) [٧٤ / المدثر / ٤] . (٢) [٧ / الأعراف / ٨٢] و [٢٧ / النمل / ٥٦] .

أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ) فإنه قال فيها^(١) (مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ) والتطهير من الذنب إما بأن لا يفعله العبد ، وإما بأن يتوب منه كقوله^(٢) (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا) ما أمر الله به من الطهارة ابتداء وإرادة . فإنه يتضمن نهيهِ عن الفاحشة ، لا يتضمن الإذن فيها بحال . لكن هو سبحانه ينهى عنها ، ويأمر من فعلها بأن يتوب منها . وفي الصحيح^(٣) عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول : اللهم ! باعد بيني وبين خطاياي ، كما باعدت بين المشرق والمغرب . واغسلني بالثلج والبرد والماء البارد . اللهم ! نقني من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس . وبالجملة ، لفظ (الرجس) أصله القذر . ويراد به الشرك . كقوله^(٤) (فَأَجْتَبِئُوا الرَّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ) ويراد به الخبائث المحرمة ، كالطعومات والمشروبات كقوله^(٥) (قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خنزيرٍ فَإِنَّهُ وَرَجْسٌ أَوْ فَسَقًا) وقوله^(٦) (إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلامُ رَجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ) وإذ هاب ذلك إذهاب لـسكـله . ونحن نعلم أن الله أذهب عن أولئك السادة الشرك والخبائث . ولفظ (الرجس) عام يقتضى أن الله يذهب جميع الرجس . فإن النبي صلى الله عليه وسلم دعا بذلك . وأما قوله (وطهرهم تطهيراً) فهو سؤال مطلق بما يسمى طهارة . وبعض الناس يزعم أن هذا مطلق فيكتفى فيه بفرد من أفراد الطهارة . ويقول مثل ذلك في قوله^(٧) (فَأَعْتَبِرُوا يَا أُولِي

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٣٠] . (٢) [٩ / التوبة / ١٠٣] .

(٣) أخرجه البخارى في : ١٠ - كتاب الأذان ، ٨٩ - باب ما يقول بعد التكبير ،

حديث ٤٥٤ ، عن أبي هريرة

وأخرجه مسلم في : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ١٤٧ (طبعتنا)

(٤) [٢٢ / الحج / ٣٠] . (٥) [٦ / الأنعام / ١٤٥] .

(٦) [٥ / المائدة / ٩٠] . (٧) [٥٩ / الحشر / ٢] .

أَلْبَصَرِ) ونحو ذلك. والتحقق أنه أمر يسمى الاعتبار الذي يقال عند الإطلاق . كما إذا قيل : أكرم هذا ، أى افعل معه ما يسمى عند الإطلاق إكراماً . وكذلك ما يسمى عند الإطلاق اعتباراً . والإنسان لا يسمى معتبراً إذا اعتبر في قصة ، وترك ذلك في نظيرها . وكذلك لا يقال (هو طاهر) أو (متطهر) أو (مطهر) إذا كان متطهراً من شيء ، متنجساً بنظيره .
 ولفظ (الطاهر) كلفظ (الطيب) قال تعالى ^(١) (وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ) كما قال ^(٢) (الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ) وقد روى أنه قال لعمار : ائذنوا له .
 مرحباً بالطيب الطيب . وهذا أيضاً كلفظ (المتقى) و (المزكى) قال تعالى ^(٣) (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) وقال ^(٤) (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا) وقال ^(٥) (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا) وقال ^(٥) (وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَسَّازِجَاتُ لِحْيَتِكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَسِنَّ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ) وليس من شرط المتقين ونحوهم أن لا يقع منهم ذنب ، ولا أن يكونوا معصومين من الخطأ والذنوب . فإن هذا ، لو كان كذلك ، لم يكن في الأمة متقى ، بل من تاب من ذنوبه دخل في المتقين . كما قال ^(٦) (إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلِكُمْ مُدْخَلَ كَرِيمًا) فدعاء النبي صلى الله عليه وسلم بأن يطهرهم تطهيراً ، كدعائه بأن يزكّيهم ويطيبيهم ويجعلهم متقين ، ونحو ذلك . ومعلوم أن من استقر أمره على ذلك ، فهو داخل في هذا . لا تكون الطهارة التي دعا بها لهم بأعظم مما دعا به لنفسه . وقد قال ^(٧) : اللهم ! طهرني من خطاياي بالثلج والبرد والماء البارد .

(١) [٢٤ / النور / ٢٦] . (٢) [٩١ / الشمس / ٩ ، ١٠] .

(٣) [٩ / التوبة / ١٠٣] . (٤) [٨٧ / الأعلى / ١٤] .

(٥) [٢٤ / النور / ٢١] . (٦) [٤ / النساء / ٣١] .

(٧) أخرجه مسلم في : ٤ - كتاب الصلاة ، حديث ٢٠٤ (طبعتنا) عن عبد الله بن

أبي أوفى .

فمن وقع ذنبه مغفوراً أو مكفراً ، فقد طهره الله منه تطهيراً . ولكن من مات متوسخاً بذنوبه ، فإنه لم يطهر منها في حياته . وقد يكون من تمام تطهيرهم صياتهم عن الصدقة التي هي أوساخ الناس . والنبي صلى الله عليه وسلم ، إذا دعا بدعاء ، أجابه الله بحسب استعداد المحل . فإذا استغفر للمؤمنين والمؤمنات ، لم يلزم أن لا يوجد مؤمن مذنب ، فإن هذا لو كان واقعا ، لما عُدَّ مؤمن ، لافي الدنيا ولا في الآخرة . بل يغفر الله لهذا بالتوبة ، ولهذا بالحسنات الماحية . ويغفر الله لهذا ذنوباً كثيرة ، وإن واحدة بأخرى ، وبالجملة ، فالتطهير الذي أراده الله والذي دعا به النبي صلى الله عليه وسلم ، ليس هو العصمة بالاتفاق ، فإن أهل السنة عندهم ، لا معصوم إلا النبي صلى الله عليه وسلم . والشيعَةُ يقولون : لا معصوم غير النبي صلى الله عليه وسلم والإمام . فقد وقع الاتفاق على انتفاء العصمة المختصة بالنبي صلى الله عليه وسلم والإمام عن أزواجه وبناته وغيرهن من النساء ، وإذا كان كذلك امتنع أن يكون التطهير المدعَوُّ به للأربعة ، متضمنا للعصمة التي يختص بها النبي صلى الله عليه وسلم ، والإمام عندهم . فلا يكون دعاء النبي صلى الله عليه وسلم بهذا ، للعصمة ، لالعلل ولا لغيره . فإنه دعا لأربعة مشتركين ، لم يختص بعضهم بدعوة ، وأيضاً فالدعاء بالعصمة من الذنوب ممنوع على أصل القدرية . بل وبالتطهير أيضاً . فإن الأفعال الاختيارية التي هي فعل الواجبات وترك المحرمات عندهم غير مقدورة للرب . ولا يمكنه أن يجعل العبد مطيعاً ولا عاصياً . ولا متطهراً من الذنوب ولا غير متطهر . فامتنع على أصلهم أن يدعو لأحد بأن يجعله فاعلاً للواجبات تاركا للمحرمات . وإما المقدور عندهم قدرة تصلح للخير والشر . كالسيف الذي يصلح لقتل المسلم والكافر . والمال الذي يمكن إتفائه في الطاعة والمعصية ، ثم العبد يفعل باختياره ، إما الخير وإما الشر بتلك القدرة . وهذا الأصل يبطل حجبتهم ، والحديث حجة عليهم في إبطال هذا الأصل ، حيث دعا النبي صلى الله عليه وسلم بالتطهير . فإن قالوا : المراد بذلك أنه يغفر لهم ولا يؤاخذهم ، كان ذلك أدل على البطلان من دلالاته على العصمة . فتبين أن الحديث لا حجة لهم فيه بحال على ثبوت العصمة . والعصمةُ

مطلقا التي هي فعل المأمور وترك المحذور ، ليست مقدورة عندهم لله ، ولا يمكنه أن يجعل أحدا فاعلا لطاعةٍ ولا تاركا لمعصيةٍ . لا لنبيٍّ ولا لغيره . ويمتنع عندهم أن من يعلم أنه إذا عاش يطيعه باختيار نفسه ، لا بإعانة الله وهدايته . وهذا مما يبين تناقض قولهم في مسائل العصمة . كما تقدم . ولو قدر ثبوت العصمة ، فقد قدمنا أنه لا يشترط في الإمام العصمة ، والإجماع على انتفاء العصمة في غيرهم . وحينئذ تبطل حججهم بكل طريق . انتهى . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَأَذْكُرَنَّ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا)

«وَأَذْكُرَنَّ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ» أمر لهن بأن يذكرن ولا يُغفلن ما يقرأ في بيوتهن من آيات كتابه تعالى ، وسنة نبيه اللتين فيهما حياة الأنفس وسعادتها وقوام الآداب والأخلاق . وذكر ذلك مستوجب لتصور عظمته ومكانته وثمرته ومنفعته . وذلك يجرّ إلى العمل به . فمن تأوّل (أذْكُرَنَّ) باعملن به ، أراد ذلك تعبيراً عن المسبب باسم السبب . وجوز أن يكون المعنى : اذكرن هذه النعمة حيث جعلتن أهل بيت النبوة ومهبط الوحي ، مما يوجب قوة الإيمان والحرص على الطاعة ، حتّى على الانتهاء والائتمار فيما كلفنه . قال أبو السعود : والتعرض للتلاوة في البيوت دون النزول فيها ، مع كونها مهبط الوحي لعمومها لجميع الآيات ووقوعها في كل البيوت وتكررها الموجب لتمكّنهن من الذكر والتذكير . بخلاف النزول وعدم تعيين التالي لتعم تلاوة جبريل وتلاوة النبي صلى الله عليه وسلم وتلاوتهن وتلاوة غيرهن ، تعلما وتعلما «إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا» أى يعلم ويدبر ما يصلح في الدين . ولذلك أمر ونهى .

[٣٥] (إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ
وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ
وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّامِتِينَ وَالصَّامِتَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ
وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً
وَأَجْرًا عَظِيمًا)

« إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ » أى المنقادين فى الظاهر لحكم الله من الذكور والإناث
« وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ » أى المصدقين بما يجب أن يصدق به فى القلب « وَالْقَانِتِينَ
وَالْقَانِتَاتِ » أى بإدانة شغل الجوارح فى الطاعات « وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ » فى القول
بمجانبة الكذب والعمل بتجريد الإخلاص لوجهه تعالى فلا يكون فى طاعتهم رياء « وَالصَّابِرِينَ
وَالصَّابِرَاتِ » أى على البأساء والضراء والنوائب، وعلى القيام بالعبادة والثبات عليها « وَالْخَاشِعِينَ
وَالْخَاشِعَاتِ » أى المتواضعين لله بقلوبهم وجوارحهم . و (الخشوع) السكون والطمأنينة
والتؤدة والوقار والتواضع . والحامل عليه الخوف منه تعالى ومراقبته « وَالْمُتَصَدِّقِينَ
وَالْمُتَصَدِّقَاتِ » أى بالإحسان إلى الفقراء والبؤساء الذين لا كسب لهم ولا كاسب . فيعطون
من فضول أموالهم طاعة لله وإحسانا إلى خلقه وإتماماً للخشوع « وَالصَّامِتِينَ وَالصَّامِتَاتِ »
أى الآتين بما طلب منهم من الصيام المورث للتقوى والرحمة على من يتضور جوعاً ويتصبر فقراً
« وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ » أى عن إبدائها وإراءتها ، حياءً وكفاً عن مشار
الشهوة المحرمة أو عن الحرام والفجور « وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ » أى بقلوبهم
وألسنهم « أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً » أى بسبب ما عملوا من الحسنات المذكورة غفراناً
لما اقترفوا من الصفائر لأنها مكفرة بذلك « وَأَجْرًا عَظِيمًا » أى ثواباً وافراً فى الجنة ،
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ

لَهُمُ الْخَيْرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ، وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلًّا مُبِينًا)

«وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ» أى ما صح لهما « إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا

أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ» أى قضى الله ورسوله فى أنفسهم قضاء، أن يتخيروا

من أمرهم غير الذى قضى فيهم ويخالفوا أمر الله وأمر رسوله وقضاءهما ويعصوهما ، لما فى

ذلك من المأثم ، كما قال تعالى « وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَ » أى فيما أمرا أو نهيا « فَقَدْ

ضَلَّ ضَلًّا مُبِينًا » أى جار عن قصد السبيل ، وسلك غير الهدى والرشاد . وقد ذكر أن

هذه الآية نزلت فى زينب بنت جحش ، حين خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد بن حارثة .

فأبت لكونه مولى لا يماثلها فى الشرف . فنزلت الآية فرضيت وتزوجها .

قال المهايى : الظاهر أن الخطبة كانت بطريق الوجوب . ويحتمل أن تكون لابطريق

الوجوب ، لكن اعتبار العار فى مقابلة خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم معصية ، لما

فيه من ترجيح قول أهل العرف على قول رسول الله صلى الله عليه وسلم مع كونه قول الله

بالحقيقة . اهـ .

وقال بعضهم : إنما عدّ التنزيل إباءها عصيانا ، وكأنه أرغمها على زواجه ، لما أوقع الله

من المصلحة لها وللمساكين فى ذلك . وهو هدم تحريم زوجة المتبتي ، الفاشى فى الجاهلية . كما

سيأتى سياقها .

وذكر أيضا أنها نزلت فى أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط . وكانت أول من هاجر من

النساء - بعد صلح الحديبية - فوهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم ، فزوجها زيدا - أى

بعد فراقه زينب - فسخطت ، فنزلت الآية ، فرضيت . وروى الإمام أحمد^(١) عن أنس قال :

(١) أخرجه بالصفحة رقم ١٣٦ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

خطب النبي صلى الله عليه وسلم على جليبيب رضى الله عنه ، امرأة من الأنصار إلى أبيها . فقال : حتى أستأمر أمها . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : نعم إذاً . قال : فانطلق الرجل إلى امرأته ، فذكر ذلك لها ، فأبت أشد الإباء . فقالت الجارية : أتريدون أن تردوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره ؟ إن كان قد رضى لكم ، فأنكحوه . قال : فكأنها جلت عن أبيها وقالوا : صدقت . فذهب أبوها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن كنت رضىته فقد رضىناه . قال صلى الله عليه وسلم : فإني قد رضىته . قال : فزوجها . ثم ذهب مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزاة ، فقتل . ورؤي حوله ناس من المشركين قد قتلهم . قال أنس : فلقد رأيتها وإنها لمن أتفق بيت في المدينة (وفي رواية : فما كان في الأنصار أيتم أتفق منها) .

وذكر الحافظ ابن عبد البر في (الاستيعاب) أن الجارية لما قالت في خدرها : أتردون على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره ، نزلت هذه الآية^(١) (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ) الخ . ولا يخفى شمول الآية لما ذكر ولغيره ، إلا أن تأثر هذه الآية بقصة زيد وزوجه ، الآتية ، يؤيد أنها نزلت في زوجه زينب ، لتناسق نظام الآيات حينئذ وظهور هذه الآية كالطليعة لهذه القصة الجميلة .

وقد قدمنا مراراً أن معنى قولهم (نزلت الآية في كذا) أنها مما تشمله لعموم مساقها . ولذا سأل طاوس ابن عباس عن ركعتين بعد العصر فنهاه . وقرأ له هذه الآية .

قال ابن كثير : هذه الآية عامة في جميع الأمور . وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء فليس لأحد مخالفته ، ولا اختيار لأحد ههنا ، ولا رأى ولا قول . كما قال تبارك وتعالى^(٢) : (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) وفي الحديث : والذي نفسى بيده ! لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به . ولهذا شدد في خلاف ذلك فقال^(٣) (وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَ

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٣٦] . (٢) [٤ / النساء / ٦٥] .

(٣) [٣٣ / الأحزاب / ٣٦] .

فَقَدْ ضَلَّ ضَلًّا مُّبِينًا) كقولہ تعالیٰ (١) (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) .

لطائف :

الأولى - قالوا على الروايات السالفة : إن ذكر الله في الآية ، مع أن الأمر لهم الرسول صلى الله عليه وسلم ، للدلالة على أنه بمنزلة من الله ، بحيث تعد أوامره أوامر الله تعالى . أو أنه لما كان ما يفعله بأمره ، لأنه لا ينطق عن الهوى ، ذكرت الجلالة وقدمت للدلالة على ذلك . انتهى .

وهذا وقوف مع ما روى . وإلا فظاهر الآية يعم ما إذا قضى الله في كتابه ، ورسوله في سنته .

الثانية - (الْخَيْرَةُ) هنا مصدر ، وذكروا أنه لم يجي من المصادر على وزنه غير (طَيْرَة) الثالثة - جمع الضمير الأول - وهو لهم - لعموم مؤمن ومؤمنة من حيث إنهما في سياق النفي . قال الشهاب : واعتبر عمومه ، وإن كان سبب نزوله خاصا ، دفعا لتوهم اختصاصه بسبب النزول . أو ليؤذن أنه كما لا يصح ما اختاروه مع الانفراد ، لا يصح مع الجمع أيضا كيلا يتوهم أن للجمعية قوة تصححه . انتهى .

وجمع الثانى - وهو ضمير من أمرهم - مع أنه للرسول صلى الله عليه وسلم ، أو له والله تعالى ، للتعظيم . هذا ما أشار له القاضى وغيره . مع أنه لا يظهر امتناع عوده على ما عاد عليه الأول ، مع ترجيحه بعدم التفكيك فيه ، على أن يكون المعنى : ناشئة من أمرهم . والمعنى دواعيهم السابقة إلى اختيار خلاف ما أمر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم . أو المعنى الاختيار فى شيء من أمرهم ، أى دواعيهم . ورد هذا ، بأنه قليل الجدوى ، ضرورة أن الخيرة ناشئة من دواعيهم . أو واقعة فى أمورهم . وهو بين مستغن عن البيان . بخلاف ما إذا كان المعنى بدل

(١) [٢٤ / النور / ٦٣] .

أمره الذى قضاءه صلى الله عليه وسلم . أو متجاوزين عن أمره لتأكيده وتقريره للنفي . فهذا هو المانع من عودته إلى ما عاد عليه الأول .

قال الشهاب : وهو كلام حسن . ثم أشار تعالى إلى ما من به على المسلمين من هدم تحريم زوجة الدعى والتبئى الذى كان فاشيا فى الجاهلية ، بما جرى بين زيد متبئى النبى صلى الله عليه وسلم وزوجه من الفراق . ثم تروى به تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم إياها ، رفعا للخرج فيه . فقال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ، فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ، وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا)

[٣٨] (مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ وَهُوَ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا)

[٣٩] (الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا)

« وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ » أى بالإسلام ومتابعة النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو زيد بن حارثة « وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ » أى بالعتق والجرية والاصطفاء بالولاية والمحبة ، وتروى به بنت عمته بنت جحش .

قال ابن كثير : كان سيداً كبير الشأن جليل القدر ، حبيباً إلى النبي صلى الله عليه وسلم يقال له (الحِب) ويقال لابنه أسامة (الحِب ابن الحِب) قالت عائشة رضی الله عنها : ما بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم في سرية إلا أمره عليهم . ولو عاش بعده لاستخلفه . رواه الإمام أحمد^(١) . « أُمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ » أى لا تطلقها « وَأَتَّقِ اللَّهَ » أى اخشهُ في أمرها فإن الطلاق يشينها وقد يؤذى قلبها وارع حق الله في نفسك أيضا . فرما لا تجد بعدها خيراً منها . وكانت تتمتع عليه بشرفها ، وتؤذيه بلسانها . فرام تطليقها متعللاً بتكبرها وأذاها فوعظه صلى الله عليه وسلم وأرشده إلى الصبر والتقوى « وَتَخْفِي » أى تضمري « فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ » أى من الحكم الذى شرعه . أى تقول ذلك ، وأنت تعلم أن الطلاق لا بد منه ، وأن لا متدح عن امتثال أمر الله بنفسك ، لتكون أسوة لمن معك ولمن يأتي بعدك . وإنما غلبك في ذلك الحياء وخشية أن يقولوا تزوج محمد مطلقة متبناه . وهذا معنى قوله تعالى « وَتَخْشَى النَّاسَ » أى قالتهم وتعيرهم الجاهلي « وَاللَّهُ » أى الذى أهلكك ذلك وأمرك به « أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ » أى فكان عليك أن تمضى في الأمر من أول وهلة تعجيلاً بتنفيذ كلمته وتقرير شرعه ، ثم زاده بيانا بقوله « فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا » أى حجةً بالزواج « زَوْجَتُكَهَا لَيْكِي لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي زَوْجِ أَدْعِيَاهُمْ » أى ضيق من العار في نكاح زوجات ادعياهم « إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا » أى بموت أو طلاق أو فسخ نكاح . « وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا » أى قضاؤه واقعا ، ومنه تزويجك زينب « مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ » أى ما تم وضيق « فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ وَ » أى كتبه له من التزوج وأباحه له وسن شريعة مثلى في وقوعه « سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ » أى الرسل عليهم السلام . وهو أن لا حرج عليهم في الإقدام على ما أباح لهم ووسع عليهم في باب النكاح وغيره . فإنه كان لهم الحرائر والسرارى وتناول المباحات والطيبات وبهداهم

(١) أخرجه بالصفحة رقم ٢٢٧ من الجزء السادس (طبعة الحلبي) .

القدوة « وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا » أى قضاء مقضياً . أى لاجرح على أحد فيما أحل له . ثم وصف شأنهم بقوله « الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ » أى أحكامه وأوامره ونواهيه ويصدعون بها « وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ » أى لا يخافون قالة الناس ولا أئمتهم ولا يبالون بها فى تشريعه ولا ريب أن سيّد الناس فى هذا المقام، بل وفى كل مقام، حضرة نبينا عليه الصلاة والسلام . كما علم من قيامه بالتبليغ بالقول والفعل أبلغ قيام « وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا » أى حافظاً لأعمال خلقه . وكافياً للمخاوف .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ، وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا)

« مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ » هذا دفعٌ لتعمير من جهل ، فقال : تزوج محمد زوج ابنه زيد . فدفعه تعالى بأنه إنما يتصور لو كان صلى الله عليه وسلم أباً لزيد على الحقيقة ، لكنه ليس أباً لأحد من أصحابه ، حتى يثبت بينه وبينه ، ما يثبت بين الأب وولده من حرمة الصهر والنكاح ، وزيدٌ واحد منهم ، الذين ليسوا بأولاده حقيقة . فكان حكمه حكمهم . والادعاء والتبني من باب الاختصاص والتقريب لا غير « وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ » أى ولكن كان رسول الله مبلغاً لرسالاته « وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ » بفتح التاء وكسرها ، قراءتان . أى فهذا نعته وهذه صفة . فليس هو فى حكم الأب الحقيقى ، وإنما ختمت النبوة به ، لأنه شرع له من الشرائع ما ينطبق على مصالح الناس فى كل زمان وكل مكان . لأن القرآن الكريم لم يدع أمماً من أممات المصالح إلا جلاها ، ولا مكرمة من أصول الفضائل إلا أحيها . فتمت الرسالات برسالاته إلى الناس أجمعين ، وظهر مصداق ذلك بحجبة كل من ادعى النبوة بعده ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وهو خير الوارثين « وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا » أى فلا يقضى إلا بما سبق به علمه ، ونفذت فيه مشيئته ، واقتضته حكمته .

تنبيهان في لطائف هذه القصة وفوائدها الباهرات :

الأول - لم تختلف الروايات أنها نزلت في قصة زيد بن حارثة وزوجه زينب بنت جحش .
ورواه البخاري^(١) عن أنس في التفسير . ورواه عنه في التوحيد قال : جاء زيد بن حارثة
يشكو . فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول : اتق الله وأمسك عليك زوجك . وأخرجه^(٢)
أحمد بلفظ أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم منزل زيد بن حارثة . فجاءه زيد يشكوها إليه .
فقال له : أمسك زوجك واتق الله . فنزلت .

وقد أخرج ابن أبي حاتم هذه القصة من طريق السدي . فساقها سياقاً حسناً واضحاً
ولفظه : بلغنا أن هذه الآية نزلت في زينب بنت جحش ، وكانت أمها أميمة بنت عبد المطلب
عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن يزوجه زيد بن
حارثة مولاه فكرهت ذلك ، ثم إنها رضيت بما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فزوجها
إياه ، ثم أعلم الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم بعد ، أنها من أزواجه . فكان يستحي أن
يأمره بطلاقها ، وكان لا يزال يكون بين زيد وزينب ما يكون من الناس ، فأمره رسول الله
صلى الله عليه وسلم أن يمسك عليه زوجته ، وأن يتقى الله . وكان يخشى الناس أن يعيبوا عليه
ويقولوا تزوج امرأة ابنه . وكان قد تبنى زيداً .

وعنده ، من طريق علي بن زيد بن جدعان عن علي بن الحسين بن علي ، قال : أعلم الله
نبيه صلى الله عليه وسلم ؛ أن زينب ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها . فلما أتاه زيد
يشكوها إليه ، وقال له : اتق الله وأمسك عليك زوجك . قال الله تعالى : قد أخبرتك أني
مزوجكها ، وتخفى في نفسك ما الله مبديه .

(١) أخرجه في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٣٣ - سورة الأحزاب ، ٦ - باب قوله وتخفى

في نفسك ما الله مبديه ، حديث رقم ٢٠٣٢ .

وأخرجه في : ٩٧ - كتاب التوحيد ، ٢٢ - باب : وكان عرشه على الماء ، حديث رقم ٢٠٣٢

أخرجه بالصفحة ١٥٠ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

قال الحافظ ابن حجر في (الفتح) بمد نقل ماتقدم : ووردت آثار أخرى أخرجها ابن أبي حاتم والطبري ، ونقلها كثير من المفسرين ، لا ينبغي التشاغل بها . والذي أوردته منها هو المعتمد . انتهى .

وقال الحافظ ابن كثير : ذكر ابن أبي حاتم وابن جرير ههنا أثارا ، أحببنا أن نضرب عنها صفحا ، لعدم صحتها ، فلا نوردها . انتهى .

الثاني - قال القاضي عياض رحمه الله في (الشفاء) في بحث أقواله صلى الله عليه وسلم الدنيوية : ولا يجوز عليه صلى الله عليه وسلم أن يأمر أحداً بشيء أو ينهى أحداً عن شيء ، وهو يبطن خلافه وقد قال عليه السلام^(١) : ما كان لني أن تكون له خائنة الأعين ، فكيف أن تكون له خائنة قلب ؟ فإن قلت : فما معنى قوله في قصة زيد (وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ) الآية . فاعلم أكرمك الله ولا تسترب في تنزيه النبي عليه السلام عن هذا الظاهر ، وأن يأمر زيدا بإمسكها وهو يجب تطليقه إياها ، ذكر عن جماعة من المفسرين . وأصح ما في هذا ما حكاه أهل التفسير عن علي بن حسين . أن الله تعالى كان أعلم نبيه أن زينب ستكون من أزواجه . فلما شكها إليه زيد ، قال له النبي صلى الله عليه وسلم : أمسك عليك زوجك واتق الله ، وأخفي منه في نفسه ما أعلمه الله به أنه سيتزوجها مما الله مبديه ومظهره بتأم التزوج وطلاق زيد لها .

وروى نحوه عمر بن قائد عن الزهري قال : نزل جبريل عليه السلام على النبي صلى الله عليه وسلم يعلمه أن الله يزوجه زينب بنت جحش . فذلك الذي أخفي في نفسه ، ويصحح هذا قول المفسرين في قوله بمد هذا (وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا) أي لا بد لك أن تتزوجها . ويوضح هذا أن الله تعالى لم يبد من أمره معها غير زواجه لها . فدل أنه الذي أخفاه عليه السلام ، مما كان

(١) أخرجه أبو داود في : ٣٧ - كتاب الحدود ، ١ - باب الحكم فيمن ارتد ،

أعلمه به تعالى ، وقوله تعالى في القصة (مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ) دل على أنه لم يكن عليه حرج في الأمر. ولو كان على ما قيل من وقوعها في قلبه، ومحبة طلاق زيد لها، لكان فيه أعظم الحرج. وكيف يقال: رآها فأعجبته وهي بنت عمته. ولم يزل يراها منذ ولدت. ولا كان النساء يحتجن منه عليه السلام، وهو زوجها لزيد، وإنما جعل الله طلاق زيد لها وترويح النبي صلى الله عليه وسلم إياها، لإزالة حرمة التبني وإبطال سببه. كما قال (١) (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ) وقال (لِكَى لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ) قال ابن فورك: وليس معنى الخشية هنا الخوف. وإنما معناه الاستحياء. أى يستحي منهم أن يقولوا تزوج زوجة ابنه. وأن خشيته عليه السلام من الناس كانت من إرجاف المنافقين واليهود، وتشغيهم على المسلمين بقولهم: تزوج زوجة ابنه بعدنبيه عن نكاح حلائل الأبناء، كما كان. فعتبه الله تعالى على هذا، أو تزهره عن الالتفات إليهم فيما أحل له. كما عتبه على مرعاة رضاء أزواجه في سورة التحريم (٢) بقوله (لَمْ تَحْرِمُوا مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ) الآية. كذلك قوله ههنا. انتهى ملخصا.

الثالث - قال الإمام ابن حزم في (الفصل) يرد على من استدلل بمثل هذه الآية على جواز وقوع الصغائر من الأنبياء، مأمثاله: وأما قوله تعالى (وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ) الآية فقد أتقنا من ذلك. إذ لم يكن فيه معصية أصلا ولا خلاف فيما أمره الله تعالى به وأن ما كان أراده زواج. مباح له فعله ومباح له تركه ومباح له طيه ومباح له إظهاره. وإنما خشى النبي صلى الله عليه وسلم الناس في ذلك خوف أن يقولوا قولا ويظنوا ظنا، فيهلكوا. كما قال عليه السلام (٣) للأَنْصَارِيِّينَ: إنها صفة. فاستعظما ذلك، فأخبرها النبي صلى الله عليه وسلم أنه إنما

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٤٠] . (٢) [٦٦ / التحريم / ١] .

(٣) أخرجه البخاري في : ٩٣ - كتاب الأحكام ، ٢١ - باب الشهادة تكون عند

الحاكم في ولاية القضاء ، حديث رقم ١٠٣١

يخشى أن يلقى الشيطان في قلوبهما شيئاً. وهذا الذي خشيه عليه السلام على الناس من هلاك أديانهم ، بظن يظنون به عليه السلام ، هو الذي يحققه هؤلاء المخذولون المخالفون لنا في هذا الباب. وكان مراد الله عز وجل أن يبدى ما في نفسه، لما كان سلف في علمه من السعادة لأمننا زينب رضى الله عنها . انتهى .

الرابع - للإمام مفتى مصر رحمه الله مقالة على هذه الآية. رأيت نقلها هنا تعريضاً لما سلف، وإيقافاً من أسرار الآية على نخب ما وصف .

قال رحمه الله: نزلت هذه الآية في زينب بنت جحش. وهي بنت عمته صلى الله عليه وسلم أميمة بنت عبد المطلب . وقد خطبها الرسول على مولاه زيد بن حارثة . فأبت وأبى أخوها عبد الله بن جحش فنزلت آية^(١) (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ) الخ، فلما نزلت الآية قالوا: رضينا يا رسول الله. فأنكحها إياه. وساق عنه إليها مهرها ستين درهماً وخمراً وملحفة ودرعاً وإزاراً وخمسين مuddاً من طعام، وثلاثين صاعاً من تمر. كذا يروى .

فنحن من جهة، نرى أن زينب كانت بنت عممة النبي صلى الله عليه وسلم، ربيت تحت نظره وشملها من عنايته ما يشمل البنت مع والدها لأول الأمر. حتى أنه اختارها لمولاه زوجة. مع إباءها وإباء أخيها. وعد إباءها هذا عصياناً. ولا زالت كذلك حتى نزل في شأنها قرآن. فكأنه أرغمها على زواجه ، لما ألهمه الله من المصاحبة لها وللمسلمين في ذلك. ولو كان للجمال سلطان على قلبه صلى الله عليه وسلم، لكان أقوى سلطاناً عليه جمال البكر في روائه، ونضرة جدته، وقد كان يراها ولم يكن بينه وبينها حجاب . ولا يخفى عليه شيء من محاسنها الظاهرة. ولكنه لم يرغبها لنفسه، ورغبها لمولاه، فكيف يمتد نظره إليها، ويصيب قلبه سهم حبها، بعد أن صارت زوجة لعبد من عبده أنعم عليه بالعتق والحرية؟ لم يُعرف فيما يغلب على مألوف البشر، أن تعظم شهوة القريب وولعه بالقرب، إلى أن تبلغ حد العشق، خصوصاً إذا كان عشيره منذ صغره. بل

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٣٦]

المألوف زهادة الأقرباء بعضهم في بعض . متى تعود بعضهم النظر إلى بعض ، من بداية السن إلى أن يبلغ حدًا منه يحول فيه نظر الشهوة . فكيف يظن أو يتوهم أن النبي الذي يقول الله له (١) (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) يخالف مألوف العادة ، ثم يخالف أمر الله في ذلك؟ أم كيف يخطر بالبال أن من عصم الله قلبه عن كل دنيسة، يغلب عليه سلطان شهوة في بنت عمته، بعد أن زوجها بنفسه لعبد من عبيده؟ ومن جهة أخرى نرى أن النبي صلى الله عليه وسلم، وهو الرؤوف الرحيم، لم يبال بإباء زينب ورغبتها عن زيد، وقد كان لا يخفى عليه أن تنور قلب المرأة من زوجها مما تسوء معه العشرة وتفسد به شؤون المعيشة. فإكان له - وهو سيد المصلحين - أن يرغم امرأة على الاقتران برجل وهي لا ترضاه، مع ما في ذلك من الضرر الظاهر بكل من الزوجين . لا ريب أننا نجد من ذلك هاديا إلى وجه الحق في فهم الآية التي نحن بصدد تفسيرها . ذلك أن التصاق الأدعياء بالبيوت واتصالهم بأنسائها ، كان أمراً تدين به العرب وتعدّه أصلاً يرجع إليه في الشرف والحسب . وكانوا يعطون الدعوى جميع حقوق الابن ، ويجرون له وعليه جميع الأحكام التي يعتبرونها لابن، حتى في الميراث وحرمة النسب وهي عقيدة جاهلية رديئة . أراد الله بحوها بالإسلام ، حتى لا يعرف من النسب إلا الصريح ولا يجرى من أحكامه إلا ما له أساس صحيح . لهذا أنزل الله (٢) (وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ) ثم قال (٣) (أُدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ) الخ فهذا العدل الإلهي ، أن لا ينال حق الابن إلا من يكون ابنا . أما التبني واللصيق فلا يكون له إلا حق المولى والأخ في الدين . فخرّم الله على المسلمين أن ينسبوا الدعوى لمن تبناه . وحظر عليهم أن يقتطعوا له شيئاً من حقوق الابن لا قليلاً ولا كثيراً . وشدد الأمر حتى قال (٤) (وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ

(١) [٢٠ / طه / ١٣١] . (٢) [٣٣ / الأحزاب / ٤] .

(٣) [٣٣ / الأحزاب / ٥] . (٤) [٣٣ / الأحزاب / ٥] .

بهٓ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا) فهو يعفو عن اللفظة تصدر من غير قصد بأن يقول الرجل لآخر : هذا ابني . أو ينادى شخص آخر بمثل ذلك . لا عن قصد التبنّي . ولكنه لا يعفو عن العمد من ذلك ، الذي يقصد منه الإصاق بتلك اللحمة ، كما كان معروفًا من قبل . مضت سنة الله في خلقه ، أن ما رسخ في النفس بحكم العادة ، لا يسهل عليها التفصّي منه ، ولا يقدر على ذلك إلا من رفعه الله فوق العادات ، وأعتقه من رِق الشهوات ، وجعل همته فوق المألوفات . فلا يُطَيِّبه (أى يستميله) إلا الحق . ولا يحكم عليه إلف ، ولا يغلبه عرف . ذلك هو النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ومن يختصه الله بالتأسي به . لهذا ، كان الأمر ، إذا نهى الله عن مكروه كانت الجاهلية عليه ، أو أحل شيئًا كانت الجاهلية تحرّمه ، بآدَر النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى امتثال النهى بالكف عن المنهى عنه ، والإتيان بضده . وسارع إلى تنفيذ الأمر بإتيان الأمور به ، حتى يكون قدوة حسنة ، ومثالا صالحا تحاكيه النفوس ، وتحتذيه الهمم ، وحتى يخفّ وزر العادة وتخلص العقول من ريب الشبهة . نادى صلى الله عليه وسلم ^(١) في حجة الوداع بحزمة الربا . وأول ربا وضعه ربا عمه العباس . حتى يرى الناس صنيمه بأقرب الناس إليه وأكرمهم عليه ، فيسهل عليهم ترك ما لهم ، وتنقطع وساوس الشيطان من صدورهم ، على هذا السنن الإلهيّ كان عمل النبيّ صلى الله عليه وسلم في أمر زينب ، كبر على العرب أن يفصلوا عن أهلهم من الصقوه بأنسابهم من أديعائهم كما دل عليه قوله تعالى ^(١) (وَتَخَشَى النَّاسَ) الخ فعمد النبيّ صلى الله عليه وسلم ، على سنته ، إلى خرق العادة بنفسه . وما كان ينبغي له ، ولامن مقتضى الحكمة ، أن يكاف أحد الأديعاء الأبعد عنه ، أن يتزوج ثم يأمره بالطلاق ثم يأمر من كان قد تبناه أن يتزوج مطلقة . ففي ذلك من المشقة مع تحكم العادة وتمكن الاشتزاز من النفوس ، ما لا يخفى على أحد . فألهمه الله أن يتولى الأمر بنفسه في أحد عتقائه ، لتسقط العادة بالفعل . كما ألغى حكمها بالقول الفصل . لهذا أرغم النبيّ صلى الله عليه وسلم

(١) أخرجه مسلم في : ١٥ - كتاب الحج ، حديث ١٤٧ (طبعتنا) .

زينب أن تزوج زيد ، وهو مولاه و صفيّه . والنبيّ يجد في نفسه أن هذا الزواج مقدمة لتقرير شرع ، وتنفيذ حكم إلهي . وبعد أن صارت زينب إلى زيد لم يَلِنْ أبواها الأول ، ولم يسلس قيادها ، بل شمتت بأنفها وذهبت تؤذي زوجها وتفخر عليه بنسبها ، وبأنها أكرم منه عرفاً وأصرح منه حرية . لأنه لم يجز عليها رق كما جرى عليه فاشتكى منها إلى رسول الله ﷺ المرة بعد المرة . وهو عليه السلام مع علو مقامه يغلبه الحياء فيتمتد ويتمكث في تنفيذ حكم الله ولا يمجل ، فكان يقول لزيد^(١) (أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ) إلى أن غلب أمر الله على أمر الأنفة ، وسمح لزيد بطلاقها بعد أن مضى العيش معها . ثم تزوجها بعد ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ليمزق حجاب تلك العادة ، ويكسر ذلك الباب الذي كان مغلقاً دون مخالفتها كما قال^(٢) (لَيْكُنَّ لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا) وأكد ذلك بالتصريح في نفي الشبهة بقوله^(٣) (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ) الآية . هذه هي الرواية الصحيحة والقولة الراجحة .

ثم قال : وأما ما رووه من أن النبيّ مرّ ببيت زيد وهو غائب ، فرأى زينب ، فوقع منها في قلبه شيء ، فقال : سبحان مقلب القلوب ! فسمعت التسبيحة فنقلتها إلى زيد ، فوقع في قلبه أن يطلقها الخ . ما حكوه - فقد قال الإمام أبو بكر بن العربيّ إنه لا يصح . وإن الناقلين له المحتجين به على مزاعمهم في فهم الآية ، لم يقدرُوا مقام النبوة حق قدره ، ولم تصب عقولهم من معنى العصمة كنهها . وأطال في ذلك ، وأذكر من كلامه ما يؤيد ما ذكرنا في شأن هذه الروايات .

قال ، بعد الكلام في عصمة النبيّ صلى الله عليه وسلم وطهارته من العيب في زمن الجاهلية . وبعد أن جاء الإسلام : وقد مهدنا لك روايات كلها ساقطة الأسانيد . وإنما الصحيح^(٣)

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٣٧] . (٢) [٣٣ / الأحزاب / ٤٠] .

(٣) أخرجه البخاريّ في : ٩٧ - كتاب التوحيد ، ٢٢ - باب وكان عرشه على الماء ،

حديث ٢٠٣٢ ، عن أنس

منها ماروى عن عائشة أنها قالت: لو كان النبي صل الله عليه وسلم كاتما شيئاً من الوحي لسكتم هذه الآية^(١) (وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ) (يعنى بالإسلام (وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ) فأعتقتَه (أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ) إلى قوله (وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا) وأن رسول الله لما تزوجها قالوا: تزوج حليمة ابنه ، فأنزل الله^(٢) (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ) الآية .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم تبناه وهو صغير ، فلبث حتى صار رجلاً ، يقال له (زيد ابن محمد) . فأنزل الله^(٣) (أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ) يعنى أنه أعدل عند الله قال القاضى : وما وراء هذه الآية غير معتبر . فأما قولهم إن النبي صلى الله عليه وسلم رآها ، فوقعت في قلبه ، فباطل . فإنه كان معها في كل وقت وموضع . ولم يكن حينئذ حجاب . فكيف تنشأ معه وينشأ معها ، ويلحظها في كل ساعة ولا تقع في قلبه ، إلا إذا كان لها زوج ؟ وقد وهبته نفسها وكرهت غيره . فلم يخطر بباله . فكيف يتجدد هوى لم يكن ! حاشا لذلك القلب المطهر من هذه العلاقة الفاسدة . وقد قال سبحانه وتعالى^(٤) (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَأْمُوعَةٍ بِهِمْ أَرْوَجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْسِنَهُمْ فِيهِ) والنساء أفتن الزهراء ، وأنشر الرياحين ، فيخالف هذا في المطلقات . فكيف في المنكوحات المحبوسات ؟؟

ثم ساق الكلام في نفس الآية على حسب ماصح في الواقعة . ولولا خوف التطويل لنقلت كلامه بحروفه . سبحانه الله ! كيف ساغ لقوم مسلمين أن يعمتدوا بمثل هذه الروايات ، وقد علموا أن الله لم يدع لتبنيهِ أن يعرض عن ابن أم مكتوم ، ويتصدى لصناديد قريش طمعا في إسلامهم ، حتى عاتبه على ذلك في قوله^(٥) (عَبَسَ وَتَوَلَّى) إلى آخر الآيات ، مع أنه لم ينصرف عن الأعمى إلا لاشتغاله بما كان يعدّه في نفسه خيرا للدين ، ولم يكن رغبة في جاه ، ولا شرها إلى مال ،

- (١) [٣٣ / الأحزاب / ٣٧] . (٢) [٣٣ / الأحزاب / ٤٠] .
 (٣) [٣٣ / الأحزاب / ٥] . (٤) [٢٠ / طه / ١٣١] .
 (٥) [٨٠ / عبس / ١] .

ولا طموحا إلى لذة . فلو صحّت الرواية التي زعموها في شأن زينب ، لكان العتاب على تلك التسييحة ، بمسمع من زينب ، ثم على الزواج بعد الطلاق ، كما أشار إليه في قصة دواد عليه السلام . وما كان محمد ﷺ في علوِّ مقامه ورفعة منزلته من النبوة ، لتطمح نفسه إلى التلذذ ببنت عمته وزوجة مولاه ، ولا أن يُسمعها ما يدل على شغفه بها ، ولا أن تضعف عزيمته عن قمع شهوته وكبح جماحها . وما كان رب محمد يعمل شهوته ، ويرفقه من هواه فيما يخالف أمره ، وهو الذي نهى أن يمد عينيه إلى ما متع به الناس من زهرة الحياة الدنيا ، ومن زهرتها النساء . تسامى قدر محمد عن ذلك ، وتعالى شأن ربه عن هذا علواً كبيراً . أما والله ! لولا ما أدخل الضعفاء أو المدلسون من مثل هذه الرواية ، ما خطر ببال مطلع على الآية الكريمة شيء مما يرمون إليه . فإن نص الآية ظاهر جلي لا يحتمل معناه التأويل ، ولا يذهب إلى النفس منه إلا أن العتاب كان على التمهّل في الأمر ، والترثيب به . وأن الذي كان يخفيه في نفسه هو ذلك الأمر الإلهي الصادر إليه ، بأن يهدم تلك العادة المتأصلة في نفوس العرب ، وأن يتناول المعول لهدمها بنفسه . كما قدر له أن يهدم أصنامهم بيده لأول مرة عند فتح مكة . وكما هو شأنه في جميع ما نهى عنه من عاداتهم . وهذا الذي كان يخفيه في نفسه كان الله مبديه بأمره الذي أوحاه إليه في كتابه ، وبترويجه زوجة من كانوا يدعونه ابناً له ، كما تقدم بيانه . ولم يكن يمنعه عن إبداء ما أبدى الله ، إلا حياء الكريم ، وتوؤدة الحكيم ، مع العلم بأنه سيفعل لا محالة ، لكن مع معاونة الزمان .

ثم قال الإمام رحمه الله : أذكر لطيفة لبعض الأذكياء جرت بمحض مني لدى أحد الأساتذة الأمير كانيين ، فجاء في الحديث ذكر قوله تعالى (١) (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ) فقال الأمير كي : حتى زينب زوجة زيد بن حارثة . يشير بقوله هذا إلى تلك الحادثة ، ويعرض بعشقه ﷺ لزینب علی ما زعموا ، فقال له صاحبي : سبحان الله ! إنكم تشتغلون بعلوم السموات

(١) [٣٢ / السجدة / ٧] .

والأرض ، ولا تستعملون عقولكم في أقرب الأشياء إليكم . مع أنكم ، في المشهور عنكم ، من أشدّ الناس ولعاً بالبحث في الأديان . إن الله أمر نبيه أن يتزوج زوجة من دعاه ابناً له ، ليبيّن للناس بالفعل أنه ليس كل من لقب بالابن يكون على الحقيقة ابناً ، فإن كان المسيح قد دُعي في لسان الإنجيل بـ (الابن) فليس هذا على الحقيقة ، وإنما (الابن) الحقيقيّ من ولد من أبيه ولادة صحيحة ، إن في ذلك لذكرى للعالمين . والله أعلم . انتهى كلامه رحمه الله تعالى .

الخامس - روى الإمام أحمد^(١) ومسلم^(٢) والنسائي عن أنس قال : لما انتقضت عِدّة زينب رضی الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد بن حارثة : اذهب فاذكرها عليّ . فانطلق حتى أتاها وهي تخمّر عينيها . قال : فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها وأقول إن رسول الله ﷺ ذكرها . فوليتها ظهري ونكصت على عقبي وقلت : يا زينب ! أبشري . أرسلني رسول الله ﷺ يذكرك . قالت : ما أنا بصانعةٍ شيئاً حتى أوامر ربي عز وجل . فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن . وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن . ولقد رأيتنا ، حين دخلت على النبي ﷺ ، أطعمنا عليها الخبز واللحم .

قال الحافظ ابن حجر : : وهذا أيضاً من أبلغ ما وقع في ذلك : وهو أن يكون الذي كان زوجها هو الخاطب . لثلا يظن أحد أن ذلك وقع قهراً بغير رضاه . وفيه أيضاً اختبار ما كان عنده منها . هل بقي منه شيء أم لا؟ وفيه استحباب فعل المرأة الاستخارة ودعائها عند الخطبة قبل الإجابة . وأن من وَكَل أمره إلى الله عز وجل ، يسّر الله له ما هو الأحظّ له والأنتفع دنياً وأخرى . انتهى . أي فقد حفظ الله شرفها أن يضيع بعد زواجها بمولى . فاختار لها ما شرفها به وأسمى مكانتها ، عنايةً منه ورحمةً للأمة أيضاً .

(١) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ١٩٥ من الجزء الثالث (طبعة الحلبيّ) .

(٢) أخرجه في : ١٦ - كتاب النكاح حديث رقم ٨٩ (طبعنا) .

السادس - روى ^(١) ابن جرير عن الشعبي قال : كانت زينب رضى الله عنها تقول للنبي ﷺ : إني لأُدرِّ عليك بثلاث ، مامن نسائك امرأة تدل بهن : إن جدتي وجدك واحد : وإني أنسكحكنيك الله عز وجل من السماء . وإن السفير لجبريل عليه السلام .

وروى ^(٢) البخاريّ بعضه عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : إن زينب كانت تفخر على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فتقول : زوجكن أهاليكن ، وزوجني الله تعالى من فوق سبع سموات .

قال ابن القيم في (زاد المعاد) : ومن خصائص زينب أن الله سبحانه كان هو وليها الذي زوجها لرسوله من فوق سمواته . وتوفيت في أول خلافة عمر بن الخطاب . وكانت أولا عند زيد بن حارثة . وكان رسول الله ﷺ تبناه ، فلما طلقها زوجها الله إياها ، لتتأسى به أمته في نكاح أزواج من تبنيه . انتهى .

السابع - قالوا : لا ينقض عموم قوله تعالى (مَنْ رَجَّأَلِكُمْ) بكونه عليه الصلاة والسلام أباً للطاهر والقاسم وإبراهيم ، لأنهم لم يبلغوا الحلم . ولو بلغوا لكانوا رجالا له ، عليه الصلاة والسلام ، اللهم . انتهى .

وهذا من التعمق في البحث . وإلا فدلالة السياق أوضح من تخصيص الإضافة .

قال ابن كثير : لم يعش له عليه الصلاة والسلام ولد ذكر ، حتى بلغ الحلم . فإنه ﷺ ولد له القاسم والطيب والطاهر من خديجة رضى الله عنها . فأتوا صغاراً ، وولد له إبراهيم من مارية القبطية . فأت أيضاً رضيماً . وكان له ﷺ من خديجة أربع بنات : زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة ، رضى الله عنهن أجمعين . فأت في حياته ﷺ ثلاث . وتوفيت فاطمة بعده بستة أشهر . انتهى .

(١) انظر الصفحة رقم ١٤ من الجزء الثاني والعشرين (طبعة الحلبي الثانية)

(٢) أخرجه البخاريّ في : ٩٧ - كتاب التوحيد ، ٢٢ - باب وكان عرشه على الماء ،

حديث ٢٠٣٢ ، عن أنس

ثم أمر تعالى بكثرة ذكره ، والعناية بشكره لما منّ به من هدايته ، إلى نور شريعته حتى ينسى عار الكفر وجاهليته ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا)

[٤٢] (وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ » أى بما هو أهله من صنوف التمجيد والتحميد « ذِكْرًا كَثِيرًا » أى يعمّ الأوقات والأحوال . قال ابن عباس رضى الله عنهما . إن الله تعالى لم يفرض على عباده فريضة ، إلا جعل لها حدًّا معلومًا؛ ثم عذر أهلها في حال العذر . غير الذكر ، فإن الله تعالى لم يجعل له حدًّا ينتهى إليه . ولم يعذر أحدا في تركه إلا مغلوبًا على عقله ، وأمرهم به في الأحوال كلها . فقال تعالى^(١) (فَأَذْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ) وقال^(٢) (اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا) أى بالليل والنهار ، في البر والبحر ، وفي السفر والحضر ، والغنى والفقر ، والسقم والصحة ، والسر والعلانية ، وعلى كل حال « وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا » أى في أول النهار وآخره ، ليسرى أثر التسبيح فيهما بقية النهار والليل . لأن ذكره وتسبيحه ، يفيدان تنوير القلوب وقت خلوها عن الأشغال .

قال الزمخشري : والتسبيح من جملة الذكر . وإنما اختصه من بين أنواعه اختصاص جبريل وميكائيل من بين الملائكة ، لبيّن فضله على سائر الأذكار ، لأن معناه تنزيه ذاته ، عمّا لا يجوز عليه من الصفات والأفعال . ومثال فضله على غيره من الأذكار ، فضل وصف العبد بالنزاهة من أدناس المعاصي ، والطهر من أرجاس المآثم ، على سائر أوصافه ، من كثرة الصلاة والصيام ، والتوفر على الطاعات كلها . ويجوز أن يريد بالذكر وإكثاره ، تسكثير الطاعات

(١) [٤ / النساء / ١٠٣] . (٢) [٣٣ / الأحزاب / ٤١] .

والإقبال على العبادات . فإن كل طاعة وكل خير، من جملة الذكر. ثم خص من ذلك التسبيح بكرة وأصيلا . وهي الصلاة في جميع أوقاتها . لفضل الصلاة على غيرها . أو صلاة الفجر والعشاءين . لأن أداءها أشق ومراعاتها أشد . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا)

« هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ » استئناف جار مجرى التعليل لما قبله من الأمرين . فإن صلواته تعالى عليهم ، مع عدم استحقاقهم لها وغناه عن العالمين ، مما يوجب عليهم المداومة على ما يستوجبه تعالى عليهم من ذكره تعالى وتسبيحه . أفاده أبو السعود . وقال ابن كثير : هذا تهيب إلى الذكر . أي أنه سبحانه يذكركم فاذكروه أتم . كقوله عز وجل^(١) « كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ، آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ * فَادْكُرُونِي أذْكُرْكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ » . انتهى .

والصلاة: الرحمة والعطف . والمعنى : هو الذي يترحم عليكم ويترأف ، حيث يدعوكم إلى الخير ، ويأمركم بإكثار الذكر ، والتوفر على الصلاة والطاعة « لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ » أي ظلمة الكفر والمعاصي والشبهات ومساوى العادات « إِلَى النُّورِ » أي نور الإيمان والسنة والطاعة وعماسن الأخلاق « وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا » أي حيث لم يتركهم يتخبطون في عمياء الضلالة والجهالة ، بل أنار لهم السبل وأوضح لهم العالم . وذكروا الملائكة تنويرها بشأنهم وشأن المؤمنين . وأن الملائكة الأعلى عناية وعطفا وترحما ، بالاستغفار والدعاء

(١) [٢ / البقرة / ١٥١ و١٥٢] .

والثناء على الجميل. كقوله تعالى^(١) (الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا، رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ) الآية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ وَسَلَامٌ ، وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا)

[٤٥] (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا)

[٤٦] (وَذَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا)

«تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ وَسَلَامٌ» أى يحییون يوم لقائه، بالموت أو الخروج من القبر أو دخول الجنة، بسلام، تبشيراً بالسلامة من كل مكروه وآفة، والإضافة إيمان إضافة المصدر إلى المفعول، والمحیی لهم، إما الله جل جلاله، لقوله^(٢) (سَلَّمَ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ) تعظيماً لهم وتفضيلاً منه عليهم، كما تفضل عليهم بصنوف الإكرام، وإما الملائكة لآية^(٣) (وَأَلْمَلَأْنَا سَكَّةً بِدُخُلُونِ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَّمَ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ، فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ) أو من إضافة المصدر لفاعله. أى تحية بعضهم بعضاً بالسلام. وقد يستدل له بآية^(٤) (دَعَوْهُمْ فِيهَا نَسَبْنَا لَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ) «وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا» معنى الجنة وما حوته، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا» أى على من بعثت

(١) [٤٠ / غافر / ٩-٧] . (٢) [٣٦ / يس / ٥٨] .

(٣) [١٣ / الرعد / ٢٤ و٢٣] . (٤) [١٠ / يونس / ١٠] .

إليهم بالبلاغ « وَمُبَشِّرًا » أى بالثواب لمن آمن « وَنَذِيرًا » أى من الفار لمن كفر « وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ » أى إلى دينه وطاعته والإقرار بوحدايته « بِإِذْنِهِ » أى بأمره ووحيه « وَسِرَاجًا مُنِيرًا » أى يستضاء به فى ظلمات الجهل والغبوة ، ويهتدى بأنواره إلى مناهج الرشد والهداية.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا)

[٤٨] (وَلَا تَطِعِ الْكٰفِرِينَ وَالْمُنٰفِقِينَ وَدَعِ اٰذَنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّٰهِ ، وَكَفَىٰ بِاللّٰهِ وَكِيلًا)

[٤٩] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا ، فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَ حُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا)

« وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا » أى ثواباً عظيماً وأجرًا جزيلاً « وَلَا تَطِعِ الْكٰفِرِينَ وَالْمُنٰفِقِينَ » أى فيما يرجفون به ويعيبون من جاهليتهم وعوائدهم ، بإلانة الجانب فى التبليغ ، والمساحة فى الإنذار والتمهل فى الصدع بالحق « وَدَعِ اٰذَنَهُمْ » أى إيصال الضرر إليهم ، مجازةً لفعلهم . بل اعف واصفح . أو معناه : دع ما يؤذونك به بسبب صدعك إياهم . فالصدر مضاف إلى الفاعل على الأول ، وإلى المفعول على الثانى « وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّٰهِ وَكَفَىٰ بِاللّٰهِ وَكِيلًا » أى موكولا إليه ، وكفيلاً فيما وعدك من النصر ، ودحر ذوى الكفر « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ » أى تزوجتموهن « ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ » أى تجمعهن « فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا » أى تستوفون عددها من إحصاء أقراء ، ولا أشهر تحصونها عليهن « فَمَتَّعُوهُنَّ » أى أعطوهن ما يستمتعن به من عرض

أو عين مال «وَسِرَّ حُوهُنَّ» أى خَلَوْا سبيلهن بإخراجهن من منازلكن . إذ ليس لكن عليهن
عدّة «سَرَّاحًا جَمِيلًا» أى من غير ضرار ولا منع حق .

تنبيه :

قال ابن كثير : هذه الآية الكريمة فيها أحكام كثيرة . منها إطلاق النكاح على العقد
وحده . وليس في القرآن آية أصرح في ذلك منها . وقد اختلفوا في النكاح : هل هو حقيقة
في العقد وحده ، أو في الوطاء ، أو فيهما ؟ على ثلاثة أقوال . واستعمال القرآن ، إنما هو في
العقد والوطء بعده ، إلا في هذه الآية . فإنه استعمل في العقد وحده لقوله تعالى (إِذَا نَكَحْتُمُ
الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ) وفيها دلالة لإباحة طلاق المرأة قبل
الدخول بها . وقوله تعالى (الْمُؤْمِنَاتِ) خرج مخرج الغالب . إذ لا فرق في الحكم بين المؤمنة
والكتيبة في ذلك ، بالاتفاق . وقد استدل ابن عباس رضى الله عنهما ، وابن المسيب
والحسن البصرى وزين العابدين ، وجماعة من السلف بهذه الآية ، على أن الطلاق لا يقع إلا
إذا تقدمه نكاح ، لقوله تعالى (إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ) فعقب النكاح
بالطلاق . فدل على أنه لا يصح ولا يقع قبله . وهذا مذهب الشافعى وأحمد وطائفة كثيرة من
السلف والخلف . وأيده ماروى مرفوعاً^(١) (لا طلاق لابن آدم فيما لا يملك) رواه أحمد
وأبو داود والترمذى وابن ماجه . وقال الترمذى : هذا حديث حسن . وهو أحسن شىء
روى في هذا الباب . وهكذا روى ابن ماجه^(٢) عن علىّ والسور بن مخرمة رضى الله عنهما ،
عن النبي ﷺ : لا طلاق قبل النكاح .

(١) أخرجه أبو داود في : ١٣ - كتاب الطلاق ، ٧ - باب في الطلاق قبل النكاح ،

حديث ٢١٩٠ .

(٢) أخرجه في : ١٠ - كتاب الطلاق ، ٧ - باب لا طلاق قبل النكاح ، حديث ٢٠٤٩

و٢٠٤٨ (طبعنا) .

وقوله تعالى (فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا) هذا أمر مجمع عليه بين العلماء ، أن المرأة إذا طلقت قبل الدخول بها ، لا عدة عليها . فتذهب فتزوج في فورها من شاءت . ولا يستثنى من هذا إلا المتوفى زوجها . فإنها تمتد منه أربعة أشهر وعشرا . وإن لم يكن دخل بها ، بالإجماع أيضا . وقوله تعالى (فَمَتَّعُوهُنَّ) المتعة ههنا أعم من أن تكون نصف الصداق المسمى ، أو المتعة الخاصة إن لم يكن قد سمي لها . قال تعالى^(١) (وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنَصْفُ مَا فَرَضْتُمْ) وقال عز وجل^(٢) (لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ فَرَضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً ، وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرَهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرَهُ مِمَّا بِيَدِهِ بِالْمَعْرُوفِ ، حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ) . وعن ابن عباس : إن كان سمي لها صداقا ، فليس لها إلا النصف . وإن لم يكن سمي لها صداقا ، فامتعهما على قدر عسره ويسره ، وهو السراح الجميل . انتهى .

وعليه ، فالآية في المفوضة التي لم يسم لها . وقيل : الآية عامة . وعليه ، فقيل الأمر للوجوب ، وأنه يجب مع نصف المهر المتعة أيضا . ومنهم من قال للاستحباب ، فيستحب أن يمتعهما مع الصداق بشيء .

لطيفة:

قال الرازي : وجه تعلق الآية بما قبلها ، هو أن الله تعالى في هذه السورة ، ذكر مكارم الأخلاق ، وأدب نبيه على ما ذكرناه . لكن الله تعالى أمر عباده المؤمنين بما أمر به نبيه المرسل ، فكما ذكر للنبي مكرمة ، وعلمه أدبا ، ذكر للمؤمنين ما يناسبه . فكما بدأ الله في تأديب النبي ﷺ بذكر ما يتعلق بجانب الله ، بقوله^(٣) (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ) وثني بما يتعلق بجانب العامة بقوله^(٤) (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا) كذلك بدأ

(١) [٢ / البقرة / ٢٣٧] . (٢) [٢ / البقرة / ٢٣٦] .

(٣) [٣٣ / الأحزاب / ١] . (٤) [٣٣ / الأحزاب / ٤٥] .

في إرشاد المؤمنين بما يتعلق بجانب الله فقال^(١) (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللّٰهَ ذِكْرًا كَثِيرًا) ثم نثني بما يتعلق بجانب من تحت أيديهم بقوله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ) ثم ، كما نلت في تأديب النبي بجانب الأمة ، نلت في حق المؤمنين بما يتعلق بجانب نبيهم ، فقال بعد هذا^(٢) (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ) وبقوله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ) . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِيُكَوِّنَ عَلَيْكَ حَرْجٌ ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا)

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ » أي مهورهن فإنها أجور الأبضاع . وإيتاؤها ، إما إعطاؤها معجلة ، أو تسميتها في العقد . وكان التعجيل ديدن السلف وستهم ، وما لا يعرف بينهم غيره .

قال ابن كثير : كان مهر النبي ﷺ لفسائه اثنتي عشرة أوقية ونشأ . وهو نصف أوقية . فالجميع خمسمائة درهم . إلا أم حبيبة بنت أبي سفيان فإنه أمهرها عنه النجاشي رحمه الله تعالى أربعمائة دينار . وإلا صفية بنت حيي فإنه اصطفاها من سبي خيبر ثم أعتقها وجعل عتقها صداقها .

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٤١] . (٢) [٣٣ / الأحزاب / ٥٣] .

وكذلك جويرية بنت الحارث المطلقية أدى عنها كتابتها إلى ثابت بن قيس وتزوجها. رضى الله عنهن . انتهى .

وتقييد الإحلال له عليه الصلاة والسلام بإعطاء المهور، ليس لتوقف الحل عليه. ضرورة أنه يصح العقد بلا تسمية . ويجب مهر المثل أو المتعة على تقديرى الدخول وعدمه . بل لإيثار الأفضل والأولى له عليه الصلاة والسلام . كتقييد إحلال الملوكة بكونها مسبية ، فى قوله تعالى « وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ » فإن المشترأة لا يتحقق بدء أمرها وما جرى عليها .

قال ابن كثير : أى وأباح لك الترسى مما أخذت من المغانم . وقد ملك صفية وجويرية فأعتقهما وتزوجهما . وملك ربحانة بنت شمعون النضرية ومارية القبطية أم ابنه إبراهيم عليه السلام ، وكاتتا من السرارى، رضى الله عنهما « وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَالَتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ » أى من مكة ، إلى المدينة . والتقييد لبيان الأفضل كما تقدم . ولهم فى أفراد العم والخال وجمع العممة والخالة ، عدة أوجه . فيها اللطيف والضعيف . وعندى أن الأفراد والجمع تابع لقتضى السبك والنظم ورقة التعبير ورشاقة التأدية . كما يدرىه من يذوق طعم بلاغة القول ، ويشرب من عين فصاحته . فالأفراد فيهما هنا أرق وأعذب من الجمع . كما أن فى آية^(١) (بِيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بِيُوتِ عَمَّتِكُمْ) أمتن وأبلغ من الأفراد . ولكل مقام مقال . ولكل مجال حال « وَأَمْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا » . أى يتزوجها ويرغب فى قبول هبة نفسها بدون مهر . وقد سمي من الواهبات ميمونة بنت الحارث وزينب بنت خزيمه أم الساكن الأنصارية وأم شريك بنت جابر وخولة بنت حكيم رضى الله عنهن .

(١) [٢٤ / النور / ٦١] .

وفي البخارى^(١) عن عائشة قالت : كنت أغار من اللأئى وهبن أنفسهن للنبي ﷺ وأقول : أتهب المرأة نفسها ؟ فلما أنزل الله تعالى^(٢) (تُرْجَى مِنْ تَشَاءِ مَنْهِنَّ وَتُؤْوَى إِلَيْكَ مِنْ تَشَاءِ) الآية - قلت ما أرى ربك إلا يسارع في هواك .

وعن ابن عباس ، أنه لم يكن عنده ﷺ امرأة وهبت نفسها له . أى أنه لم يقبل ذلك وإن كان مباحا له . لأنه مردود إلى إرادته . والله أعلم .

قال ابن القيم : وأما من خطبها ﷺ ولم يتزوجها ، ومن وهبت نفسها له ولم يتزوجها ، فنحو أربع أو خمس . وقال بعضهم : هن ثلاثون امرأة . وأهل العلم بالسيرة وأحواله ﷺ ، لا يعرفون هذا بل ينكروونه .

قال أبو السعود : وإرادته عليه الصلاة والسلام في الموضوعين بعنوان النبوة بطريق الالتفات ، للتكرمة والإيدان بأنها المناط لثبوت الحكم فيختص به عليه السلام حسب اختصاصها به كما ينطبق به قوله تعالى « خَالِصَةً لَكَ » أى خلص لك إحلالها خالصة أى خلوصا ، فهى مصدر مؤكد ، أو صفتة أى هبة خالصة « مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ » أى فإنهم لا تحمل لهم الموهوبة إلا بوليٍّ ومهر ، خوف أن يستسرى النساء وينتشر الفحش بدعوى ذلك . قال قتادة : ليس لامرأة تهب نفسها لرجل ، بغير وليٍّ ولا مهر ، إلا للنبي ﷺ « قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ » أى على المؤمنين « فِي آزْوَاجِهِمْ » أى فى حللها من الولي والشهود والمسمى « وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ » أى فى حللها من توسيع الأمر فيها .

وقال السيوطي في (الإكليل) : فسر بالاستبراء . وليس له فى القرآن ذكر إلا ههنا . « لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ » أى ضيق . واللام متعلقة بـ (خالصة) أو بفعل يفهم

(١) أخرجه البخارى في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٣٣ - سورة الأحزاب ، ٧ - باب

قوله ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء ، حديث ٢٠٣٣ .

(٢) [٣٣ / الأحزاب / ٥١] .

مما قبله . أى قد علمنا ما فرضنا عليهم ، وأسقطناه عنك لرفع الحرج عنك والضيق ، فيما اقتضته الحكمة والعناية بك « وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا » أى يغفر ما يعسر التحرز عنه ، ويرحم فيما يوسع في مواقع الحرج .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (تَرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ ، وَمَنْ أُبْتَغِيَتْ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ، ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقْرَأَ عَمِيحُنَّ وَلَا يُحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْنَهُنَّ كُلَّهُنَّ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا)

« تَرْجِي » بهمز وغير همز . أى تترك وتؤخر « مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ » أى من هؤلاء النساء اللاتى أحللناهن لك ، فلا تزوج بهن « وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ » أى تضم من تشاء منهن بالتزوج « وَمَنْ أُبْتَغِيَتْ مِمَّنْ عَزَلْتَ » أى اخترت تزوجها بعد إزائها « فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ » أى فى أن تضمها إليك . ومن رأى بعضهم أن الضمير فى (منهن) يعود إلى الواهبات . قال الشعبي : كن نساء وهبن أنفسهن للنبي ﷺ : فدخل ببعضهن وأرجأ ببعضهن . لم يفكحن بعده . منهن أم شريك . واستؤنس بحديث عائشة عند أحد ؛ أنها كانت تعبر النساء اللاتى وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ وتقول : ألا تستحي المرأة أن تعرض نفسها بغير صداق ؟ فلما أنزل الله (تَرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ) الآية قالت : إني أرى ربك يسارع لك فى هواك . ورواه البخارى^(١) أيضا كما تقدم . وذهب آخرون إلى أن معنى الآية : تطلق وتختل سبيل من شئت من نسائك ، وتمسك من شئت منهن فلا تطلق . وعن قتادة ؛ أنها فى القسم ، وأنه أن يقسم لمن شاء ، ويدعه لمن شاء . مع هذا فلم يكن ﷺ يدع القسم . وقد احتج بالآية من ذهب إلى

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٣٣ - سورة الأحزاب ، ٧ - باب

قوله تَرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ ، حديث رقم ٢٠٣٣ ، عن عائشة .

أن القسم لم يكن واجبا عليه ﷺ . والتحقيق أن الآية عامة في ذلك كله . وأن ما روى مما ذكر ، فمن باب الاكتفاء من العام على بعض أفراده ، أو من رأى ذهب إليه قائله . وقوله تعالى « ذَلِكَ » أى ما ذكر من تفويض الأمر إلى مشيئتك ورفع الحرج عنك فيه « أَذْنَىٰ أَنْ تَقْرَأَ أَعْيُنُهُنَّ » أى تطيب أنفسهن ، إن علمن أن ذلك من الله تعالى « وَلَا يَحْزَنَنَّ » لمخالفة الإرجاء « وَيَرْضَيْنَ بِمَآءٍ آتَيْنَهُنَّ كُفًهُنَّ » أى لأنه حكم ، كلهن فيه سواء ، فإن سويت بينهن وجدن ذلك تفضلا . وإلا علمن أنه بحكم الله تعالى . فتطمئن به نفوسهن « وَاللَّهُ يُعَلِّمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ » أى من الميل إلى البعض منهن دون البعض بالحجة « وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا » أى بذات الصدور « حَلِيمًا » أى ذا حلم عن عباده فيعفو ويغفر . وروى الإمام أحمد^(١) وأهل السنن^(٢) عن عائشة ؛ أن رسول الله ﷺ كان يقسم بين نسائه فيعدل . ثم يقول : اللهم ! هذا فعلى فيما أملك ، فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك . يعنى القلب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَهْبَبْتَ حُسْنَهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا)

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ١٤٤ من الجزء السادس (طبعة الحلبي)

(٢) أخرجه أبو داود فى : ١٢ - كتاب النكاح ، ٣٨ - باب فى القسم بين النساء ،

حديث رقم ٢١٣٤

وأخرجه الترمذى فى : ٩ - كتاب النكاح ، ٤٢ - باب ما جاء فى التسوية بين الزوجات ،

حديث رقم ١١٤٠

وأخرجه النسائى فى : ٣٦ - كتاب عشرة النساء ، ٢ - باب ميل الرجل إلى بعض نسائه

دون بعض

وأخرجه ابن ماجه فى : ٩ - كتاب النكاح ، ٤٧ - باب القسمة بين النساء ، حديث

رقم ١٩٢١ (طبعتنا)

« لَا يَجِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ » أى من بعد النساء اللاتي نصّ إحلالهن لك فى الآية قبل . وانظر إلى تكريمه تعالى لنبيه صلوات الله عليه حيث لم يقل له (وحرّم عليك ما وراء ذلك) كما خاطب المؤمنين بنظيره ، لتعلم كيف تتفاوت الناس بالخطاب تفاوتهم فى ربيع الدرجات .

ولم أر أحداً نبه على ذلك ، فأحرص عليه فيه وفى أمثاله .

قال مجاهد فى الآية : أى لا يجمل لك يهودية ولا نصرانية ولا كافرة « وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَكَتَ بِمِثْلِكَ » أى فلك التسرّى بهن وإن كن كتابيات أو مشركات ، لأنه ليس لهن ما للحرائر « وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَاقِبًا » أى حيث أحل ما أحل وحرّم ما حرّم للنبي وللأمة ، فى بيان لإخفاء معه وحكمة لآخيف معها . وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن معنى الآية هو حظر نكاح ما بعد التسع اللاتي عندهن عند رسول الله . وأن التسع نصابه كالأربع لغيره ، وأن ذلك جزاء لاختيارهن إياه لما خيّرهن . كما تقدم فى الآية . ثم قالوا إنه تعالى رفع الحرج عنه فى ذلك ، ونسخ حكم هذه الآية ، وأباح له التزوج ، ولكنه لم يفعله إتماماً للمنة عليهن . ومنهم من قال إنها محكمة . وكل ذلك لا برهان معه ، وتفكيك للمعنى ، وغفلة عن سر تكريمه صلوات الله عليه بمقصود الخطاب . وقد وهم فى هذا المعنى زياد - رجل من الأنصار - فردّه أبى رضى الله عنه ، إلى صواب المعنى . وذلك فيما رواه عبد الله بن أحمد وابن ^(١) جرير ؛ أن زياداً قال لأبى بن كعب : رأيت لو أن أزواج النبي صلى الله عليه وآله توفّين ، أما كان له أن يتزوج ؟ فقال : وما بمنعمه من ذلك ؟ قال : قوله تعالى (لَا يَجِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ) فقال له : إنما أحل الله له ضرباً من النساء . فقال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ ، - إلى قوله - إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ) ثم قيل له (لَا يَجِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ) .

(١) انظر الصفحة رقم ٢٩ من الجزء الثانى والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

وروى الترمذى^(١) عن ابن عباس قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أصناف النساء إلا ما كان من المؤمنات المهاجرات ، بقوله تعالى (لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ) الآية . فحرم كل ذات دين غير الإسلام .

والطلع على ما كتبوه هنا ، يأخذه العجب من البعد عن مقصدها . فالحمد لله على إلهام الحق وتعليمه .

تنبيه :

قال في (لباب التأويل) : في قوله تعالى (وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ) دليل على جواز النظر من الرجل إلى التي يريد نكاحها من النساء . ويدل عليه ما روى عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا خطب أحدكم المرأة ، فإن استطاع أن ينظر إلى ما يدعوه إلى نكاحها ، فليفعل . أخرجه أبو داود^(٢) .

وروى^(٣) مسلم عن أبي هريرة ؛ أن رجلاً أراد أن يتزوج امرأة من الأنصار . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم انظر إليها فإن في عين الأنصار شيئاً . قال الحميدى : يعنى هو الصَّغْرُ . وعن المغيرة بن شعبة قال : خطبتُ امرأةً . فقال لى النبي صلى الله عليه وسلم : هل نظرتَ إليها ؟ قلت : لا . قال : فانظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما . أخرجه الترمذى^(٤) وحسنه .

(١) أخرجه الترمذى في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٣٣ - سورة الأحزاب ، ١٨ - حدثنا

عبد . حدثنا روح عن عبد الحميد .

(٢) أخرجه في : ١٢ - كتاب النكاح ، ١٨ ، - باب في الرجل ينظر إلى المرأة وهو يريد

تزوجها ، حديث ٢٠٨٢ .

(٣) أخرجه في : ١٦ - كتاب النكاح ، حديث رقم ٧٤ (طبعتنا) .

(٤) أخرجه في : ٩ - كتاب النكاح ، ٥ باب ما جاء في النظر إلى المحظوبة ، حديث رقم ١٠٨٧

القول في تأويل قوله تعالى :

[۵۳] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَظِيرٍ ءِإِنَّهُ وَلَكِنَّ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ، إِنْ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيُّ فَيَسْتَحْيِي عَمِنكُمْ ، وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي عَمِنَ الْحَقِّ ، وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ، ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ، وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكِحُوا زُوجَهُو مِن بَعْدِهِ ءَأَبْدًا ، إِنْ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَظِيرٍ ءِإِنَّهُ » هذا خطاب لبعض الصحب، وحظر عليهم أن يدخلوا منازلهم بغير إذن. كما كانوا قبل ذلك يصنعون في بيوتهم في الجاهلية وابتداء الإسلام. (والى) متعلق بـ (يؤذن) بتضمين معنى الدعاء ، للإشعار بأنه لا ينبغي أن يدخلوا على الطعام بغير دعوة ، وإن تحقق الإذن . كما يشعر به قوله تعالى (غَيْرَ نَظِيرٍ ءِإِنَّهُ) أى غير منتظرين وقته ، وإدراكه . قال ابن كثير : أى لا ترقبوا الطعام إذا طبخ، حتى إذا قارب الاستواء تعرضتم للدخول. فإن هذا مما يكرهه الله ويذمه . وهذا دليل على تحريم التطفل . وهو الذى تسميه العرب الضيفن . وقد صنف الخطيب البغدادى فى ذلك كتابا فى ذم الطفيليين . وذكر من أخبارهم أشياء يطول إيرادها . انتهى .

وأقول : قد يكون معنى قوله (غَيْرَ نَظِيرٍ ءِإِنَّهُ) نهيا لهم أن يدخلوا - مع كونهم مأذونا لهم ومدعويين - قبل الميعاد المضروب لهم حضورهم فيه ، عجلة وانتظاراً لنضج الطعام.

فإن ذلك مما يؤدي قلب صاحب الدعوة ، لشغل هذه الحصّة معهم بلا فائدة ، إلا ضيق صدر الداعي وأهله، وشغل وقته وتوليد حديث، وتكلفاً للكلام لضرورة له، وإطالة زمن الحجاب على نسائه . وما ذلك إلا من شؤم التعجيل قبل الوقت . ولذلك قال تعالى « وَ لَكِنَّ إِذَا دُعِيتُمْ فَأَدْخُلُوا » أي إذا دعيتم إلى الدخول في وقته . فادخلوا فيه لاقبله ولا بعده . (لمكن) استدراك من النهي عن الدخول، مع الإذن المطلق الذي هو الدعوة بتعليم أدب آخر . وإفادة شرط مهم ، وهو الإشارة إلى أن للدعوة حيناً ووقتاً يجب أن يراعى زمنه . وهذا النهي عنه لم يزل يرتكبه ثقلاء القرويين ومن شا كلهم من غطاء المسنين الذين لم يتأدبوا بأداب الكتاب الكريم والسنة المطهرة . وهو أنهم إذا دعوا لتناول طعام يتعجلون المحيء قبل وقته بساعات ، مما يغمّ نفس الداعي وأهله . ويذهب لهم جانباً من عزيز وقتهم عبثاً إلا في سماع حديثهم البارد . وخدمتهم المستكرهه كما قدمنا . فعلى ما ذكرناه يكون في الآية فائدة جميلة ، وحكم مهم . وهو حظر المحيء قبل الوقت المقدّر . وحينئذ فكلمة (غير) حال ثانية من الفاعل مقيدة للدخول المأذون فيه . وهو أن يكون وقت الدعوة ، لاقبله . والتقدير (إلا مأذونين في حال كونكم غير ناظرين إناه) ولذا قيل : إنها آية الثقلاء . إذا علمت هذا ، فالأجدر استنباط حظر التطفل من صدر الآية ، وهو (لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ) ومن قوله (وَ لَكِنَّ إِذَا دُعِيتُمْ فَأَدْخُلُوا) لا من قوله (غَيْرَ نَظِيرِينَ إِنَّهُ) لأنه في معنى خاص . وهو ما ذكرناه والله أعلم .

فائدة :

(الإنبي) مصدر . يقال أتى الشيء يأتي أي أتى بالفتح . و(أنى) مفتوحاً مقصوراً . (وإني) بالكسر مقصوراً . أي حان وأدرك . قال عمرو بن حسان :

تَمَحَّضَتِ الْمُنُونُ لَهُ بِيَوْمٍ أَنَّى وَلِكُلِّ حَامِلَةٍ تَمَامٌ

ثم أشار سبحانه إلى أدب آخر بقوله تعالى « فَأِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا » أي تفرقوا ولا

تمكثوا « وَلَا مُسْتَسِينِينَ لِحَدِيثٍ » أى لحديث بعضهم بعضاً، أو لحديث أهل البيت بالتسمع له. عطف على (ناظرين) أو مقدر بفعل. أى لا تمكثوا مستأنسين « إِنْ ذَلِكُمْ » أى المنهى عنه فى الآية « كَانَ يُؤْذَى النَّبِيُّ » أى لتضييق المنزل عليه وعلى أهله وإشغاله بما لا يعنيه « فَيَسْتَحْيِ عَنِ مَنِكُمْ » أى من الإشارة إليكم بالانتشار « وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِ عَنِ مَنَ الْحَقِّ » يعنى أن انتشاركم حق. فينبغى أن لا يترك حياءً ، كما لا يتركه الله ترك الحياء ، فأمركم به . ووضع الحق موضع الانتشار، لتعظيم جانبه . وقرئ (لَا يَسْتَحْيِ) بحذف الياء الأولى وإلقاء حركتها على الحاء « وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ » الضمير لنساء النبي ، المدلول عليهن بذكر بيوته عليه السلام « مَتَمَّعًا » أى شيئاً يتمتع به « فَسَأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ » أى ستر « ذَلِكُمْ » أى ما ذكر من عدم الدخول بغير إذن ، وعدم الاستئناس للحديث عند الدخول ، وسؤال المتاع من وراء حجاب « أَطَهَّرُ لِقَاؤِ بَكُمُ وَقُلُوبِهِنَّ » أى من الخواطر الشيطانية ، فى الميل إليهن وإليكم . يعنى ويجب التطهر عنه ، لما فيه من إيذاء رسول الله ﷺ . ولذا قال « وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ » أى أن تفعلوا فعلاً يتأذى به فى حياته « وَلَا أَنْ تَنَكِّحُوا أَزْوَاجَهُ وَمِنْ أَعْبَادِهِ » أى من بعد وفاته لا إلى انقضاء العدة بل « أَبَدًا إِنْ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا » أى أمراً عظيماً وخطباً هائلاً ، لا يقادر قدره. لما فيه من هتك حرمة حبيبه صلى الله عليه وسلم .

قال أبو السعود : وفيه من تعظيمه تعالى لشأن رسوله صلى الله عليه وسلم ، وإيجاب حرمة حياً وميتاً ، مالا يخفى . ولذلك بالغ تعالى فى الوعيد حيث قال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ تُخَفُّوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا)

« إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا » أى مما لا خير فيه ، كنفكاحهن على ألسنتكم ، على ما روى عن بعض الجفاة « أَوْ تُخَفُّوهُ » أى فى نفوسكم « فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا » أى فيجازيكم

بما صدر عنكم من المعاصي البادية والخافية لا محالة. وفي هذا التعميم مع البرهان على المقصود، مزيد تهويل وتشديد ومبالغة في الوعيد .

قال ابن كثير : أجمع العلماء قاطبة على أن من توفي عنها رسول الله ﷺ من أزواجه ، أنه يحرم على غيره تزوجها من بعده. لأنهن أزواجه في الدنيا والآخرة، وأمهات المؤمنين. واختلفوا فيمن دخل بها ثم طلقها في حياته . هل يحل لغيره أن يتزوجها؟ على قولين. مأخذها هل دخلت هذه في عموم قوله (مِنْ بَعْدِهِ) أم لا؟ فأما من تزوجها ثم طلقها قبل أن يدخل بها، فما نعلم في حلها لغيره ، والحالة هذه نزاعا والله أعلم . انتهى .

تنبيه :

في (الإكليل) : هذه آية الحجاب التي أمر بها أمهات المؤمنين . بعد أن كان النساء لا يحتجبن. وفيها جواز سماع كلامهن ومخاطبتهن . وفيها تحريم أذى النبي صلى الله عليه وسلم بسائر وجوه الأذى . انتهى .

وقال ابن كثير : هذه آية الحجاب . وفيها أحكام ، وآداب شرعية . وهي مما وافق تنزيلها قول عمر رضي الله عنه ، كما روى البخاري^(١) عنه أنه قال : يا رسول الله ! يدخل عليك البر والفاجر . فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب ! فأنزله الله آية الحجاب . وكان يقول لو أطاع فيكن ، ما رأتهن عين .

وكان وقت نزولها في صبيحة عرس رسول الله صلى الله عليه وسلم بزَيْنَب بنت جحش ، التي تولى الله تزويجها بنفسه تعالى . وكان ذلك في ذي القعدة من السنة الخامسة (في قول قتادة والواقدي وغيرهما) وزعم أبو عبيدة ، معمر بن المثنى ، وخليفة بن خياط ؛ أن ذلك كان في سنة ثلاث . فإله أعلم .

(١) أخرجه في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٣٣ - سورة الأحزاب ، ٨ - باب قوله لا تدخلوا

بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم ، حديث رقم ٢٦٧ .

وروى البخارى^(١) عن أنس قال: لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش، دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون. فإذا هو يتهمياً للقيام فلم يقوموا. فلما رأى ذلك قام. فلما قام، قام من قام وقعد ثلاثة نفر. فجاء النبي ﷺ ليدخل فإذا القوم جلوس. ثم إنهم قاموا فانطلقوا. فجئت فأخبرت النبي صلى الله عليه وسلم أنهم قد انطلقوا. فجاء حتى دخل. فذهبت أدخل، فألقى الحجاب بيني وبينه، فأنزل الله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ) الآية .

ورواه مسلم^(٢) أيضاً والنسائي .

وعن أنس أيضاً قال : بنى على النبي ﷺ زينب بنت جحش، بخبز ولحم . فأرسلت على الطعام داعياً . فيجىء قوم فيأكلون ويخرجون، ثم يجىء قوم فيأكلون ويخرجون فدعوت حتى ما أجد أحداً أَدعو . فقلت : يا رسول الله ! ما أجد أحداً أَدعوه . قال : ارفعوا طعامكم . وبقي ثلاثة رهط يتحدثون في البيت . فخرج النبي ﷺ ، فانطلق إلى حجرة عائشة رضى الله عنها فقال : السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته . قالت : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته . كيف وجدت أهلك ؟ يا رسول الله ! بارك الله لك .

فمقرتني حجر نسائه كلهن . يقول لهن كما يقول لعائشة، ويقبلن له كما قالت عائشة . ثم رجعت النبي ﷺ فإذا ثلاثة رهط في البيت يتحدثون . وكان النبي ﷺ شديد الحياء . فخرج منطلقاً نحو حجرة عائشة . فما أدري أخبرتهُ أو أخبر ، أن القوم خرجوا . فرجع ، حتى إذا وضع رجله في أسكفة الباب داخلة ، والأخرى خارجة ، أرخى الستر بيني وبينه، وأنزلت آية الحجاب . انقرد به البخارى^(١) .

وأخرج نحوه مسلم والترمذي . كما بسطه ابن كثير .

(١) أخرجه في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٣٣ - سورة الأحزاب ، ٨ - باب قوله لا تدخلوا

بيوت النبي ﷺ إلا أن يؤذن لكم ، حديث رقم ٢٠٣٥

(٢) أخرجه في : ١٦ - كتاب الفكاح ، حديث ٨٧ م (طبعتنا)

قال الحافظ ابن حجر في (الفتح): قال عياض: فرض الحجاب مما اختصصن به. فهو فرض عليهن بلا خلاف، في الوجه والكفين، فلا يجوز لهن كشف ذلك في شهادة ولا غيرها. ولا إظهار شخوصهن وإن كن مستترات، إلا مادعت إليه ضرورة من براز. ثم استدل بما في (الموطأ) أن حفصة لما توفي عمر سترها النساء عن أن يرى شخصها. وأن زينب بنت جحش جعلت لها القبة فوق نعشها يستر شخصها. انتهى.

وليس فيما ذكره دليل على مادعاه من فرض ذلك عليهن. وقد كن بعد النبي ﷺ يحججن ويطنن. وكان الصحابة ومن بعدهم يسمعون منهن الحديث، وهن مستترات الأبدان لا الأشخاص. وقد تقدم في الحج قول ابن جريج لعطاء، لما ذكر له طواف عائشة: أقبل الحجاب أو بعده؟ قال قد أدركت ذلك بعد الحجاب. انتهى.

ومما يؤيده ما رواه البخاري^(١) في التفسير عن عائشة رضي الله عنها. قالت: خرجت سودة بعد ما ضرب الحجاب لحاجتها. وكانت امرأة جسيمة، لا تخفى على من يعرفها. فرآها عمر بن الخطاب. فقال: يا سودة! أما والله! ما تخفين علينا. فانظري كيف تخرجين.

قالت: فأنكفت راجعة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتي، وإنه ليتعشى وفي يده عرق، فدخلت فقالت: يا رسول الله! إني خرجت لبعض حاجتي، فقال لي عمر كذا وكذا. قالت فأوحى الله إلي ثم رفع عنه، وإن العرق في يده ما وضعه، فقال: إنه قد أذن لكن أن تخرجن لحاجتكن.

قال الكرماني: فإن قلت وقع هنا أنه كان بعد ما ضرب الحجاب وفي الوضوء - أي من البخاري - أنه كان قبل الحجاب. فالجواب لعله وقع مرتين.

(١) أخرجه في: ٦٥ - كتاب التفسير، ٣٣ - سورة الأحزاب، ٨ - باب قوله لا تدخلوا

بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام حديث رقم ١٢٣

قال ابن حجر : قلت بل المراد بالحجاب الأول غير الحجاب الثاني .
والحاصل أن عمر رضى الله عنه وقع في قلبه نفرة من اطلاع الأجنب على الحرم النبوي ،
حتى صرح بقوله له عليه الصلاة والسلام : احجب نساءك ، وأكد ذلك إلى أن نزلت آية
الحجاب . ثم قصد بعد ذلك أن لا يبدن أشخاصهن أصلاً ، ولو كن مستترات ، فبالغ في ذلك
فنع منه ، وأذن لمن في الخروج لحاجتهن ، دفعا للمشقة ، ورفعاً للحرج ، انتهى بحروفه . وإنما
نقلنا الجمع بين الروایتين ، مع أن الأمسّ به شرح الصحيح ، لما اتفق من نقل كثير من المفسرين
إحدى الروایتين ونقل آخرين الثانية ، مما يوقع الواقف في شبهة الاختلاف ، فأثرنا توسيع
الكلام لتحقيق المقام . زادنا الله من فضله علما ، إنه هو العليم العالم .
ثم بين تعالى من لا يجب الاحتجاب منهم من الأقارب ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أبنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا
أبنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ،
وَأَتَقِينَ اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا)
« لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أبنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا
أبنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ » أي لا حرج ولا إثم عليهن ، في أن لا يحتجبن من هؤلاء
المسّمين .

قال الطبري^(١) : وعُنِيَ بِ(إخوانهن وأبناء إخوانهن) إخوانهن . وأبناء إخوانهن . وخرج
معهم جمع ذلك ، مخرج جمع فتى إذا جمع (فتيان) فكذلك جمع أخ إذا جمع (إخوان) وأما
إذا جمع إخوة فذلك نظير جمع فتى إذا جمع (فتية) .

(١) انظر الصفحة رقم ٤٢ من الجزء الثاني والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

تنبيهات

الأول - قيل : إنما لم يذكر العم والخال ، لأنهما بمنزلة الوالدين . ولذلك سمي العم أبا في قوله تعالى ^(١) (وَإِلَّا لَهٗ أَبَآبُكَ إِبرَاهِيمَ -مَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ) أولأنه اكتفى عن ذكرهما بذكر أبناء الإخوة، وأبناء الأخوات. فإن مناط عدم لزوم الاحتجاب بينهما وبين الفريقين، عين ما بينهما وبين العم والخال من العمومة والخوولة . لما أنهن عمات لأبناء الإخوة ، وخالات لأبناء الأخوات . وقيل : لأنه كره ترك الاحتجاب منهما ، مخافة أن يصفاهن لأبنائهما .

وهو رأى عكرمة والشعبي . كما أخرجه الطبري ^(٢) من طريق داود بن أبي هند عن عكرمة والشعبي أنه قال لهما : ما شأن العم والخال لم يذكر ؟ قالا : لأنهما يتعمنانها لأبنائهما . وكرها أن تضع نمارها عند خالها وعمها .

قال الشهاب : لكنه قيل عليه ، إن هذه العلة ، وهو احتمال أن يصفأ لأبنائهما وهما يجوز لهما التزوج بها ، جار في النساء كلهن ، ممن لم يكن أمهات محارم . فينبغي التعويل على الأول . انتهى .

والتحقيق في رده ما رواه البخاري ^(٣) في التفسير من طريق عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت : استأذن على أفلح أخو أبي القعيس ، بعد ما أتزل الحجاب ، فقلت : لا آذن له حتى أستأذن فيه النبي صلى الله عليه وسلم . فإن أخاه أبا القعيس ليس هو أرضعني ، ولكن أرضعتني امرأة أبي القعيس . فدخل على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقلت له : يا رسول الله ! إن أفلح أخا أبي القعيس

(١) [٢ / البقرة / ١٣٣] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٤٢ من الجزء الثاني والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٣) أخرجه في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٣٣ - سورة الأحزاب ، ٩ - باب قوله إن

تبدوا شيئاً أو تخفوه ، حديث ١٢٨٣ .

استأذن . فأبيت أن أذن حتى أستأذنك، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: وما منعك أن تأذني؟ عمك . قلت: يارسول الله! إن الرجل ليس هو أَرْضَعَنِي، ولكن أَرْضَعْتَنِي امرأة أبي القعيس، فقال: ائذني له فإنه عمك، تربت يمينك .

قال عروة: فلذلك كانت عائشة تقول: حرموا من الرضاعة ما تحرمون من النسب انتهى فبقوله صلى الله عليه وسلم^(١) (ائذني له فإنه عمك) مع قوله في الحديث الآخر^(٢) (العم صنو الأب) يرد على عكرمة والشعبي .

الثاني - قيل: أريد بقوله تعالى (وَلَا نِسَاءَ يَهُودٍ) المسلمات، حتى لا يجوز للكتبايات الدخول على أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل هو عام في المسلمات والكتبايات . وإنما قال (وَلَا نِسَاءَ يَهُودٍ) لأنهن من أجناسهن .

الثالث - استدل بعموم قوله تعالى (وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ) مَنْ ذَهَبَ إِلَى أَنْ عَبْدِ الْمَرْأَةَ مُحْرَمٌ لَهَا . وذهب قوم إلى أنه كالأجانب . والآية مخصوصة بالإماء دون العبيد، وتقدم تفصيل ذلك في سورة النور .

الرابع - قال السيوطي في (الإكليل) : استدل الحسن والحسين بعدم ذكر أبناء العمومة فيها، على تحريم نظرهما إليهن، فكانا لا يدخلان عليهن «وَأَتَقَيْنَ اللَّهَ» أى أن تتعبدن ما حدث لكن، فتبدين من زينتك ما ليس لكن، أو تتركن الحجاب فيما كن أحد غير هؤلاء . وقال الرازي : أى واتقينه عند المالك . قال، ففيه دليل على أن التكشف لهم مشروط بشرط السلامة والعلم بعدم المحذور . وقوله تعالى «إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا» أى فهو

(١) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٣٣ - سورة الأحزاب ، ٩ - باب

قوله إِنَّ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ تَخْفَوْهُ، حديث رقم ١٢٨٣ .

وأخرجه مسلم في : ١٧ - كتاب الرضاع ، حديث ٣-٦ (طبعنا) .

(٢) أخرجه مسلم في : ١٢ - كتاب الزكاة ، حديث رقم ١١ (طبعنا) .

شاهد على ماتعملنه من احتجابكن وتركنن الحجاب لمن أبيض لكن تركه ، وغير ذلك من أموركن ، فاحذرن أن تلقينه . وهو شاهد عليكم بمعصيته وخلاف أمره ونهيه فتهلكن . قال الرازى : هذا التذليل فى غاية الحسن فى هذا الموضع ، لأن ماسبق إشارة إلى جواز الخلوة بهم والتكشف لهم ، فقال : إن الله شاهد عند اختلاء بعضكم ببعض . فخلوتكم مثل ملتكم بشهادة الله تعالى فاتقوا . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا)

«إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا» قال الرازى : لما أمر الله المؤمنين بالاستئذان وعدم النظر إلى وجوه نساءه احتراماً ، كمل بيان حرمة . وذلك لأن حالته منحصرة فى اثنتين : حالة خلوته وذكر مايدل على احترامه فى تلك الحالة بقوله ^(١) (لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ) وحالة يكون فى ملاء . والملاء إما الملاء الأعلى وإما الملاء الأدنى ، أما فى الملاء الأعلى فهو محترم . فإن الله وملائكته يصلون عليه . وأما فى الملاء الأدنى فذلك واجب الاحترام بقوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) انتهى .

وقد روى البخارى ^(٢) عن أبى العالمة قال : صلاة الله : ثناؤه عليه عند الملائكة . وصلاة الملائكة الدعاء . وقال ابن عباس : يصلون يُبرِّكون . أى يدعون له بالبركة . فىوافق قول

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٥٣] .

(٢) أخرجه البخارى فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٣٣ - سورة الأحزاب ، ١٠ - باب إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ .

أبي العالية، لكنه أخص منه. وبالجملة، فالصلاة تكون بمعنى التمجيد والدعاء والرحمة، على حسب ما أضيفت إليه في التنزيل أو الأثر. وقد أطنب الإمام ابن القيم في (جلاء الأفهام) في مبحث معنى الصلاة، وأطال فأطاب. فليُنظر.

وفي البخاري^(١) عن كعب بن عجرة رضى الله عنه، أنه قيل: يا رسول الله! أما السلام عليك فقد عرفناه. فكيف الصلاة عليك؟ قال: قولوا: اللهم! صلى على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد. اللهم! بارك على آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد.

وروى الإمام أحمد^(٢) وأبو داود والنسائي وابن خزيمة وابن حبان والحاكم في مستدركه، عن أبي مسعود البدرى: أنهم قالوا: يا رسول الله! أما السلام فقد عرفناه. فكيف نصلى عليك إذا نحن صلينا في صلاتنا؟ فقال: قولوا: اللهم! صل على محمد وعلى آل محمد. وذكره. ورواه الشافعى في مسنده عن أبي هريرة بمثله.

ومن ههنا ذهب الشافعى رحمه الله، إلى أنه يجب على المصلى أن يصلى على رسول الله صلى الله عليه وسلم في التشهد الأخير. فإن تركه لم تصح صلاته. ووافقه الإمام أحمد في رواية. وقال به إسحق ابن راهويه والإمام ابن المواز المالكي وغيرهم. كما بسطه ابن القيم في (جلاء الأفهام) وابن كثير في (التفسير) وقد تقصياً، عليهما الرحمة، أيضا الروايات في الأمر بالصلاة وكيفيتها. فأوسعا. فليرجع إليهما.

تفسيحات :

الأول - تدل الآية على وجوب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم مطلقا. لأن الأصل في الأمر للوجوب. فذهب قوم إلى وجوبها في المجلس مرة. ثم لا تجب في بقية ذلك المجلس.

(١) أخرجه البخارى في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٣٣ - سورة الأحزاب ، ١٠ - باب

إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ، حديث رقم ١٥٩١ .

(٢) انظر الصفحة رقم ١١٨ من الجزء الرابع من المسند (طبعة الحلبي).

وآخرون إلى وجوبها في العمر مرة واحدة. ثم هي مستحبة في كل حال. وآخرون إلى وجوبها كما ذكر . وبعضهم إلى أن محل الآية على الندب . قال ابن كثير : وهذا قول غريب . فإنه قد ورد الأمر بالصلاة عليه في أوقات كثيرة . فمنها واجب ومنها مستحب على ما بينه . فمنه بعد النداء للصلاة ، لحديث^(١) (إذا سمعتم مؤذنا فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا على) الحديث ومنه عند دخول المسجد لحديث^(٢) (كان صلى الله عليه وسلم إذا دخل المسجد صلى على محمد وسلم . ثم قال : اللهم ! اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك . وإذا خرج صلى على محمد وسلم . ثم قال : اللهم ! اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب فضلك . ومنه الصلاة ، فاستحب على قول الشافعي في التشهد الأول منها ، وتجب في الثاني . ومنه في صلاة الجنازة بعد التكبير الثانية ، لقول أبي أمامة : من السنة ذلك . وهذا من الصحابي في حكم المرفوع ، على الصحيح . ومنه ختم الدعاء . فيستحب الصلاة فيه على النبي ﷺ ، ومن آكد ذلك دعاء القنوت . ومنه يوم الجمعة وليلتها . فيستحب الإكثار منها فيهما ، ومنه في خطبة يوم الجمعة . يجب على الخطيب في الخطبتين الإتيان بها . وهو مذهب الشافعي وأحمد . ومنه عند زيارة قبره ﷺ لحديث (ما من أحد يسلم على إلا رد الله عليّ روحى حتى أرى عليه السلام) تفرد به أبو داود^(٣) وصححه النووي في (الأذكار) . وعن الحسن بن الحسن بن عليّ : أنه رأى قوما عند القبر فنهاهم وقال : إن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لا تتخذوا قبري عيداً . ولا تتخذوا بيوتكم قبوراً . وصلوا علىّ حينما كنتم . فإن صلاتكم تبلغنى .

قال ابن كثير : فعلمه رآهم يسيئون الأدب برفع أصواتهم فوق الحاجة ، فنهاهم . وقد

(١) أخرجه البخاري في : ١٠ - كتاب الأذان ، ٧ - باب ما يقول إذا سمع المنادى ،

حديث ٣٩٠ ، عن أبي سعيد الخدري .

(٢) أخرجه الترمذي في . ٢ - كتاب الصلاة ، ١١٧ - باب ما جاء ما يقول عند دخول

المسجد ، حديث ٣١٤ .

(٣) أخرجه في : ١١ - كتاب المناسك ، ٩٦ - باب في زيارة القبور ، حديث ٢٠٤١

روى أنه رأى رجلاً ينتاب القبر . فقال : يا هذا ! ما أنت ورجل بالأندلس ، منه إلا سواء .
أى الجميع يبلغه صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين . وقد استحج أهل الكتابة
أن يكرر للكاتب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم كلما كتبه . وقد روى في حديث (من
صلى علىّ في كتاب لم تزل الصلاة جارية له ، مادام اسمي في ذلك الكتاب) .

قال الحافظ ابن كثير : وليس هذا الحديث بصحيح . بل عدّه الحافظ الذهبيّ موضوعاً .
وقد ذكر الخطيب البغداديّ أنه رأى بخط الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله ، كثيراً اسم النبي
ﷺ من غير ذكر الصلاة عليه كتابة . قال : وبلغني أنه كان يصلى عليه لفظاً .

الثاني - الصلاة على غير الأنبياء ، إن كانت على سبيل التبعية ، كنجوح : اللهم صل على
محمد وآله وأزواجه ، فهذا جائز إجماعاً . وأما استقلالاً فجوزّه قوم لآية (١) (هُوَ الَّذِي يُصَلِّي
عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ) وآية (٢) (أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ) وآية (٣) (خُذْ مِنْ
أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ) ولحديث (٤) (كان ﷺ إذا أتاه
قوم بصدقتهم قال : اللهم ! صل عليهم . فأتاه أبو أوفى بصدقته فقال : اللهم ! صل على آل أبي أوفى .
وكرهه قوم ، لكون صيغة الصلاة صارت شعاراً للأنبياء إذا ذكروا . فلا يلحق بهم غيرهم .
فلا يقال : قال عمر صلى الله عليه . كما لا يقال قال محمد عز وجل . وإن كان عزيزاً جليلاً .
لكون هذا من شعار ذكر الله عز وجل . وحملوا ما ورد من ذلك في الكتاب والسنة على
الدعاء لهم .

وقال ابن حجر : إن ذلك وقع من الشارع . ولصاحب الحق أن يتفضل من حقه بما شاء
وليس لغيره أن يتصرف إلا بإذنه . ولم يثبت عنه إذن في ذلك . انتهى .

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٤٣] . (٢) [٢ / البقرة / ١٥٧] .

(٣) [٩ / التوبة / ١٠٣] .

(٤) أخرجه البخاريّ في : ٢٤ - كتاب الزكاة ، ٦٤ - باب صلاة الإمام ودعائه لصاحب

الصدقة ، حديث ٨٠٠ ، عن عبد الله بن أبي أوفى .

وقد يقال : كفى في الروى المأثور المتقدم إذناً .

والاستدلال بأن ذلك من حقه فيه مصادرة على المطلوب . على أن المرجح أن الأصل الإباحة حتى يرد الحظر . ولا حظر هنا . فتدبر .

وأما السلام ، فقال الجويني : هو في معنى الصلاة . فلا يستعمل في الغائب . ولا يفرد به غير الأنبياء . فلا يقال : على عليه السلام . وسواء في هذا الأحياء والأموات . وأما الحاضر فيخاطب به . فيقال : سلام عليك ، وسلام عليكم . أو السلام عليك أو عليكم . وقد غلب - كما قال ابن كثير - على كثير من النساخ للكتب ، أن يفرد على رضى الله عنه بأن يقال (عليه السلام) من دون سائر الصحابة .

قال : والتسوية بينهم في ذلك أولى . انتهى .

والخطب سهل . ومن رأى الروى في هذا الباب ، علم أن الأمر أوسع من أن يخرج فيه . على أن هذه المسألة من فروع تخصيص العرف ، وفيه بحث في الأصول .

الثالث - قال النووي : إذا صلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، فليجمع بين الصلاة والتسليم . فلا يقتصر على أحدهما . فلا يقول (صلى الله عليه) فقط . ولا (عليه السلام) فقط .

قال ابن كثير : وهذا الذى قاله منزع من هذه الآية الكريمة وهى قوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) فالأولى أن يقال صلى الله عليه وسلم تسليماً . انتهى .
الرابع - قال الرازى : إذا صلى الله وملائكته عليه ، فأى حاجة إلى صلاتنا ؟ نقول : الصلاة عليه ليس لحاجته إليها . وإلا فلا حاجة إلى صلاة الملائكة مع صلاة الله عليه . وإنما هو لإظهار تعظيمه كما أن الله تعالى أوجب علينا ذكر نفسه ، ولا حاجة له إليه . وإنما هو لإظهار تعظيمه منا ، رحمة بنا ، ليثينا عليه . ولهذا جاء في الحديث (من صلى على مرة ، صلى الله عليه بها عشراً) . انتهى .

وكان سبق لى ، من أيام معدودات أن كتبت في مقدمة مجموعة الخطب في سر الصلاة عليه ، مأمثله : ويُسَنُّ يوم الجمعة ! كثار الصل على النبي ﷺ . ليدكر الرحمة بيمثته ، والفضل بهدايته

والمنة باقتفاء هديه وسنته ، والصلاح الأعظم برسالاته ، والجهاد للحق بسيرته ، ومكارم الأخلاق بحكمته ، وسعادة الدارين بدعوته ، صلى الله عليه وسلم وعلى آله . ما ذاق عارفٌ سرَّ شريعته . وأشرق ضياء الحق على بصيرته ، فسعد في دنياه وآخرته .

الخامس - قال الرازي : ذكر (تسليماً) للتأكيدي ليكمل السلام عليه . ولم يؤكد الصلاة بهذا التأكيدي ، لأنها كانت مؤكدة بقوله (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ) انتهى . وقيل : إنه من الاحتباك . فحذف (عليه) من أحدهما . و (المصدر) من الآخر . قال القاضي : قيل معنى (وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) أي اتقادوا لأوامره . فالسلام من التسليم والانتقياد .

السادس - قال الحافظ ابن حجر في (الفتح) : سئلت عن إضافة الصلاة إلى الله دون السلام ، وأمر المؤمنين بها وبالسلام ، فقلت : يحتمل أن يكون السلام له معنيان : التحية والانتقياد . فأمر به المؤمنون لصحتهما منهم . والله وملائكته لا يجوز منهم الانتقياد ، فلم يصف إليهم ، دفعا للإيهام . والعلم عند الله . انتهى .

وقال الشهاب : قد لاح لي في تخصيص السلام بالمؤمنين دون الله وملائكته ، نكتة سرية . وهي أن السلام تسليمه عما يؤذيه . فلما جاءت هذه الآية عقيب ذكر ما يؤذي النبي صلى الله عليه وسلم ، والأذية إنما هي من البشر وقد صدرت منهم ، فناسب التخصيص بهم والتأكيدي . انتهى .

ولما أمر تعالى بالصلاة على نبيه صلى الله عليه وسلم التي هي الثناء عليه وتمجيده وتمظيمه ، بين وعيد من لا يرعاها ، بأن يجروا على ضدها بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا)

«إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا» أى ينالون فيه المهوان والحزى . والمقصود من الآية الرسول ﷺ . وذكر الله تعالى إنما هو لتعظيمه ، ببيان قربه ، وكونه حبيبه ، حتى كأن ما يؤذيه يؤذيه . كما أن من يطيعه يطيع الله . وقد روى^(١) الطبرى عن ابن عباس؛ أنها نزلت فى الذين طعنوا على النبى ﷺ ، حين أخذ صفية بنت حبي . وهذا فى الحقيقة من أفراد ما تشمله الآية . بل لو قيل إنها عنى بها من خاض فى مسألة زينب ، لكان أقرب ، لتقارب الآيات فى الباب الواحد ، ونفاسقها كسلسلة واحدة ، فى تلك المسألة التى كانت المقصود الأعظم من السورة بتمامها . كما لا يخفى على من تدبرها . وبالجملة ، فاللفظ عام فى كل ما يصاب به ﷺ من أنواع المكروه . فيدخل المقصود من التنزيل دخولا أولياً . وعلى هذا ، فلأذية على حقيقتها . وقيل المراد بأذية الله ورسوله ، ارتكاب ما لا يرضيانه ، مجازاً مرسلًا . لأنه سبب ، أو لازم له . وإن كان بالنسبة إلى غيره ، فإنه كان فى العلاقة وذكر الله والرسول على ظاهره . ومن جوز إطلاق اللفظ الواحد على معنيين ، كاستعمال اللفظ المشترك فى معنیه ، أو فى حقيقته ومجازه ، فسر الأذية بالمعنيين باعتبار المعمولين . فتكون بالنسبة إليه تعالى ، ارتكاب ما يكره مجازاً ، وإلى الرسول على ظاهره . فإن تعدد المعمول بمنزلة تكرار لفظ العامل . فيجىء فيه الجمع بين المعنيين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيٍ مَا كَتَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بِهِنَّ جُنَاحًا وَإِنَّمَا مِثْلُنَا)

«وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ» أى يقول أو فعل «بَغْيٍ مَا كَتَبُوا» أى بغير جنابة يستحقون بها الأذية «فَقَدِ احْتَمَلُوا بِهِنَّ جُنَاحًا وَإِنَّمَا مِثْلُنَا» أى ظاهراً بيننا .

(١) انظر الصفحة رقم ٤٥ من الجزء الثانى والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

قال الزمخشريّ: أطلق إيذاء الله ورسوله، وقيد إيذاء المؤمنين والمؤمنات ، لأن أذى الله ورسوله لا يكون إلا غير حق أبدا . وأما أذى المؤمنين والمؤمنات ، فمنه ومنه .

تنبيه :

في (الإكليل) : في هذه الآية تحريم أذى المسلم ، إلا بوجه شرعيّ . كالمعاقبة على ذنب . ويدخل في الآية كل ما حرم للإيذاء . كالبيع على بيع غيره ، والسوم على سومه ، والخطبة على خطبته . وقد نص الشافعيّ على تحريم أكل الإنسان مما يلي غيره ، إذا اشتمل على إيذاء .

وأخرج ابن أبي حاتم من حديث عائشة مرفوعا (أربى الربا عند الله ، استحلال عرض امرئ مسلم) ثم قرأ هذه الآية . وأخرج عن قتادة في هذه الآية: إياكم وأذى المؤمن ، فإن الله يحوطه ويغضب له . وقد زعموا أن عمر بن الخطاب قرأها ذات يوم ، فأفزع ذلك . حتى ذهب إلى أبي بن كعب . فدخل عليه فقال: يا أبا المنذر! إني قرأت آية من كتاب الله فوعت مني كل موقع (وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ) الآية . والله ! إني لأعاقبهم وأضربهم . فقال له : إنك لست منهم . إنما أنت مؤدّب ، إنما أنت معلّم . انتهى .

قال الزمخشريّ: وعن الفضيل : لا يحل لك أن تؤذي كلبا أو خنزيرا بغير حق ، فكيف ؟

وكان ابن عون لا يكرى الحوانيت إلا من أهل الذمة، لما فيه من الروعة عند كرك الحول . فرحمه الله ورضى عنه .

ولما بين تعالى سوء حال المؤذنين، زجرًا لهم عن الإيذاء، أمر النبيّ عليه الصلاة والسلام بأن يأمر بعض المتأذنين منهم، بما يدفع إيذاءهم في الجملة من الستر والتميز، عن مواقع الإيذاء، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ

مِّنْ جَلْبَابِهِنَّ، ذَٰلِكَ أَذْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَنَنَّ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا)

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِّنْ

جَلْبَابِهِنَّ » جمع (جلباب) كسر داب ، وهو الرداء فوق الخمار ، تنغطى به المرأة .

وهو معنى قول بعضهم : جلبابها ملاءها تشتمل بها . وقيل هو الخمار . قالت (١) جنوب

أخت عمرو ذى الكلبِ ترثيه :

تمشى النسورُ إليه وهي لاهيةٌ مَشَى الْعَدَارَى، عليهن الْجَلَالِبُ

وقال آخر (٢) يصف الشيب :

حَتَّى اكْتَسَى الرَّاسُ قِنَاعًا أَشْهَبًا أَكْرَهَ جَلْبَابٍ لِمَنْ تَجَلَّبَبًا

وقال الزمخشري : الجلباب ثوب واسع ، أوسع من الخمار ، ودون الرداء . تلويه المرأة

على رأسها ويبقى منه ما ترسله على صدرها . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : الرداء الذى يستر

من فوق إلى أسفل . ثم قال : ومعنى (يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِّنْ جَلْبَابِهِنَّ) يرخينها عليهن ويفطين بها

وجوههن وأعطافهن . يقال إذا زلّ عن وجه المرأة : أذنى ثوبك على وجهك . وذلك أن النساء

كن في أول الإسلام على هجّيراهن في الجاهلية متبدلات ، تبرز المرأة في درع وخمار ، لأفضل بين

الحرّة والأمة . وكان الفتيان وأهل الشطارة (٣) يتعرضون للإماء إذا خرجن بالليل ، إلى

مقاضى حوائجهم في النخيل والغيطان . وربما تعرضوا للحرّة بعملة الأمة . يقولون حسبناها

أمة . فأمرن أن يخالفن بزيهن عن زى الإماء ، بلبس الأردية والملاحف وستر الرؤوس والوجوه

(١) استشهد في اللسان بالصفحة رقم ٢٧٢ من المجلد الأول (طبعة بيروت)

(٢) استشهد في اللسان بالصفحة رقم ٢٧٣ من المجلد الأول (طبعة بيروت)

(٣) الشاطر : من أعبي أهله ومؤدبه خبثا ومكرا . مولدة ، كما في القاموس وشرحه .

ليحتشمن ويُهين ، فلا يطعم فيهن طامع ، وذلك قوله « ذَلِكْ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ »
 أى أولى وأجدربأن يعرفن أنهم حرائر ، فلا يتعرض لهن ولا يلتقن ما يكرهن . ثم قال الزمخشري :
 فإن قلت : مامعنى (من) فى (من جلابيهن) قلت : هوللتبعض . إلا أن معنى التبعض محتمل
 وجهين : أحدهما - أن يتجلبن ببعض ما لهن من الجلابيب . والمراد أن لاتكون الحرمة متبذلة
 فى درع وخمار كالأمة والمأهنة ، ولها جلاببان فصاعدا فى بيتها . والثانى - أن ترخى المرأة بعض
 جلاببها وفضله على وجهها ، لتتقنع حتى تتميز من الأمة . انتهى .

ومن الآثار فى الآية ، مارواه الطبرى^(١) عن ابن عباس قال : أمر الله نساء المؤمنين إذا
 خرجن من بيوتهن فى حاجة ، أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب ، ويبدن
 عينا واحدة . وأخرج ابن أبى حاتم عن أم سلمة قالت : لما نزلت هذه الآية (يَدْنِينَ عَلَيْهِنَّ
 مِنْ جَلَابِيهِنَّ) خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان ، من السكينة . وعليهن أكسية
 سود يلبسنها . وأخرج عن يونس بن يزيد أنه سأل الزهري : هل على الوليدة خمار ، متزوجة أو
 غير متزوجة ؟ قال : عليها الخمار إن كانت متزوجة ، ونهى عن الجلابيب . لأنه يكره لهن أن
 يتشهن بالحرائر المحصنات .

تنبيهات :

الأول - قال ابن كثير : روى عن سفيان الثورى أنه قال : لا بأس بالنظر إلى زينة
 نساء أهل الذمة . وإنما نهى عن ذلك لخوف الفتنة ، لا لحرمتهم . واستدل بقوله تعالى
 (وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ) . انتهى .

الثانى - قال السبكي فى (طبقاته) : استنبط أحمد بن عيسى ، من فقهاء الشافعية ، من هذه الآية
 أن ما يفعله العلماء والسادات ، من تغيير لباسهم وعمائمهم ، أمر حسن . وإن لم يفعله السلف .
 لأن فيه تمييزاً لهم حتى يعرفوا ، فيعمل بأقوالهم . انتهى .

(١) انظر الصفحة رقم ٤٦ من الجزء الثانى والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

الثالث - قال الشهاب : قوله تعالى (يُدْنِينَ) يحتمل أن يكون مقول القول . وهو خبر بمعنى الأمر ، أو جواب الأمر ، على حد^(١) (قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ) انتهى « وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا » أى لما سلف منهم من التفريط « رَحِيمًا » أى بعباده ، حيث يراعى مصالحهم حتى الجزئيات منها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (لَئِن لَّمْ يَنْتَهِ الْمُؤْمِنُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ

لِنُفْرِتِكَ بِهِمْ . ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا)

[٦١] (مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثَقِفُوا أَخْدُوا وَقَتَلُوا تَقْتِيلًا)

« لَئِن لَّمْ يَنْتَهِ الْمُؤْمِنُونَ » أى عن تقاطعهم « وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ » أى ضعف إيمان ، عن مراودة النساء بالفجور « وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ » أى بأخبار السوء اللاتى يفترونها وينشرونها . كجسء عدو وانهزام سرية . وهكذا مما يكسرون به قلوب المؤمنين . وأصله التحريك . من (الرجفة) وهى الزلزلة . يسمى به الخبر المفترى ، لكونه خبرا مترزلا غير ثابت . أو لاضطراب قلوب المؤمنين به « لِنُفْرِتِكَ بِهِمْ » أى لنسلطنتك عليهم بما يضطرمهم إلى الجلاء « ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا » أى فى المدينة من قوة بأسك عليهم « إِلَّا قَلِيلًا » أى زمنا قليلا ربما يستعدون للرحلة « مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثَقِفُوا » أى مبغضين لله وللخلق . لا يسترىحون بالخروج . للصوق اللعنة بهم أينما وجدوا . « أَخْدُوا وَقَتَلُوا تَقْتِيلًا » أى أسروا وبولغ فى قتلهم لذلهم وقتلهم . ثم أشار تعالى إلى أن ذلك ليس ببدع ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا)

« سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ » أى فى المفترين والمؤذين الذين مضوا ، إذا

(١) [١٤ / إبراهيم / ٣١] .

تَمَرَدُوا عَلَىٰ نِقَابِهِمْ وَكَفَرُوا وَلَمْ يَرْجِعُوا ، أَن يَسْلُطَ عَلَيْهِمْ أَهْلُ الْإِيمَانِ فَيَقْهَرُوا بِهِمْ . «وَأَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا» أَي لِأَنَّهُ لَا يَبْدِلُهَا ، أَوْ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَبْدِلَهَا .

تنبيهات :

الأول - قال الشهاب : إما أن يراد بالمنافقين والمرافقين ، قوم مخصوصون ، ويكون العطف لتغاير الصفات مع اتحاد الذات ، على حدِّ (إلى الملك القرم وابن الهمام) أو يراد بهم أقوام مختلفون في الذوات والصفات . فعلى الأول ، تكون الأوصاف الثلاثة للمنافقين . وهو الموافق لما عرف من وصفهم بالذين في قلوبهم مرض ، كما مرَّ في البقرة . والأراجيف بالمدينة أكثرها منهم . ولكنه لا يوافق ما ذيل به من الوعيد بالإجلاء والقتل . فإنه لم يقع للمنافقين . وعلى الثاني ، هم المنافقون وقوم ضعاف الدين . كأهل الفجور . والمرجفون اليهود الذين كانوا مجاورين لهم بالمدينة . وقد وقع القتال والإجلاء لمن لم يفتته منهم . وهم اليهود . انتهى .

الثاني - ذكروا أن معنى قوله تعالى (أَخِذُواْ وَكُفِّرُواْ وَتَقْتِيلًا) أنهم إذا خرجوا لا ينفكون عن المذلة ، ولا يجردون ملجأ . بل أينما يكونون ، يطلبون ويؤخذون ويقتلون . وعليه ، فالجملة خبرية . وانظر هل من مانع أن تكون الجملة دعائية كقوله (١) (عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ) وقوله (٢) (وَيَلْبَسُواْ لِبَاسًا كَلِيمًا هُمْزَةً لَّهُمْزَةً) كأنه قيل : أخذهم الله . أى أهلكهم وقتلهم أبلغ قتل وأشدّه . ولم أر أحداً تعرّض له . وقد أفاد ابن عطية ، أن كل ما كان بلفظ الدعاء من الله تعالى ، فإنما هو بمعنى إيجاب الشيء . لأن الله لا يدعو على مخلوقاته وهى في قبضته ، أى لاستحالة حقيقة الدعاء وهو الطلب من الغير .

الثالث - فى (الإكليل) : فى الآية تحريم الأذى بالإرجاج . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى

(١) [٩ / التوبة / ٩٨] و [٤٨ / الفتح / ٦] .

(٢) [١٠٤ / الهمزة / ١] .

في قوله: (وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) هم قوم كانوا يجلسون على الطريق ، يكابرون المرأة مكابرة. فنزلت فيهم الآية إلى قوله (أَخِذُواْ وَاقْتُلُواْ تَقْتِيلًا) قال : هذا حكم في القرآن ، ليس يعمل به ، لو أن رجلا أو أكثر من ذلك اقتصوا أثر امرأة فغلبوها على نفسها ففجروا بها،

كان الحكم فيهم غير الجلد والرجم ، أن يؤخذوا فتضرب أعناقهم . انتهى .

وهذا وقوف مع وجه تحتمله الآية . كما قدمنا . على أن للحاكم أن يفعل ذلك ، إذا رأى في ذلك مصلحة ودرء مفسدة . على قاعدة رعاية المصالح التي هي أم الباب . كما بسط ذلك النجم الطوفي في (رسالته) وأيدناه بما علقناه عليها .

الرابع - كتب الناصر في (الاتصاف) على قول الكشاف في قوله (إِلَّا قَلِيلًا) أي زمنا قليلا ربما يرتحلون ويتعلقون أنفسهم وعيالاتهم، مأماله : فيها إشارة إلى أن من توجه عليه إخلاء منزل مملوك للغير بوجه شرعي ، يهل ربما ينتقل بنفسه ومتاعه وعياله برهة من الزمان حتى يتحصل له منزل آخر ، على حسب الاجتهاد . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا)

«يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا» أي يسألونك عن وقت قيامها . وكان المشركون في مكة يسألونه صلى الله عليه وسلم ، عنها استعجالاً على سبيل الهزء . وكذلك اليهود في المدينة أو غيرهم . لأن هذه السورة مدنية ، وقد أرشده تعالى أن يردّ علمها إليه لاستثناؤه تعالى به . فلم يطلع عليه نبيا ولا ملكا ، وأن يبين لهم أنها قريبة الوقوع ، تهديدا للمستعجلين وإسكاتا للممتحنين .

لطيفة :

تذكير (قريبا) باعتبار موصوفه ، الخبر ، أي شيئا قريبا . أو لأن الساعة في معنى اليوم

أو الوقت . أو أن (قريبا) ظرف منصوب على الظرفية ، فإن (قريبا) و (بعيدا) يكونان ظرفين . فليس صفة مشتقة ، حتى تجرى عليه أحكام التذكير والتأنيث .

قال أبو السعود : والإظهار في حيز الإضمار ، للتهويل وزيادة التقرير . وتأكيده استقلال الجملة . يعنى أن قوله (وَمَا يُدْرِيكَ) خطاب مستقل له عليه السلام ، غير داخل تحت الأمر ، مسوق لبيان أنها مع كونها غير معلومة للخلق ، مرجوة المحيىء عن قريب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا)

[٦٥] (خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، لَا يَجِدُونَ وِلْيَاءً وَلَا نَصِيرًا)

[٦٦] (يَوْمَ تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا

الرَّسُولَ)

« إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ » أى أبعدهم من رحمته « وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا » أى ناراً شديدة الانتقاد فى الآخرة « خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وِلْيَاءً وَلَا نَصِيرًا » أى حافظاً يتولاهم « وَلَا نَصِيرًا » أى يخلصهم « يَوْمَ تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ » أى تصرف من جهة إلى جهة ، تشبيهه بقطعة لحم فى قدرٍ تغلى . ترى بها الغليان من جهة إلى جهة . أو المعنى : من حال إلى حال . فلمراد تغيير هيأتها من سواد وتقديد وغيره .

قال الزمخشري : وخصت الوجوه بالذكر ، لأن الوجه أكرم موضع على الإنسان من جسده ، ويجوز أن يكون الوجه عبارة عن الجملة . وناصر الطرف (يقولون) أو (اذكر) أو (لا يجدون) أو (خالدين) أو (نصيراً) « يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ » أى فكنا ننجو من هذا العذاب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا)

[٦٨] (رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا)

[٦٩] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادَوْا مُوسَىٰ فَبَرَأَهُ اللَّهُ

مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا)

« وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا » وهم رؤساء الكفر الذين لفتوهم الكفر وزينوه لهم حتى قلدوهم فيه « فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا » أى بما زينوه لنا . قال الزمخشري : وزيادة الألف لإطلاق الصوت جعلت فواصل الآى كقوافى الشعر ، وفائدتها الوقف والدلالة على أن الكلام قد انقطع ، وأن ما بعده مستأنف « رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ » أى مثل العذاب الذى آتيتناه ، لأنهم ضلوا وأضلوا « وَالْعَنَهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا » أى لعنا هو أشد اللعن وأعظمه . وقرئ (كثيرا) تكثيرا لأعداد اللعائن « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادَوْا مُوسَىٰ فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا » لما بين تعالى وعيد من يؤذى نبيه ﷺ ، من استحقاقه اللعنة فى الدارين ، تعريضا بمن صدر منهم شىء من الأذى فى قصة زيد وزينب ، التى سيمت السورة لأجلها ، ختمها أيضا بالوصية بالتباعد عن التشبه بقوم صدر منهم إيداء لموسى عليه السلام ، بتنقصه تارة ، وقلة الأدب معه طورا ، ونسبته إلى ما ينافى الرسالة آونة . كما عر كثير من ذلك بقارئى توراتهم . مما ينبى عن عدم إيفائهم رسالته ونبوته حقها ، من التعظيم له والصلاة عليه والتسليم لأمره وقضيته . فكانت النتيجة أن غضب الله عليهم ورماهم بأفانين العقوبات ، ولحقهم الخازى ، وبرأ رسوله موسى عليه السلام من إفكهم ، ونزه مقامه عن تنقيصهم ، بأن حقق فضله ، وأسمى منزلته ، وآتاه الوجاهة - وهى العظمة والقرب - عنده . وهكذا حقت كلمة اللعنة والخزى على مؤذى رسول الله ﷺ ،

ولحقهم الدمار ، وشرح لنبيه صدره ، ورفع له ذكره ، وأعلى منزلته ، ونخم وجأته ، ماتعقت الأديار . ويقرب من هذه الآية ، في المعنى والإشارة ، قوله تعالى (١) (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يٰقَوْمِ لِمَ تُوذُونَ نَبِيَّ وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ، فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاعَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفٰسِقِينَ) وفيهما كلمتهما تسليمة للنبي ﷺ بتأسيه بأخيه موسى صلوات الله وسلامه عليهما . وكثيرا ما كان يقول ﷺ في جواب جفاة الأعراب حين ما يبلغه أو يسمع ما يكره : رحمة الله على موسى . لقد أودى بأكثر من هذا فصبر .

وقد روى المفسرون ههنا آثارا . أحسنها ما أخرجه البزار عن أنس مرفوعا : كان موسى رجلا حيمياً . وأنه أتى الماء ليقنسل . فوضع ثيابه على صخرة . وكان لا يكاد تبدو عورته . فقال بنو إسرائيل إن موسى آدر (٢) أوبه آفة . يعمنون أنه لا يضع ثيابه . فاحتملت الصخرة ثيابه حتى صارت بجذاء بني إسرائيل . فنظروا إلى موسى كأحسن الرجال . أو كما قال . فذلك قوله (فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً) ورواه (٣) البخاري في صحيحه عن أبي هريرة أيضا .

قال الرازي : وحديث إيذاء موسى مختلف فيه . أي لكثرة الروايات فيه . مع أن الإيذاء المذكور في القرآن كاف كقولهم (٤) (فَآذُهِبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا) وقولهم (٥) (لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً) وقولهم (٦) (لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ) إلى غير ذلك . فقال للمؤمنين : لا تكونوا أمثالهم . انتهى .

(١) [٦١ / الصف / ٥] .

(٢) أي به أدرة ، بضم فسكون ، وهي انتفاخ الخصيتين وكبرها جدا

(٣) أخرجه البخاري في : ٥ - كتاب الغسل ، ٢٠ - باب من اغتسل عريانا وحده

في الخلوة ، حديث رقم ٢٠١

(٤) [٥ / المائة / ٢٤] .

(٥) [٢ / البقرة / ٥٥]

(٦) [٢ / البقرة / ٦١] .

وقال ابن كثير: يحتمل أن يكون كل ما روى مراداً. وأن يكون معه غيره . انتهى . أى لعموم المعمول المحذوف . وما بيناه أولاً ، هو الأقرب . والله أعلم .

تنبيهات :

الأول - (الوجيه) لغة بمعنى السيد ، كالوجه . يقال : هؤلاء وجوه البلد ووجهاؤه . أى أشرافه . وبمعنى ذى الجاه- والجاه القدر والمنزلة . مقلوب عن (وجه) فلما أخرجت (الواو) إلى موضع (العين) وصارت جَوَّهاً ، قلبت (الواو) ألفاً . فصارت (جاهاً) . كذا فى القاموس وشرحه .

الثانى - قال الزخشرىّ : (وجهياً) أى ذا جاه ومنزلة عنده . فلذلك كان يميّط عنه التهم ويدفع الأذى ويحافظ عليه لئلا يلحقه وسم ولا يوصف بتقيصة . كما يفعل الملك بمن له عنده قربة ووجاهة . وقال ابن جرير^(١) : أى كان موسى عند الله مشفقاً فيما يسأل ، ذا وجه ومنزلة عنده ، بطاعته إياه . أى مقبولاً ومجاباً فيما يطلب لقومه من الله تعالى ، عناية منه تعالى وتفضيلاً .

الثالث - اتخذ العامة ، وكثير من المتعلمين ، وصف الوجاهة للأنبياء ، ذريعة للطلب والرغبة منهم ، مما لا ينطبق على عقل ولا نقل ، ولا يصدق على المعنى اللغوى بوجه ما . وقد كتب فى ذلك الإمام الشيخ محمد عبده فتياً ، أبان وجه الصواب فيما تشابه من هذه المسألة . وذلك أنه سئل ، رحمه الله ، عن يتوسل بالأنبياء والأولياء ، معتقداً أن النبىّ أو الولىّ يستميل إرادة الله تعالى عما هى عليه ، كما هو المعروف للناس من معنى الشفاعة والجاه عند الحكام . وأن التوسل بهم إلى الله تعالى كالتوسل بأكابر الناس إلى الحكام .

فقال امرؤ: إن هذا مخلّ بالعقيدة وإن قياس التوسل إلى الله تعالى على التوسل بالحكام محال . وإن عقيدة التوحيد أن لا فاعل ولا نافع ولا ضار إلا الله تعالى . وإنه لا يدعى معه

(١) انظر الصفحة رقم ٥٠ من الجزء الثانى والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية)

أحد سواه . كما قال تعالى (١) (فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا) وإن النبي ﷺ ، وإن كان أعظم منزلة عند الله تعالى من جميع البشر ، وأعظم الناس جاها ومحبة ، وأقربهم إليه ، ليس له من الأمر شيء ، ولا يملك للناس ضراً ولا نفعا ولا رشدا ولا غيره . كما في نص القرآن . وإنما هو مبلّغ عن الله تعالى . ولا يتوسل إليه تعالى إلا بالعمل بما جاء على لسانه ﷺ ، واتباع ما كان عليه الصحابة والتابعون والأئمة المجتهدون من هديه وسنته . وإنه لا سبب لجلب المنافع ودفع المضارّ إلا ما هدى الله الناس إليه . ولا معنى للتوسل بنبيّ أو وليّ إلا باتباعه والافتداء به . يرشدنا إلى هذا كثير من الآيات الواردة في القرآن العظيم ، كقوله تعالى (٢) (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ) (وَأَنْ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ) (٣) إلى غير ذلك من الآيات . هذا هو اعتقادي وهو الذي قلته للناس . فإن كنتم ترون فيه خطأ فأرجو بيانه . وإن كان هو الصواب فأرجو إقرارى عليه كتابة ، لأدافع بذلك من أساء بي الظن .

فأجاب رحمه الله ، بعد البسمة والحوقة : اعتقادك هذا هو الاعتقاد الصحيح . ولا يشوبه شوب من الخطأ . وهو ما يجب على كل مسلم يؤمن بما جاء به محمد ﷺ أن يعتمده . فإن الأساس الذي بنيت عليه رسالة النبي ﷺ هو هذا المعنى من التوحيد . كما قال الله تعالى (٤) (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ) و (الصَّمَدُ) هو الذى يقصد فى الحاجات ، ويتوجه إليه المربوبون فى معونتهم على ما يطلبون ، وإمدادهم بالقوة فيما تضعف عنه قواهم . والإتيان بالخبر على هذه الصورة يفيد الحصر . كما هو معروف عند أهل اللغة . فلا صمد إلا هو . وقد أرشدنا إلى وجوب القصد إليه وحده بأصرح عبارة فى قوله (٥) (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي

(١) [٧٢ / الجن / ١٨] . (٢) [٣ / آل عمران / ٣١] .

(٣) [٦ / الأنعام / ١٥٣] . (٤) [١١٢ / الإخلاص / ١ و ٢] .

(٥) [٢ / البقرة / ١٨٦] .

قَرِيبٌ، أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ) وقد قال الشيخ محي الدين بن العربي، شيخ الصوفية، في صفحة ٢٢٦ من الجزء الرابع من (فتوحاته) عند الكلام على هذه الآية: إن الله تعالى لم يترك لعبده حجة عليه. بل لله الحجة البالغة. فلا يتوسل إليه بغيره. فإن التوسل إنما هو طلب القرب منه. وقد أخبرنا الله أنه قريب. وخبره صدق. انتهى ملخصاً.

على أن الذين يزعمون جواز شيء مما عليه العامة اليوم في هذا الشأن، إنما يتكلمون فيه بالمبهمات، ويسلكون طرقاً من التأويل لا تنطبق على ما في نفوس الناس. ويفسرون الجاه والواسطة بما لا أثر له في غيالات المعتقدين. فأتى حالة تدعوهم إلى ذلك؟ وبين أيديهم القرون الثلاثة الأولى، ولم يكن فيها شيء من هذا التوسل ولا ما يشبهه بوجه من الوجوه، وكتب السنة والسير بين أيدينا شاهدة بذلك، فكل ما حدث بعد ذلك فأقل أوصافه أنه (بدعة) في الدين وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار. وأسوأ البدع ما كان فيه شبهة الإشراف بالله تعالى وسوء الظن به. كهذه البدع التي نحن بصدد الكلام فيها، وكأن هؤلاء الزاعمين يظنون أن في ذلك تعظيماً لقدر النبي ﷺ، أو الأنبياء والأولياء. مع أن أفضل التعظيم للأنبياء هو الوقوف عندما جاءوا به، وافتاء الزيادة عليهم فيما شرعوه بإذن ربهم. وتعظيم الأولياء يكون باختيار ما اختاروه لأنفسهم. وظن هؤلاء الزاعمين أن الأنبياء والأولياء يفرحون بإطرائهم وتنظيم المدائح وعزوها إليهم، وتفخيم الألقاب عند ذكركم، واختراع شئون لهم مع الله، لم ترد في كتاب الله ولا في سنة رسوله ولا رضيها السلف الصالح. هذا الظن بالأنبياء والأولياء هو أسوأ الظن. لأنهم شبهوهم في ذلك بالجبارين من أهل الدنيا، الذين غشيت أبصارهم ظلمات الجهل قبل لقاء الموت، وليس يحظر بالبال أن جباراً لقي الموت وانكشف له الغطاء عن أمر ربه فيه، يرضى أن يفتخمه الناس بما لم يشرعه الله. فكيف بالأنبياء والصدّيقين؟ إن لفظ (الجاه) الذي يضيفونه إلى الأنبياء والأولياء عند التوسل، مفهومه العرفي هو السلطة. وإن شئت قلت نفاذ الكلمة عند من يستعمل عليه أو لديه، فيقال فلان اغتصب مال فلان بجاهه، ويقال فلان خلص فلانا

من عقوبة الذنب بجاهه، لدى الأمير أو الوزير مثلاً. فزعمُ زاعمُ أن لفلان جأها عند الله بهذا المعنى ، إشراك جليّ لاخفىّ . وقلمها يخطر ببال أحد من المتوسلين معنى اللفظ اللغويّ ، وهو المنزلة والقدر . على أنه لامعنى للتوسل بالقدر والمنزلة في نفسها . لأنها ليست شيئاً ينفع . وإنما يكون لذلك معنى ، لو أوّلتُ بصفة من صفات الله ، كالاكتباء والاصطفاء ، ولا علاقة لها بالدعاء ولا يمكن لتوسل أن يقصدها في دعائه . وإن كان (الآلوسى) بنى تجويز التوسل بجاه النبيّ خاصة على ذلك التأويل . وما حمّله على هذا إلا خوفه من أسنة العامة وسباب الجهال . وهو مما لا قيمة له عند العارفين . فالتوسل بلفظ الجاه مبتدع بعد القرون الثلاثة . وفيه شبهة الشرك والعياذ بالله ، وشبهة العدول عما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم . فلمَ الإصرار على تحسين هذه البدعة ؟

يقول بعض الناس : إن لنا على ذلك حجة لا أبلغ منها . وهي ما رواه الترمذى^(١) بسنده إلى عثمان بن حنيف رضى الله عنه قال : إن رجلاً ضير البصر أتى النبيّ ﷺ فقال : ادع الله أن يعافيني . فقال : إن شئت دعوت وإن شئت صبرت فهو خير لك . قال : فادعه . قال فأمره أن يتوضأ فيحسن الوضوء ، ويدعو بهذا الدعاء : اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبيّ الرحمة . يا محمد ! إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى لى . اللهم فشفعه فيّ . قال الترمذى : وهو حديث حسن صحيح غريب ، ونقول أولاً : قد وصف الحديث بالغريب ، وهو ما رواه واحد . ثم يكفي في لزوم التحرز عن الأخذ به ، أن أهل القرون الثلاثة لم يقع منهم مثله ، وهم أعلم منا بما يجب الأخذ به من ذلك . ولا وجه لابتعادهم عن العمل به ، إلا علمهم بأن ذلك من باب طلب الاشتراك في الدعاء من الحى . كما قال عمر^(٢) رضى الله عنه ، في حديث الاستسقاء : إنا كنا نتوسل

(١) أخرجه في : ٤٥ - كتاب الدعوات ، ١١٨ - باب حدثنا محمود بن غيلان

(٢) أخرجه البخارى في : ١٥٠ - كتاب الاستسقاء ، ٣ - باب سؤال الناس الإمام

الاستسقاء ، إذا قحطوا ، حديث ٥٧٢

إليك بنينا ﷺ فتسقيننا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبيك العباس فاسقنا ، قال ذلك ، رضى الله عنه ، والعباس بجانبه يدعو الله تعالى ، ولو كان التوسل مايزعم هؤلاء الزاعمون ، لكان عمر يستسقى ويتوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم ، ولا يقول (كناناستسقى بنبيك) وطلب الاشتراك في الدعاء مشروع حتى من الأخ لأخيه ، بل ويكون من الأعلى للأدنى ، كما ورد في الحديث . وليس فيه ما يخشى منه ، فإن الداعي ومن يشركه في الدعاء وهو حي ، كلاهما عبد يسأل الله تعالى ، والشريك في الدعاء شريك في العبودية ، لا وزير يتصرف في إرادة الأمير كما يظنون^(١) . (سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ) ثم المسألة داخلة في باب العقائد ، لاني باب الأعمال . ذلك أن الأمر فيها يرجع إلى هذا السؤال (هل يجوز أن نعتقد بأن واحدا سوى الله يكون واسطة بيننا وبين الله في قضاء حاجتنا أو لا يجوز) ؟ أما الكتاب فصرح في أن تلك العقيدة من عقائد المشركين ، وقد نماها عليهم في قوله^(٢) (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعْنَا عِنْدَ اللَّهِ) سورة يونس ، وقد جاء في السورة التي نقرأها كل يوم في الصلاة (وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) فلا استعانة إلا به ، وقد صرح الكتاب بأن أحدا لا يتكلم للناس من الله نفعا ولا ضرا ، وهذا هو التوحيد الذي كان أساس الرسالة المصطفوية كما بينا . ثم البرهان العقلي يرشد إلى أن الله تعالى في أعماله لا يقاس بالحكام وأمثالهم في التحول عن إرادتهم ، بما يتخذها أهل الجاه عندهم ، لتزده جل شأنه عن ذلك . ولو أراد مبتدع أن يدعو إلى هذه العقيدة ، فعليه أن يقيم عليها الدليل الموصول إلى اليقين ، إما بالمقدمات العقلية البرهانية أو بالأدلة السمعية المتواترة . ولا يمكنه أن يتخذ حديثا من حديث الأحاد دليلا على العقيدة . مهما قوى سنده . فإن المعروف عند الأئمة قاطبة أن أحاديث الأحاد لا تقيد إلا الظن . (وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا)^(٣) انتهى كلامه رحمه الله .

(١) [٣٧ / الصفات / ١٨٠] : (٢) [١٠ / يونس / ١٨] .

(٣) [٥٣ / النجم / ٢٨] .

ثم راجعت (اقتضاء الصراط المستقيم) للإمام العلم تقي الدين ابن تيمية رضى الله عنه . فرأيتُه ذكر نحواً من ذلك ، وعبارته : فالوسيلة التي أمر الله بابتغائها ، تعم الوسيلة في عبادته وفي مسألته . فالتوسل إليه بالأعمال الصالحة التي أمر بها ، وبدعاء الأنبياء والصالحين وشفاعتهم ، ليس هو من باب الإقسام عليه بمخلوقاته . ومن هذا الباب استشفاع الناس بالنبي ﷺ يوم القيامة ، فإنهم يطلبون منه أن يشفع لهم إلى الله ، كما كانوا في الدنيا يطلبون منه أن يدعو لهم في الاستسقاء وغيره : وقول عمر رضى الله عنه (إنا كنا ، إذا أجدبنا ، توصلنا إليك بنبينا فتسقيننا ، وإنا نتوسل إليك بعمّ نبينا) معناه نتوسل بدعائه وشفاعته وسؤاله ، ونحن نتوسل إليك بدعاء عمه وسؤاله وشفاعته . ليس المراد به ، إنا نقسم عليك به . أو ما يجرى هذا المجرى مما يفعل بعد موته وفي مغيبه . كما يقوله بعض الناس : أسألك بجاه فلان عندك . ويقولون : إنا نتوسل إلى الله بأنبيائه وأوليائه ، ويروون حديثنا موضوعاً (إذا سألتهم الله فاسألوه بجاهي ، فإن جاهي عند الله عريض) فإنه لو كان هذا هو التوسل الذي كان الصحابة يفعلونه ، كما ذكر عمر رضى الله عنه ، لفعلوا ذلك بعد موته ، ولم يعدلوا عنه إلى العباس . مع علمهم أن السؤال به والإقسام به ، أعظم من العباس . فعلم أن ذلك التوسل الذي ذكروه ، هو مما يفعل بالأحياء دون الأموات . وهو التوسل بدعائهم وشفاعتهم . فإن الحيّ يطلب منه ذلك والميت لا يطلب منه شيء ، لا دعاء ولا غيره . وكذلك حديث الأعمى . فإنه طلب من النبي ﷺ أن يدعو له ليردّ الله عليه بصره . فعلمه النبي ﷺ دعاء أمره فيه ، أن يسأل الله قبول شفاعته نبيّه فيه . فهذا يدل على أن النبي ﷺ شفع فيه ، وأمره أن يسأل الله قبول شفاعته ، وأن قوله (أسألك) وأتوجه إليك بنبيك محمد نبيّ الرحمة (أى بدعائه وشفاعته . كما قال عمر : كنا نتوسل إليك بنبينا . فلفظ (التوجه) و (التوسل) في الحديثين بمعنى واحد . ثم قال (يا محمد ! يا رسول الله ! إني أتوجه بك إلى ربّي في حاجتي ليقضها . اللهم ! فشفعه فيّ) فطلب من الله أن يشفع فيه نبيّه . وقوله (يا محمد ! يا نبيّ الله !) هذا وأمثاله نداء ، يطلب به استحضر المنادي في القلب .

فيخاطب المشهود بالقلب . كما يقول المصلي : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته . والإنسان يفعل مثل هذا كثيرا . يخاطب من يتصوره في نفسه . وإن لم يكن في الخارج من يسمع الخطاب . فلفظ التوسل بالشخص والتوجه به والسؤال به ، فيه إجمال واشتراك . غلط نسبه من لم يفهم مقصد الصحابة ، يراد به التشبث به (في الأصل التسبب به) لكونه داعيا وشافعا مثلا . أو لكون الداعي محببا له ، مطيعا لأمره ، مقتديا به . فيكون التسبب إما بحجة السائل له واتباعه له ، وإما بدعاء الوسيلة وشفاعته ، ويراد به الإقسام به والتوسل بذاته . فلا يكون التوسل ، لاشيء منه ولا شيء من السائل ، بل بذاته أو بمجرد الإقسام به على الله . فهذا الثاني هو الذي كرهوه ونهوا عنه . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ » أى فى كل ماتأتون وماتذرون . لاسيما فى ارتكاب ما يكرهه ، فضلاً عما يؤذى رسوله صلى الله عليه وسلم « وَقُولُوا » أى فى كل شأن من الشئون « قَوْلًا سَدِيدًا » أى قوياً حقاً صواباً . قال القاشانى : (السداد) فى القول ، الذى هو الصدق والصواب ، هو مادة كل سعادة ، وأصل كل كمال . لأنه من صفاء القلب وصفائه يستدعى جميع الكلمات . وهو وإن كان داخلاً فى التقوى المأمور بها ، لأنه اجتناب من رذيلة الكذب ، مندرج تحت التزكية التى عبر عنها بالتقوى . لكنه أفرد بالذكر للفضيلة . كأنه جنس برأسه . كما خص جبريل وميكائيل من الملائكة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧١] (يُصْلِحْ لَكُمْ ءَعْمَلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ

وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

«يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ» أى بإمداد الصلاح والكلمات والفضائل عليكم. لأنه لا يصح عمل ما بدون الصدق أصلاً. وبه يصلح كل عمل « وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ » أى ويجعلها مكفرة باستقامتكم فى القول والعمل. فإن الحسنات يذهبن السيئات « وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ » أى فى الأوامر والنواهي التى من جملتها هذه التشريعات « فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا » أى فى الدارين .

وقال القاشانى : أى فاز بالتحلية والأتصاف بالصفات الإلهية ، وهو الفوز العظيم .

تنبيه :

قال الزمخشري : المراد نهيمهم عما خاضوا فيه من حديث زينب من غير قصد وعدل فى القول . والبعث على أن يسد قلوبهم فى كل باب . لأن حفظ اللسان وسداد القول رأس الخير كله . وهذه الآية مقررة للتي قبلها . بنيت تلك على النهي عما يؤذى رسول الله ﷺ ، وهذه على الأمر باتقاء الله تعالى فى حفظ اللسان ، ليرادف عليهم النهي والأمر ، مع إتباع النهي ما يتضمن الوعيد من قصة موسى عليه السلام . وإتباع الأمر الوعد البليغ ، فيقوى الصارف عن الأذى والداعى إلى تركه . انتهى .

ولك أن تضم إلى المراد من الآية الذى ذكره ، مراداً آخر . وهو نهيمهم أيضاً عما خاض فيه المنافقون من التعويق والتثبيط وبث الأراجيف فى غزوة الأحزاب ، المقدمة أوائل السورة وبالجملة ، فالسياق يشمل ذينك وغيرهما . إلا أن الذى يراعى أولاً ، هو ما كان التنزيل لأجله ، وذلك ما ذكر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ، إِنَّهُ وَكَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)

« إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ

مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ وَكَانَ ظَلُومًا جَهُولًا» قال أبو السعود : لما بينَ عَظَمَ شَأْنِ طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، بَيَانِ مَا لَ الْخَارِجِينَ عَنْهَا مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ، وَمِثَالِ الْمُرَاعِينَ لَهَا مِنَ الْفَوْزِ الْعَظِيمِ عَقِبَ ذَلِكَ بَيَانِ عَظَمِ شَأْنِ مَا يَوْجِبُهَا مِنَ التَّكْلِيفِ الشَّرْعِيِّ وَصَعُوبَةِ أَمْرِهَا بِطَرِيقِ التَّمْثِيلِ - مَعَ الْإِيذَانِ بِأَنَّ مَا صَدَرَ عَنْهُمْ مِنَ الطَّاعَةِ وَتَرْكِهَا ، صَدَرَ عَنْهُمْ بَعْدَ الْقَبُولِ وَالْإِتْرَامِ . وَعَبَّرَ عَنْهَا بِ (الْأَمَانَةِ) تَنْبِيْهُاً عَلَى أَنَّهَا حَقُوقٌ مَّرْعِيَّةٌ أَوْدَعَهَا اللَّهُ تَعَالَى الْمُسْكَفِينَ ، وَاتَّمَنَّمَهُمْ عَلَيْهَا . وَأَوْجِبَ عَلَيْهِمْ تَلَقُّيَهَا بِمَحْسَنِ الطَّاعَةِ وَالْإِتْقَادِ . وَأَمْرَهُمْ بِمِرَاعَاتِهَا وَالْحِفَاظَةَ عَلَيْهَا وَأَدَائِهَا ، مِنْ غَيْرِ إِخْلَالِ بِشَيْءٍ مِنْ حَقُوقِهَا . وَعَبَّرَ عَنْ اِعْتِبَارِهَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى اسْتِعْدَادِ مَا ذَكَرَ مِنَ السَّمَوَاتِ وَغَيْرِهَا ، بِالْعَرَضِ عَلَيْهِنَّ ، لِإِظْهَارِ مَزِيدِ الْاِعْتِنَاءِ بِأَمْرِهَا وَالرَّغْبَةِ فِي قَبُولِهَا - وَعَنْ عَدَمِ اسْتِعْدَادِهَا لِقَبُولِهَا ، بِالْإِيَاءِ وَالِإِسْفَاقِ مِنْهَا ، لِتَهْوِيلِ أَمْرِهَا وَتَرْبِيَةِ نَخَامَتِهَا - وَعَنْ قَبُولِهَا بِالْحَمْلِ لِتَحْقِيقِ مَعْنَى الصَّعُوبَةِ الْمَعْتَبَرَةِ فِيهَا ، بِجَعْلِهَا مِنْ قَبِيلِ الْأَجْسَامِ الثَّقِيلَةِ الَّتِي يَسْتَعْمَلُ فِيهَا الْقَوَى الْجِسْمَانِيَّةَ ، الَّتِي أَشَدُّهَا وَأَعْظَمُهَا مَا فِيهِنَّ مِنَ الْقُوَّةِ وَالشَّدَةِ . وَالْمَعْنَى : أَنَّ تِلْكَ الْأَمَانَةَ فِي عَظَمِ الشَّأْنِ ، بِحَيْثُ لَوْ كَلَّفْتَ هَاتِيكَ الْأَجْرَامَ الْعِظَامَ ، الَّتِي هِيَ مِثْلُ فِي الْقُوَّةِ وَالشَّدَةِ ، مِرَاعَاتِهَا ، وَكَانَتْ ذَاتَ شَعُورٍ وَإِدْرَاكٍ ، لَأَبَيَّنَ قَبُولِهَا وَأَسْفَقْنَ مِنْهَا . وَلَكِنْ صَرَفَ الْكَلَامَ عَنْ سَنَنِهِ بِتَصْوِيرِ الْمَفْرُوضِ بِصُورَةِ الْحَقِّقِ ، رَوْماً لِيُزَادَةَ تَحْقِيقَ الْمَعْنَى الْمَقْصُودِ بِالتَّمْثِيلِ وَتَوْضِيحِهِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى (وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ) أَي عَفَدَ عَرَضَهَا عَلَيْهِ . إِمَّا بِاِعْتِبَارِهَا بِالْإِضَافَةِ إِلَى اسْتِعْدَادِهِ ، أَوْ بِتَسْكَيفِهِ إِيَّاهَا يَوْمَ الْمِيثَاقِ - أَي تَسْكَفَهَا وَالتَّرْمِيحَ بِهَا مَعَهُ مَا فِيهِ مِنْ ضَعْفِ الْبِنِيَّةِ وَرَخَاوَةِ الْقُوَّةِ - وَهُوَ إِمَّا عِبَارَةٌ عَنْ قَبُولِهَا بِمَوْجِبِ اسْتِعْدَادِهِ الْفَطْرِيِّ ، أَوْ عَنْ اِعْتِرَافِهِ بِقَوْلِهِ (بَلَى) . وَقَوْلُهُ تَعَالَى (إِنَّهُ وَكَانَ ظَلُومًا جَهُولًا) اِعْتِرَاضٌ وَسَطٌ بَيْنَ الْحَمْلِ وَغَايَتِهِ ، لِلإِيذَانِ مِنْ أَوَّلِ الْأَمْرِ بِعَدَمِ وِفَائِهِ بِمَا عَهَدَهُ وَتَحْمَلِهِ - أَي أَنَّهُ كَانَ مَفْرَطًا فِي الظُّلْمِ ، مِبَالِغًا فِي الْجَهْلِ . أَي بِحَسَبِ غَالِبِ أَفْرَادِهِ الَّذِينَ لَمْ يَعْمَلُوا بِمَوْجِبِ فِطْرَتِهِمْ السَّلِيمَةِ . أَوْ اِعْتِرَافِهِمُ السَّابِقِ دُونَ مَنْ عَدَاهُمْ مِنَ الَّذِينَ لَمْ يَبْدُلُوا فِطْرَةَ اللَّهِ تَبْدِيلًا . وَإِلَى الْفَرِيقِ الْأَوَّلِ أُشِيرَ بِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا)

« لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ » أى حملها الإنسان ليعذب الله بعض أفراده الذين لم يراعوها ولم يقابلوها بالطاعة . على أن اللام للعاقبة . فإن التعذيب وإن لم يكن غرضاً له من الحمل ، لكن لما ترتب عليه بالنسبة إلى بعض أفراده ، ترتب الأغراض على الأفعال المعللة بها ، أبرز في معرض الغرض - أى كان عاقبة حمل الإنسان لها أن يعذب الله تعالى هؤلاء من أفرادها لخياتهم الأمانة و خروجهم عن الطاعة بالسكينة . وإلى الفريق الثانى أشير بقوله تعالى « وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ » أى كان عاقبة حمله لها أن يتوب الله تعالى على هؤلاء من أفراده . أى يقبل توبتهم لعدم خلعهم ربة الطاعة عن رقابهم بالمرّة . وتلافيمهم لما فرط منهم من فرطات . قلما يخلو عنها الإنسان بحكم جبلته وتداركهم لها بالتوبة والإنابة . والالتفات إلى الاسم الجليل أولاً ، تهويل الخطب وتربية المهابة . والإظهار في موضع الإضمار ثانياً ، لإبراز مزيد الاعتناء بأمر المؤمنين توفية لكل من مقامى الوعيد والوعد حقه « وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا » أى مبالغاً في المغفرة والرحمة . حيث تاب عليهم وغفر لهم فرطاتهم وأثاب بالفوز على طاعتهم . انتهى ملخصاً مما حرره أبو السعود . وقد آثرت نقله بحروفه لتجويده الكلام ، وإجادته فى المقام . وهكذا عادتنا فى كل مجود ، أن ننقله ولا نتصرف فيه .

بقى فى الآية لطائف نشير إليها :

الأولى - فسر بعض السلف الأمانة بالطاعة ، وبعضهم بالفرائض والحدود والدين . وبعضهم بمعرفة تعالى . قال ابن كثير : وكل هذه الأقوال لاتنافى بينها ، بل هى متفقة وراجعة

إلى أنها التكليف وقبول الأوامر والنواهي بشرطها . وهو أنه إن قام بذلك أئيب، وإن تركها عوقب . انتهى .

وقيل : المراد بالأمانة الطاعة التي تعم الطبيعية والاختيارية، لأنها لازمة الوجود، كما أن الأمانة لازمة الأداء . وبمرضاها، استدعاؤها الذي يعم طلب الفعل من المختار، وإرادة صدوره من غيره - وبحملها، الخيانة فيها والامتناع عن أدائها، فيكون الإباء امتناعاً عن الخيانة وإتياناً بالمراد . فالعنى أن هذه الأجرام مع عظمها وقوتها ، أبين الخيانة واتقن لأمره تعالى انقياد مثلها . حيث لم تمتنع على مشيئته وإرادته بإيجادا وتكويننا وتسوية، على هيئات مختلفة وأشكال متنوعة . كما قال^(١) (قَاتَلْنَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) وخانها الإنسان حيث لم يأت - وهو حيوان عاقل صالح للتكليف - بما أمرناه به؛ إنه كان ظلوما جهولا . وإرادة الخيانة من حملها، هو بتشبيه الأمانة قبل أدائها بحمل يحمله . كما يقال (ركبته الديون) وقرره الزخشرى بقوله : وأما حمل الأمانة فمن قولك (فلان حامل للأمانة ومحمّل لها) تريد أنه لا يؤديها إلى صاحبها حتى تزول عن ذمته، ويخرج عن عهدتها . لأن الأمانة كأنها راكبة للمؤمن عليها، وهو حاملها . الأترام يقولون (ركبته الديون) و (لى عليه حق) فإذا أداها لم تبق راكبة له ولا هو حاملا لها . ومنه قولهم (أبنض حق أخيك) لأنه إذا أحبه لم يخرج به إلى أخيه ولم يؤدّه . وإذا أبنضه أخرجه وأداه فعنى (فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان) فأبين إلا أن يؤدينها . وأبى الإنسان إلا أن يكون محتملا لها لا يؤديها . ثم وصفه بالظلم لكونه تاركا لأداء الأمانة ، وبالجهل لإخطائه ما يسعده مع تمكنه منه . وهو أداؤها . انتهى ملخصا .

الثانية - نقل ابن كثير آثارا عن بعض التابعين ؛ أن عرض الأمانة على هذه الأجرام كان حقيقيا . وأنه قيل لها : إن أحسنت جزيت وإن أسأت عوقبت . فقلن : يارب ! إننا نستطيع هذا الأمر ، وليس بنا قوة . ولكنا لك مطيعين . قال الشراح : ولا بُد ، أن يخلق الله فيها فهما لخطابه ، وأنه كان على سبيل التخيير لها . ولذا عبر بالعرض ، لا تكليفا حتى يلزم عصيانها . انتهى .

قال الإمام ابن حزم في (الفصل) في الرد على من جعل للجنادات تمييزاً، مأماله : وأما عرضه تعالى الأمانة على السموات والأرض والجبال ، وإبائة كل واحد منها، فلسنا نعلم نحن ولا أحد من الناس كيفية ذلك. وهذا نص قوله^(١) (مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ) فمن تكاف أو كاف غيره معرفة ابتداء الخلق ، وأن له مبدأ لا يشبهه البتة ، فأراد معرفة كيف كان ، فقد دخل في قوله تعالى^(٢) (وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّئًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ) .

إلا أننا نوقن أنه تعالى لم يعرض على السموات والأرض والجبال الأمانة ، إلا وقد جعل فيها تمييزاً لما عرض عليها . وقوة تفهم بها الأمانة فيما عرض عليها . فلما أبتها وأشفتت منها، سلبها ذلك التمييز وتلك القوة ، وأسقط عنها تكليف الأمانة .

قال : هذا ما يقتضيه كلامه عز وجل ، ولا مزيد عندنا على ذلك . انتهى .

وذهب جمع إلى أن ذلك من باب المجاز ، كما بينه ابن أبي الحديد في (شرح نهج البلاغة) وسبقه الزمخشري حيث قال : ونحو هذا من الكلام كثير في لسان العرب . وما جاء القرآن إلا على طرقهم وأساليبهم . من ذلك قولهم (لوقيل للشحم أين تذهب ، لقال أسوى العوج) وكم وكم لهم من أمثال على السنة البهائم والجمادات . وتصورُ مقابلة الشحم محال . ولكن الغرض أن السمّن في الحيوان مما يحسّن قبيحه . كما أن العجف مما يقبح حسنه . فصور أثر السمّن فيه تصويراً هو أوقع في نفس السامع ، وهي به آس ، وله أقبيل ، وعلى حقيقته أوقف . وكذلك تصوير عظم الأمانة ، وصعوبة أمرها وثقل حملها والوفاء بها . انتهى .

الثالثة - قال الرازي : إن قال قائل : لم قدم التعذيب على التوبة - في آخر الآية؟ نقول : لما سمي التكليف أمانة ، والأمانة من حكمها اللزوم أن الخائن يضمن ، وليس من حكمها اللزوم أن الأمين الباذل جهده يستفيد أجرة ، فكان التعذيب على الخيانة كاللزام ، والأجر على الحفظ إحسان ، والعدل قبل الإحسان .

الخامسة - ورد في تعظيم الأمانة عدة أحاديث . منها عن أبي هريرة مرفوعاً : أدّ الأمانة

(١) [١٨ / الكهف / ٥١] . (٢) [٢٤ / النور / ١٥] .

إلى من ائتمنتك، ولا تخن من خانك. رواه أبو داود^(٢) والترمذي^(١). وعن عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعاً: أربع، إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا: حفظ أمانة، وصدق حديث، وحسن خليقة، وعفة في طعمة. رواه الإمام أحمد^(٣) والطبراني. وعن أبي هريرة^(٤) قال: قال رسول الله ﷺ، لمن سأل عن الساعة: إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة. قال: كيف إضاعتها؟ يا رسول الله! قال: إذا وسد الأمر إلى غير أهله، فانتظر الساعة.

السادسة - قال ابن كثير: روى عبد الله بن المبارك في كتاب (الزهد) أن عمر بن الخطاب كان ينهى عن الحلف بالأمانة أشد النهي. وقد ورد في ذلك حديث مرفوع عن بريدة: من حلف بالأمانة فليس منا، تفرد به أبو داود^(٥). أي لأن الحلف لا يكون إلا باسم من أسمائه أو بصفة من صفاته. وأما بغير ذلك فمكروه أو حرام. كما تقرر في موضعه. والله أعلم.

السابعة - سبق لي أن كتبت في الآية شيئاً. في منتصف ربيع الأول سنة ١٣٢٤، في قرية ضمت حفلة من أهل العلم. فسأل بعض الناس عن تفسير الآية. ولم يكن ثمة تفسير. فاستعنت بالله تعالى، وقرأت السورة من أولها إلى آخرها مرات ثم كتبت ما تراه. أردت إثباته هنا تعريزاً للمقام، ونصه: في ختم السورة بهذه الآية من البدائع ما يسميه علماء البديع (رد العجز على الصدر) ذلك أن طليعة هذه السورة كانت في ذم المنافقين وقصّ

(١) رواه في: ٢٢ - كتاب البيوع، ٧٩ - باب في الرجل يأخذ حقه من تحت يده،

حديث ٣٥٣٥

(٢) أخرجه في: ١٢ - كتاب البيوع، ٣٨ - باب حدثنا أبو كريب، حديث ١٢٦٤

(٣) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ١٧٧ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) والحديث

رقم ٦٦٥٢ (طبعة المعارف)

(٤) أخرجه البخاري في: ٣ - كتاب العلم، ٢ - باب من سئل علماً وهو مشغول في

حديثه، حديث ٥٢

(٥) أخرجه في: ٢١ - كتاب الأيمان، ٥ - باب كراهية الحلف بالأمانة، حديث ٣٢٥٣

مخازيهم ونواياهم السيئة ضد الرسول وأصحابه في غزوة الأحزاب، وهي غزوة الخندق. أبان الحق تعالى أثر ما ذكر من الأمر بالتقوى وعدم إطاعة المنافقين ، وما كانوا يخوضون فيه من قصة التبتى ونحوها، أنهم كانوا أعطوا اليهود والمواثيق أنهم إن قاتلوا لا يفرّوا وذلك في قوله تعالى (١) (وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلُّونَ الْأَدْبَرَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا * قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَتُمتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا) فلما خانوا أما ناتهم بالفرار والتعويق لإخوانهم ، والتثبيط لهم ، وما كان من شنائعهم في تلك الغزوة، بين الله تعالى في خاتمة السورة، شأن الأمانة وعظم خطرها ، وأنها عند الله بمكان عظيم . وذلك لأن من أعطى من نفسه موثقا ، عاهد الله عليه فاطمأنت به النفوس ووثقت به وركنت إليه وأدرجته في عداد من يشد أزرها ، فإذا هو غادر خائن كاذب متلاعب، يتخذ عهود الله هزوا ولعبا ، فيخذل من وثق به ، ويمالء العدو عليه ويثبط من يرجى منه نوع معونة ، ويوقع الأراجيف ليوهى العزائم ويضعف الهمم ، فتكثر القالة وترتبك العامة . فما أسوأ ما يأتي به وما أظع ما ارتكب وما أعظم جريمته ! وجلّى أن عظم الجريمة بقدر عظم آثارها ، وما ذكر بعض من آثارها . ففي أى مرتبة تكون الخيانة ؟ لا جرم أنها في أحط المهادى الدينية . كما أن مرتكبا في الدرك الأسفل من النار . فالأمانة المذكورة في الآية باعتبار سياقها وسباقها، هي الأمانة التي خان في تحملها المنافقون، ونقضوا بها عهدهم في هذه الواقعة . وكان من أثرها السيء في المدينة وأهلها ما كان - وإن كان لفظها يعم ما ذكر وغيره، والإنسان هنا ، المعنى به جنس المنافق الذي قص من نبئه ما قص . والقصد لومه على كونه تحمل ما تحمل، ثم نقض ذلك عن عمد وقصد، ظلما لنفسه وجهلا بالعاقبة وباللوم الذي يتبعه، وبالعذاب الذي سيلقاه، ويكون هذا الأمر أمراً ربانيا وعزيمة إلهية ما هي بالهزل . والمراد بعرض الأمانة على السموات والأرض والجبال، هو ظهور خطرها لهذه المكونات ، وفضاعة الخيانة فيها، وإشفاق كل من خطر تحملها . وإبائهم ذلك لو كن مما يمتنان . مع أنهم أقوى أجساما وأعظم ثباتا وأصبر على

(١) [٣٣ / الأحزاب / ١٥ و ١٦] .

طوارئ الحدثنان ، تخوفاً من أن يطفن في أمرها أو يعصين في شأنها . وإن الإنسان ، مع ضعفه بالنسبة لمن ، حملها وما حفظها ولا رعاها . واجترأ مع ضعفه على ما أشفق منه ما هو أقوى منه . فما أظلمه وما أجهله ! والقصد رميه بالظلم والجهل . وجراسته على الحياة وعدم مبالاته بما تهرب منه السموات والأرض والحيال . فيالله ما أطفاه ! فذكر هذه الأجرام الكبيرة تهويل لخطر الأمانة ، وأنهن لو عقن لكان منهن ما كان . ونظير هذه الآية في ذكر هؤلاء الثلاثة قوله تعالى (١) (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا) وحقاً أن سبك المعنى المذكور في قالب هذا النظم البديع لمعجزة من معجزات التنزيل ، وخارق من خوارقه في باب البلاغة . فإن أسلوبه في إفراغ المعاني في أرق الألفاظ وأنعم التراكيب ، أسلوب انفرادي عن كل كلام . وبه يعلم أن من بحث في كيفية العرض عليهن ، هل كان بإيداع عقل فيهن أولاً ، وفي تعيين زمانه وفي كيفية إبانهن وإشفاقهن ، وفي معنى لوم الإنسان ورميه بالظلم والجهل ، بعد ما عرضت عليه ، وأن ظاهره التخيير إلى غير ذلك - كله فلسفة لفظية ، ولدها عشاق الظواهر والألفاظ ، الولوجون في الغلو بمفرداتها ، وصرف الوقت فيما جعل ذلك منتهى قصدهم ومبلغ علمهم . فضاع عليهم المعنى ولم يهتدوا إليه - ولن يجدوا إليه سبيلاً ما دام هذا سبيلهم - والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

تم الجزء الثالث عشر . ويليه إن شاء الله الجزء الرابع عشر ، وفيه تفسير : (٣٤ - سورة سبأ ، و ٣٥ - سورة فاطر ، و ٣٦ - سورة يس ، ٣٧ - سورة الصافات ، و ٣٨ - سورة ص ، و ٣٩ - سورة الزمر ، و ٤٠ - سورة غافر ، و ٤١ - سورة فصلت ، و ٤٢ - سورة الشورى ، و ٤٣ - سورة الزخرف ، و ٤٤ - سورة الدخان و ٣٥ - سورة الجاثية)

(١) [١٩ / مريم / ٨٨ - ٩١] .

obeikandi.com

obeikandi.com